

أحسن تفسير للقرآن الكريم في تاريخ الله
بمفيض من لذة عز وجل

مَجَالِ الْمَلَكِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الثاني والثلاثون

سورة البقرة (١٩٩-٢٠٥)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل صالح

أسد الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية ١٩٩.

الإعراب واللغة

ثم: حرف عطف يفيد التراخي.
 أفيضوا: فعل أمر مبني على حذف النون، الواو: فاعل.
 من حيث: جار ومجرور متعلقان بأفيضوا، أفاض: فعل ماض مبني على الفتح، الناس: فاعل مرفوع بالضممة الظاهرة على آخره.
 واستغفروا الله: الواو عاطفة، استغفروا: فعل أمر، الواو: فاعل، اسم الجلالة: مفعول به.
 إن الله: إن حرف مشبه بالفعل، واسم الجلالة اسم إن منصوب بالفتحة.

غفور: خبر (إن) مرفوع، رحيم: خبر ثان مرفوع.
 يقال فاض الماء أي كثر وسال على ضفة الوادي على وزن باع، وفاضت نفسه أي انفصلت روحه عن الجسد وخرجت منه قاله الفراء وأبو عبيد، وأشكل الأصمعي بأنه (لا يقال فاض الرجل ولا فاضت نفسه، وإنما يفيض الدمع والماء)^(١)، وأفاض إناءه أي ملأه حتى زاد وسال على الجانبين (والفيض نيل مصر ونهر البصرة أيضاً. ونهر فياض بالتشديد أي كثير الماء. ورجل فياض أيضاً أي وهاب جواد)^(٢).

(١) الصحاح في اللغة ٢٤٦/١.

(٢) مختار الصحاح ٢٤٦/١.

وأفاض الحاج من عرفات إلى منى أي إندفعوا، وكل دفعة إفاضة أي لا ينحصر صدق الإفاضة على أول دفعة بل أنه عنوان وصبغة لكل دفعات الحاج من عرفات إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وفي وصف إندفاع المسلمين بالإفاضة ثناء عليهم، وشكر ولطف من عند الله، ويأتي مزيد بيان في باب التفسير.

بحثان في القراءة

الأول: في باب ما وقع بغير لغة الحجاز ذكر ﴿أَفِضُوا﴾ بلغة خزاعة ومعناه انفروا، ولكن هناك قاعدة كلية في كلمات القرآن وهي انه لا يصلح من جهة السياق والمعنى ان تأتي كلمة اخرى محل وموضع كلمات القرآن وان كانت مرادفة لها، وان ما يقال عن التقسيم بين لغات العرب في بعض الكلمات لا يرقى الى الاستثناء والخروج عن هذه القاعدة، فالإفاضة تعني التدفق، وهي مناسبة للجهاد السلمي والعطاء والكثرة الايمانية، والفيض يأتي بمعنى الخروج يُقال فاضت نفسه أي خرجت، فكان الإفاضة تخرج وفد الحاج من ذنوبهم .
فالآية بشارة العفو والمغفرة واستقبال ما بقي من العمر بانعدام أوزار الذنوب.

الثاني: قرأ سعيد بن جبير (من حيث أفاض الناس) - بكسر السين أي آدم لقوله تعالى ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(١) وفيها:

الأولى: ان هذه القراءة من الغريب فلا تصلح للإستدلال.

الثانية: انها منافية لتزيه الأنبياء ولغة اكرامهم المنبسطة على القرآن، وتتعارض مع قواعد تنزيه القرآن والآيات التي يمكن تأويلها خصوصاً وانها وردت بصيغة الخطاب للنبي وليس بذكره بضمير الغائب في

الجملة، والتوجيه بارادة انها عبادة قديمة فلا تضيعوها غير كاف ان لم يكن خلاف الظاهر.

الثالثة : من شرائط التشبيه ان يكون المشبه به معروفاً، ولا يعرف عند المسلمين كيف افاض آدم الا من خلال البيان والتفسير ولا يخلو بتعليق الأمر على افاضته وفعله، وآيات الحج مبنية على البيان والوضوح.

الرابعة : الآية في المقام بيان احكام الحج وتشبيتها فلا بد ان تكون واضحة كما هو ظاهر بجلاء في آيات الحج ومناسكه.

الخامسة : لا يكون الأمر بإتيان فعل والمداومة عليه بواسطة التشبيه بمن نساه لأنه لا يخلو من اغراء في عدم الإلتزام التام به خصوصاً بلحاظ مفهوم الأولوية وسمو مراتب النبوة في العبادة.

السادسة : حصل هذا النسيان في السماء وعلى قول انه دليل على خروجه من الرسل اولي العزم، والمطلوب الإفاضة في الحج كتكليف في الأرض وآدم عليه السلام التزم به، ولعله اكثر الأنبياء اداء للحج والله عز وجل هو الشاكر العليم.

السابعة : آدم عليه السلام هو الذي اول من حج البيت من البشر وبناه بأمر من الله تعالى وتوجيه من جبرئيل، والله عز وجل هو الشاكر العليم، فمن المستبعد ان يسمى في هذا الوضع بالخصوص بالناسي.

الثامنة : لقد ورد ذكر آدم في القرآن على نحو الإكرام والتفضيل وهو مفهوم كلي ودعوة للإقتداء به.

التاسعة : آدم ابو البشر والله عز وجل هو اللطيف الذي تفضل وأمر باكرام الآباء وقرن طاعة الوالدين بطاعته.

في سياق الآيات

تتعلق هذه الآيات بمناسك الحج ولعلها أكثر الآيات جاءت مجمعة لتتناول موضوعاً واحداً مما يدل على أهمية مناسك الحج ولزوم التفقه فيه والحرص على اتیان أفعاله جميعها، ولما أمر سبحانه بإتمام الحج والعمرة جاءت هذه الآيات للإعانة على أداء الحج على الوجه الأتم والأكمل.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة لها على شعبتين:

الأولى : صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة وفيها مسائل:

الأولى : تكرر مادة الإفاضة في آية البحث والسياق وكلها تتعلق في ذات مناسك الحج مع التعاقب بينها، وفيه إعانة للمسلمين في ضبط مناسك الحج وعدم جواز التقديم والتأخير فيها إلا وفق التشريع الذي لا يقبل التردد والاختلاف من جهة سبق الوقوف في عرفة على الوقوف في المشعر الحرام ثم الإفاضة منه بإتجاه مكة.

الثانية : تضمنت آية البحث الأمر بذكر الله عز وجل، والثناء عليه تعالى لفضله بهداية المسلمين إلى منازل التقوى وجاءت آية البحث بالأمر بالاستغفار ليكون خاتمة للذكر ولبیان موضوعية في مناسك الحج.

الثالثة : ذكرت آية البحث اسم الجلالة (الله) مرتين وكذا آية السياق مرة باسم الجلالة وأخرى بصفة (ربكم) والرب من أمهات الأسماء الحسنى لبيان إكرام الله عز وجل للمسلمين وتغشيتهم برحمته ولطفه.

الرابعة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ

الضالِّينَ﴾ وفيه وجوه:

الأول : التذكر بنعمة الهداية على المسلمين.

الثاني : بيان فضل الله عز وجل بإصلاح المسلمين لأداء مناسك الحج.

الثالث : أداء الحج من مصاديق الهداية والصلاح.

الرابع : الشهادة للمسلمين بالهداية بأداء المستطيع منهم مناسك الحج، قال تعالى ﴿مَنْ يُهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾^(١)، وأختتمت آية البحث بقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) وفيه وجوه:

الأول : ترغيب المسلمين بالإستغفار.

الثاني : بيان منافع الإستغفار.

الثالث : الوعد الكريم من عند الله بالعفو والمغفرة عن المسلمين.

السادسة : من مصاديق رحمة الله التي أختتمت بها آية البحث التوفيق لأداء الحج والطواف بالبيت الحرام وكل منسك من مناسك الحج رحمة سواء في التشريع أو لأداء وحسن الإمثال.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ.....﴾^(٢)، وفي الآية مسائل:

الأولى : إتحاد موضوع الآيتين إذ تتعلق كل واحدة منهما بالحج وأحكامه.

الثانية : مضامين كل من آية البحث والسياق ترغيب بالحج، ودعوة لأدائه.

الثالثة : تضمنت آية البحث أمران:

الأول : بدني وهو الإفاضة.

الثاني : قلبي وهو الإستغفار.

(١) سورة الأعراف ١٧٧.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

وتضمنت آية السياق أموراً تتعلق بالحج:

الأول : الأمر بالصالح.

الثاني : وجوب التقوى، وتضمنت نواهي.

الثالث : إجتنب الكلام الفاحش.

الرابع : ترك المعصية.

الخامس : الإمساك عن الجدال.

الرابعة : من خصائص الأوامر في الحج أنها عون للتقيد بالنواهي فيه وكذا العكس، فمن خصائص النواهي في الحج أنها عون لأداء مناسكه، فيفيض المسلمون دفعة واحدة متراصين متأخين ليس في صدورهم غل أو حسد، والكل منقطع إلى الله عز وجل وذكره وتسبيحه.

الخامسة : أختتمت آية البحث بالإخبار عن قانون كلي في الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل غفور رحيم لتدل هذه الخاتمة بالدلالة التضمنية على أن كل منسك من مناسك الحج باب للفوز بالمغفرة.

السادسة : بيان حقيقة وهي ترشح أداء المناسك عن فرض الحج والعزم عليه، فمن يذهب إلى مكة لأداء الحج فيجب أن يبدأ من الميقات بأداء المناسك بأن يرتدي لباس الإحرام وينقطع إلى التلبية ويمتنع عن تروك الإحرام.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾^(١)،

وفيه مسائل:

الأولى : إبتدأت كل من الآيتين بحرف عطف ، وبينهما عموم وخصوص من وجه فكل من الآيتين معطوفة على التي قبلها، وإبتدأت آية السياق بحرف العطف الواو لإفادة التعاقب، بينما إبتدأت آية

السياق بحرف العطف الواو لإفادة المتعاقب بينما إبتدأت آية البحث بالحرف (ثم) الذي يفيد التراخي مع أن موضوعها متصل ومتحد مع موضوع الآية السابقة لها.

الثانية : من مصاديق إتمام الحج الذي ذكرته آية السياق هو إفاضة الحاج من عرفات دفعة وفي آن واحد نحو المشعر الحرام، ومنه الإستغفار وسؤال العفو من عند الله في مظان الإستجابة.

الثالثة : يدل قوله تعالى ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أن مناسك الحج تودى قبل الإسلام وإن الإنصراف من عرفة والمشعر الحرام هو من تمام الحج.

الرابعة : تضمنت آية السياق الأمر بإتمام الحج والعمرة، والإفاضة من مناسك الحج على نحو الخصوص فهل آية البحث خاصة بمناسك الحج دون العمرة، الجواب لا، بلحاظ أن العمرة فعل عبادي متصل بالحج وأن آية البحث جاءت بالترغيب بفضل الله وأن ينهل منه المسلمون والمسلمون.

الخامسة : تضمنت آية السياق الأمر بتقوى الله لتبسط على أفعال الحج لتأتي الإفاضة بقيد التقوى والخشية من الله.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله.

الثاني : فإذا قضيتُم مناسككم إستغفروا الله.

الثالث : فأذكروا الله ثم أفوضوا من حيث أفاض الناس.

الرابع : فأفوضوا من حيث أفاض الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاف.

السادس : فإذا قضيتُم مناسككم إن الله غفور رحيم.

السابع : فأذكروا الله إن الله غفور رحيم.

الثامن : فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاف إن الله غفور رحيم.

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين أن الإفاضة من عرفات منسك من مناسك الحج وأن بعده مناسك بلحاظ صيغة الجمع (مناسككم).

الثالثة : إتحاد موضوع الآيتين وصيغة الخطاب فيها إذ تتوجه إلى المسلمين والمسلمات الذين يؤدون مناسك الحج وغيره خصوصاً وأن الذي لا يستطيع أن يؤديه في ذات السنة فقد يرزقه الله الحج في قابل بإستطاعة أو بذل أو خدمة أو إجازة.

الرابعة : تكررت مادة الإفاضة في آية البحث، وتكررت مادة الذكر في آية السياق ثلاث مرات للبحث على ذكر الله في الحج وبعده لتنمية ملكة الذكر عند المسلمين، ولجعل الأيام بعد الحج متصلة معه بعمارتها بالذكر والتسبيح والتهليل.

الخامسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) وأختتمت آية السياق بزم أهل الدنيا وخسارتهم في الآخرة، وفيه ذم إضافي لهم بأنهم لم ينتفعوا من العفو وباب المغفرة الذي فتحه للناس.

السادسة : بشارة فوز المسلمين في الآخرة بأدائهم الحج وإتيانهم مناسكه وإستجارتهم بالإستغفار.

السابعة : أختتمت الآية السابقة بالإخبار عن رحمة الله عز وجل ومن رحمته قضاء المسلمين المناسك.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾^(١)، وفيه مسائل:

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الخطاب المتوجه لوفد الحاج خاصة والمسلمين عامة بينما جاءت آية السياق بصيغة الجملة الخبرية.

الثانية : أداء مناسك الحج طاعة وإحسان للذات وحسنة في الدنيا والآخرة.

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين أن الدعاء وسيلة وعون لأداء الحج ومناسكه، فتارة يدعو المسلم الله عز وجل أن يرزقه الحج، وأخرى يسأل الله بالمعنى الأعم ومضامين آية السياق، فينعم الله عز وجل بالتوفيق لأداء الحج وتهيئة مقدماته وأسبابه.

الرابعة : أداء مناسك الحج واقية من عذاب النار.

الخامسة : يتلو المسلمون آية السياق ويدعون الله عز وجل بأن يرزقهم خير الدنيا والآخرة، فتفضل الله عز وجل عليهم بالحج ليكون مصداقاً للخير في الدنيا ومقدمة لأفراد غير متناهية منه فذات الحج حسنة وتترشح عنه الحسنات في الدنيا، أما في الآخرة، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة^(٢)، وفي معنى المبرور وجوه:

الأول : الحج التام الخالي من الذنوب، والذي لم يصاحبه رفث أو فسق أو جدال.

الثاني : الحج المقبول عند الله كما في حديث آدم، وعن ابن عباس قال: حج آدم فطاف بالبيت سبعاً، فلقيته الملائكة في الطواف فقالوا: بر حجك يا آدم، أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي

(١) سورة البقرة ٢٠١.

(٢) تفسير الرازي ٣١٢/٤.

عام . قال : فماذا كنتم تقولون في الطواف؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . قال آدم : فزيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فزادت الملائكة فيها ذلك ، ثم حج إبراهيم بعد بنائه البيت ، فلقيته الملائكة في الطواف فسلموا عليه فقال لهم : ماذا كنتم تقولون في طوافكم؟ قالوا : كنا نقول قبل أيك آدم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فاعلمناه ذلك ، فقال : زيدوا ولا حول ولا قوة إلا بالله . فقال إبراهيم : زيدوا فيها العلي العظيم . فقالت الملائكة ذلك^(١).

الثالث : الحج المبرور الخالص لله عز وجل والخالي من الرياء.
ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الحج المبرور.
السادس : أختتمت آية البحث بقوله تعالى (إن الله غفور رحيم)
وأختتمت آية السياق بدعاء المؤمنين (وقنا عذاب النار)، لتكون السلامة من النار بفضل الله وتجاوزه عن الذنوب ورحمته بالمؤمنين سواء الذين أدوا مناسك الحج أو الذين عجزوا عن أسباب الإستطاعة.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾^(٢)، وفيه مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:
الأول : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وأذكروا الله في أيام معدودات.

الثاني : واذكروا الله في أيام معدودات واستغفروا الله.
الثالث : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واتقوا الله.

(١) الدر المنثور ١/ ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

الرابع : وإتقوا الله واستغفروا الله.

الخامس : واستغفروا الله وأعلموا أنكم إليه تحشرون.

السادس : وإذكروا الله في أيام معدودات إن الله غفور رحيم.

السابع : فمن تعجل في يومين إن الله غفور رحيم.

الثامن : ومن تأخر في يومين إن الله غفور رحيم.

التاسع : وإتقوا الله إن الله غفور رحيم.

العاشر : إن الله غفور رحيم وأعلموا أنكم إليه تحشرون.

الثانية : موضوع كل من الآيتين هو الحج ومناسكه مما يدل على فضل الله في تعليم وهداية المسلمين إلى سبل طاعته وسلامتهم من الفرق والخلاف في العبادات، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١).

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين وجوب ذكر الله في كل أيام الحج، وأن الإفاضة من عرفات لا تنحصر بالفعل البدني بل لابد أن يقترن بذكر الله والدعاء والتسبيح، وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَنَحْنُ بِجَمْعٍ سَمِعْتُ الَّذِي أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِيَيْكَ اللَّهُمَّ لِيَيْكَ^(٢).

الرابعة : تضمنت آية السياق الأمر بتقوى الله، ومن مصاديق التقوى الواردة في آية البحث أمور:

الأول : إتيان مناسك الحج على نحو التسابع وفق الكتاب والحسنة، والإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام.

الثاني : تقيد المسلمين بالخروج من عرفة في وقت واحد، وعدم الاختلاف فيه.

الثالث : إجتهد وفد الحاج بذكر الله.

(١) سورة البقرة ٢٨٢.

(٢) مسند ابن أبي شيبة ٥٦٥/١.

الرابع : المواظبة على الإستغفار وسؤال العفو وطلب الرحمة من عند الله عز وجل .

اعجاز الآية

الأمر بالإفاضة على نحو المثل والتشبيه بالفعل وامتنال الغير واحتسابه كافياً لدوام النسك الى يوم القيامة آية تدل على تفقه المسلمين، وتحت الآية على استثمار المناسبة للإستغفار وهو اعظم كفارة وتتضمن الوعد الكريم بالتوبة والمغفرة وهي تذكير دائم بالفريضة مع انها في موسم مخصوص .

وتبين الآية توارث الناس مناسك الحج على إختلاف مشاربهم، ومن الإعجاز في قوله تعالى (كما أفاض الناس) إشارة إلى وراثة العرب من أهل الجاهلية مناسك الحج عن إبراهيم عليه السلام، وبقوا على أداء شطرا منها فجاءت الآية لمنع الحرج من إتيان ما كان يفعله المشركون من المناسك، كما في السعي بين الصفا والمروة ونزول قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(١).

ومن خصائص الخطاب في هذه الآية (ثم أفيضوا) بقاؤه إلى يوم القيامة إذ يتوجه كل عام إلى وفد الحاج من المسلمين، وفيه مسائل:

الأولى : بشارة المسلمين بدوام مناسك الحج .

الثانية : أداء المسلمين لمناسك الحج وإلى يوم القيامة .

الثالثة : تقييد المسلمين بأحكام وسنن الحج والعمرة وعدم طرو

التحريف عليها، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(١).

الرابعة : وحدة المسلمين في أداء المناسك، وعدم إختلافهم فيها.

الخامسة : إستحضار المسلمين لأفعال الأمم السابقة، ووراثتهم لعملهم العبادي.

السادسة : تجلي فضل المسلمين على الأمم السابقة بتعاهد مناسك الحج كل عام وكذا الصلاة والزكاة والصيام، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

السابعة : بيان حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إستقامة أداء العبادات وإتيانها على الوجه الأكمل الذي يريده الله عز وجل ويصدق عليه قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣)، بتقريب أن الله عز وجل يريد العبادة كاملة جامعة للشرائط وتبين الآية قانوناً في الإرادة التكوينية وهو وجوب تعقب الفصل العبادة بالإستغفار وإظهار المسكنة والخضوع لله عز وجل.

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة آية (ثم أفيضوا).

الآية سلاح

تساهم الآية في اداء مناسك الحج وتطرد الخلاف والفرقة وتيسر للفقهاء اتحادهم في العمل والفتوى، وتحث على ولوج باب الإستغفار وتخفف عن المسلمين ببيان احكام الحج وتبعث الشوق في النفوس لأداء فريضة الحج.

(١) سورة البقرة ١٩٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

لقد جعل الله عز وجل الإنسان كائناً محتاجاً، وهذه الحاجة تصاحبه في كل آن وفي كل مورد من موارد الحياة، وتتجلى الحاجة بالشهيق والزفير من حيث مدته وتتابع أفراد حاجة الإنسان صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى، فإذا يشترك الناس جميعاً في الحاجة لرحمة الله فإن الأمر بالحج توجه في هذه الآيات لكل المسلمين والمسلمات لتكون علة لاستدامة الحياة الدنيا ودوام النعم على أهل الأرض، والحج من مصاديق الشكر لله عز وجل على نعمة الحياة والسياسة في الأرض، قال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

وهل تدعو الآية للإقتباس من الناس لقوله تعالى ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ الجواب الآية أخص، إنما جاءت بلغة المثل والتشبيه وبموضوع معلوم ومحدد لتكون هذه الآية وثيقة تاريخية وشاهداً على صحة عبادات المسلمين وأنها ليست مبتدأ، وأن الناس وأهل الملل السابقة كانوا يؤتونها.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا بيتاً. فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء نودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بنياه أوحى الله إليهما: أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجة نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه^(٢).

(١) سورة إبراهيم ٧.

(٢) الدر المنثور ١/٢٤٩.

مفهوم الآية

الآية منع للإجتهد في مقابل النص والحيلولة دون ايجاد وسائل وصيغ في الحج تتناسب وحالات الزحام والإضطراب والحروب والفتن ونحوها كل بحسب الحال، وكما انها تمنع من انفراد الملوك والأمراء بمناسك خاصة تتصف بالإيجاز والإختصار وقصر المسافة والمدة، فجاءت الآية لتخبر ان احكام مناسك الحج ثابتة الى يوم القيامة فلا تقبل التجزئة او التغيير او التبديل او التخصيص ويتوجه الخطاب فيها لكل مكلف، وتظهر هذه الآية موضوعية سلاح القرآن في تثبيت الفرائض والمناسك وعدم امكان الإستغناء عنه ابتداء واستدامة، أي بعد السنة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريبية ومعرفة المسلمين لمناسك الحج وتوارثها جيلاً بعد جيل وصدور فتاوى العلماء في كل زمان وبما يطابق الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة فهل تبقى الحاجة لهذه الآيات في تثبيت وتعاهد المناسك الجواب نعم فانها تمنع الزيغ والوضع والإفتراء وميل الفقهاء الى التخفيف او التشديد والإحتياط المنافي للإحتياط فهي سلاح سماوي ضروري لحفظ المناسك والفرائض.

وبعد الذكر وابتغاء فضله تعالى جاء الأمر بالإستغفار وموضوعيته في المقام لأمرين:

الأول: ان الإستغفار باب للرزق قال تعالى ﴿وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ مَسَا عَاصِيَاتَ﴾.

الثاني: ان الحج مناسبة لمحو الذنوب والخطايا وجاء الإستغفار بعد اداء اكثر مناسك الحج ليستقبل الحاج ايامه بالتخلص من الذنوب والنجاة من اوزارها وتبعاتها، وخاتمة الآية وعد كريم بالمغفرة وقبول

التوبة وإذا كانت الذنوب تمحى بالإستغفار وهو لفظ وقول فمن باب أولى ان يقبل سبحانه الحج لأنه الحج سعي وجهاد وتكليف مالي وبدني يرجو العبد بادائه مرضاته تعالى ومغفرته وهو سبحانه يعطي الكثير بالقليل.

والأمر بالإفاضة خاص بوفد الحاج اما الأمر بالإستغفار فهو مطلق ويشمل كل مسلم لمحبوية الإستغفار وحسنه الذاتي وتعدد الأمر بالإستغفار في القرآن، نعم الإستغفار بالنسبة للحاج نوع من المناسك كما هو ظاهر الآية.

ومن مفاهيم الآية انها تنهى عن ترك الإستغفار وعدم الإلتفات اليه، كما ان اداء المناسك البدنية في الحج والإلتزام باوقاتها وكيفيةها واوان ومكان ابتدائها وانتهائها لا يعني ترك الذكر والإستغفار، وبعد ان جاءت الآية السابقة بالأمر بذكره تعالى وعلى نحو متعدد جاءت هذه الآية بالأمر بالإستغفار والتوبة، وبين الذكر والإستغفار عموم وخصوص مطلق، فكل استغفار هو ذكر وليس كل ذكر هو استغفار، كما ان متعلق الإستغفار موضوع خاص وهو سؤال محو الذنوب والتجاوز عن الخطايا.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : بعث المسلمين على أداء والمسألة.

الثانية : أوان الحج مناسبة للدعاء وطلب النائب.

الثالثة : حث المسلمين على الإستغفار وسؤال العفو والمغفرة في أيام

الحج، وهذا السؤال مناسبة لنزول الرزق الكريم وفي التنزيل ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مَذَرَارًا ﴿١١﴾.

الرابعة : يدل بعث المسلمين على الدعاء على الوعد من عند الله للإستجابة لتفتح السماء أبوابها يوم عرفة لقوس الصعود بالدعاء والنزل بالإستجابة بفضل من الله، وعن الإمام علي عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما حج حجة الوداع وقف بعرفة، وأقبل بوجهه..... إلى مغفوراً لكم ما سلف).

الخامسة : دلالة الآية بالدلالة التضمنية على أن الوقوف في عرفة من مناسك الحج.

السادسة : وجوب إنصراف المسلمين من عرفة في آن واحد ودفعة واحدة وليس على دفعات أو في ليالي متعددة وتلك آية في ضبط مناسك الحج ومنع الخلاف والإجتهاد فيها، وهو من أسرار لفظ الإفاضة في المقام بأن يغادر وفد الحاج مع كثرته عرفة في آن واحد وكأنهم الماء المندفع الجاري الذي تتداخل جزئياته ويكون متحداً، وكذا المسلمون فلا ترضى في خروجهم من عرفات من فجوة بينهم.

السابعة : تبين الآية قانوناً كلياً وهو أن مناسك الحج والتعاقب فيها توقيفي وليس إختيارياً، ولا يحق الإجتهاد فيه فبعد الوقوف بعرفة يتم التوجه ومن غير إبطاء إلى المشعر الحرام.

الثامنة : موضوعية ذكر الله في موطئ من مواطن الحج، ولزوم عدم التفريط والإنشغال عن ذكر الله وتلاوة آيات القرآن والدعاء والمسألة.

التاسعة : بيان حقيقة وهي أن الحج خير محض ومصدق للهداية، وفي قوله تعالى (كما هداكم) وعد كريم من الله على الإجابة على أداء

الحج وفيه شاهد على تزكية والذي يؤدي فريضة الحج وتنزهه من الفسق والمعصية.

العاشرة : الترغيب بالحج، ودعوة المسلمين للتفقه في أحكامه، وتوارث بذل الوسع للسعي إليه عند تحقق الإستطاعة والقدرة على أدائه.

الحادية عشرة : تعدد الأمر بالذكر في الآية ليكون أحدهما خاصاً بوفد الحاج، والآخر عاماً للمسلمين كي ينتفع عموم المسلمين في أرجاء الأرض من بركات يوم عرفة وما فيه بالذات والذكر فيه من الأجر والثواب ونزول الفضل الإلهي، فهو نعمة ربانية ومن مصاديق قول تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

الثانية عشرة : بيان شطر من مناسك الحج.

الثالثة عشرة : ترغيب المسلمين بالحج وأدائه.

الرابعة عشرة : الإخبار السماوي بأن مناسك الحج توقيفية ولا يجوز التقديم والتأخير فيها.

الخامسة عشرة : تثبيت المسلمين في منازل الإيمان.

السادسة عشرة : منع الفرقة والخلاف بين المسلمين في أداء العبادات والفرائض.

السابعة عشرة : الإفاضة من عرفات ليست نهاية المناسك الواجبة في الحج بل تأتي بعدها مناسك أخرى.

الثامنة عشرة : بيان حقيقة تأريخية في عقائد أهل الملل والنحل وهي أن الحج ليس تشريفاً مستحدثاً جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم فقد كان الأنبياء وعامة الناس يأتون، وهو من أسرار لفظ (الناس) في الآية.

التاسعة عشرة : لغة التحدي في الآية بأن الحج فريضة سابقة للإسلام.

العشرون : الحج مناسبة للفوز بالمغفرة بأداء أفعال الحج، وبالإستغفار القولي.

وأخرج البزار عن جابر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحجاج والعمار وفد الله دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم^(١)، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: الحجاج والعمار وفد الله عز وجل إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم^(٢).

الحادية والعشرون : الترغيب بالحج وبالإستغفار، فكل منهما نعمة مستقلة في ذاتها.

الثانية والعشرون : البشارة بالعفو والمغفرة ونزول الرحمة للمسلمين والمسلمات ببركة حج البيت الحرام.

الثالثة والعشرون : إخبار المسلمين والناس جميعاً بأن البيت الحرام باب رحمة للمسلمين.

إفادات الآية

تفيض علينا آيات القرآن بأسباب الهداية والفلاح وتتضمن الأوامر والنواهي التي تبعث على الصلاح، وتمنع من الغي والضلالة، لتأتي هذه الآية بالإخبار عن إفادة المسلمين من عرفات ليفيضوا على الناس بأمور:

(١) الدر المنثور ١/٤٢٢.

(٢) الكشف والبيان ١/٣٩٣.

الأول : تجلي صيغ التقوى وإطلاع الناس عليها.

الثاني : جذب الناس إلى سبل الطاعة وتذكيرهم بالوظائف العبادية التي تنغشاهم جميعاً، ومنها قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١).

الثالث : تتقوم الحياة الدنيا بتقوى الله والخشية منه والعمل بأوامره واجتناب ما نهى عنه سبحانه، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٢)، ويدعو المسلمون كل عام الناس إلى التقوى بإتيان الحج ومناسكه.

الرابع : تذكير الناس باليوم الآخر ولزوم الاستعداد لعالم الحساب وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٣).

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين إحياء فرض الجهاد كل عام من غير قتال أو سفك دماء بأن يهاجر جمع من كل مصر ومدينة وقرية من قرى المسلمين إلى مكة المكرمة في أشهر الحج فيجتمعوا في أيام مخصوصة ويؤدوا المناسك متحدّين وليس للتباعد في الأوطان والتباين في اللسان بينهم أثر أو موضوعية، فيكون الحج من مصاديق قوله تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾^(٤)، ففي الحج إسقاط الواجب وأمر بالمعروف ودعوة

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة النساء ١.

(٣) سورة آل عمران ٩.

(٤) سورة الحج ٧٧.

للمصالح وحجة على الناس خاصة وأن آدم ومن بعده من الأنبياء حجوا البيت.

الآية لطف

إبتدأت الآية بالأمر (ثم أفيضوا) وتقديره (ثم أطيعوا) إذ تتضمن الآية دعوة المسلمين لطاعة الله عز وجل في العبادات وعمل الصالحات ليفيض ويتوجه المسلمون إلى البيت الحرام على نحو الوجوب ومن خصائص البيت في المقام أمور:

الأول : إنه بيت الله، قال تعالى في خطاب إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

الثاني : إنه بيت نصبه الله صرحاً عبادياً للناس جميعاً من أيام آدم إلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وتدل الآية أعلاه على بقائه إلى يوم القيامة لصدق لفظ الناس على كل جيل من البشر.

الثالث : تجلي البركة في البيت الحرام ومنها إفاضة المسلمين نحوه من المشعر الحرام مرة كل عام بينما يتوجهون إليه في غيره من الأيام من كل حذب ومصر وكان ليس ثمة مسافة بين أمصارهم وبينها.

الرابع : شوق النفوس للبيت الحرام كل يوم بإستقباله في الصلاة، وما يترشح عنه من الرغبة للطواف حوله والإستجارة به.

وعن محمد بن سابط قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مكة لا يسكنها سافك دم ولا تاجر بربا ولا مشاء بنميمة. قال: ودحيت

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به، وهي الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به، وهي الأرض التي قال الله {إني جاعل في الأرض خليفة} وكان النبي من الأنبياء إذا هلك قومه فنجا هو والصالحون معه أتاها بمن معه فيعبدون الله حتى يموتوا فيها، وإن قبر نوح وهود وشعيب وصالح بين زمزم والركن والمقام^(١).

الخامس : من مصاديق البركة في البيت الحرام ونعته بكونه ﴿مُبَارَكًا﴾^(٢)، أن النظر إلى الكعبة عبادة وفيه ثواب عظيم، وأخرج الجندي عن عطاء قال: النظر إلى البيت عبادة، والناظر إلى البيت بمنزلة القائم الصائم المخبت المجاهد في سبيل الله^(٣).

الصلة بين أول وآخر الآية

باستثناء خمس آيات ابتدأت بحرف العطف (ثم) جاءت خطاباً لبني إسرائيل في بداية سورة البقرة، فإن هذه الآية هي الوحيدة هي التي تبدأ بحرف العطف (ثم) ووردت في باب العبادات لبيان أن الحج عبادة تتكون من عدة مناسك وأفعال عبادية مكانية تتقوم بالإنقال من موضع خلال أربعة وعشرين ساعة هي أهم مناسكه وهي:

الأول : الوقوف في عرفة عند زوال يوم التاسع من شهر ذي الحجة.

الثاني : الإفاضة عند غروب ذات اليوم من عرفة إلى المشعر الحرام.

الثالث : الوقوف في مزدلفة بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس من

اليوم العاشر.

(١) الدر المنثور ١/٢٦٢.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

(٣) الدر المنثور ١/٢٦٢.

الرابع : رمي الجمرات والذبح والحلق في منى.

الخامس : الطواف حول الكعبة.

السادس : ركعتا الطواف.

السابع : السعي بين الصفا والمروة.

فلو لا شدة الزحام فإن المسلم والمسلمة بإمكانهما إتيان هذه الأفعال في مدة يوم تلفيقي ولا ضير في التأخير والإمهال إذ تمتلأ النفس بالسكينة والرضا عند الأداء ثم تأتي أفعال منى التي تبدأ من غروب اليوم العاشر. وورد ذكر الإفاضة في الآية بلغة المثل في التعيين بلغة المثل في التعيين المكاني ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ وفيه بيان لعظيم قدرة الله عز وجل وأنه جعل الحج أمراً متوارثاً في الأجيال لم تستطع قوى الضلالة والشرك جعل الناس يتركونه ويهجرونه لتسلم راية الحج إلى المسلمين ولكنهم يتصفون بخصوصية حميدة وهي أداؤهم له تاماً كاملاً بأمر من الله عز وجل ليكون تقدير قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: خذوا عني مناسككم) خذوها عني تامة غير ناقصة وأن الإمثال لقوله تعالى ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يتجلى بأمور:

الأول : آيات الأحكام في القرآن خصوصاً آيات الحج هذه.

الثاني : سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العقلية.

الثالث : سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القولية.

الرابع : علم المسلمين بأشهر الحج ومواطنة وأعلامه.

الخامس : وراثة المسلمين للأنبياء لقيامهم بحج البيت وحفظ هذه

الشعيرة والركن من الإيمان.

وأختتمت الآية بالأمر إلى المسلمين جميعاً ووفد الحاج منهم خاصة بالإفاضة مثلما أفاض الذين من قبل ومثلما أفاض المسلمون في السنين السابقة، وروي أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم (أفاض من عرفة وعليه السكينة وأوضع في وادي محسر) ويقال أوضع الراكب ووضع أي أسرع (أوضع في وادي محسر أي أعدى بعيره وركضه)^(١). وبعد الإفاضة جاء الأمر الثاني للمسلمين بالإستغفار، ويكون على وجوه:

الأول : إستغفار الحاج لنفسه.

الثاني : إستغفار الحاج لوفد الحجاج.

الثالث : قيام المسلم بالإستغفار لوالديه برأ بهما في الديار المقدسة.

الرابع : إستغفار المسلم لعموم المسلمين.

الخامس : إستغفار المسلمين للفرد الواحد منهم.

السادس : إستغفار المسلمين لأنفسهم على نحو العموم المجموعي بأن

يفغر الله لوفد الحاج والمسلمين والمسلمات جميعاً لينعم الله عز وجل بالعفو عن عامة المسلمين بمن أدى الحج في تلك السنة ويكون من خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، بأن يترشح الخير والفضل والبركة على عموم الأمة بأداء فريق منهم الفريضة والمنسك العبادي، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يغفر للحجاج ولمن استغفر له الحجاج^(٣).

(١) الزاهر ١/ ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة الدر المنثور ١/ ٤٢٢.

ليكون الحج مدرسة الإستغفار فليس من موضوع واحد يكثر فيه ذكر الله والإستغفار مثل الحرم وهو من مصاديق البركة والهداية في قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١). وأختتمت آية البحث بقانون كلي يتغشى الخلائق والناس جميعاً وأنه سبحانه غفور رحيم، ومن رحمته الملازمة بين إسمين من الأسماء الحسنى في ذكر كل واحد منهما البركة والنفع والخير.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾

إبتدأت هذه الآية بحرف العطف (ثم) مما يدل على إتصال موضوعها بالآية السابقة مع إفادة التراخي في الفعل، بينما تضمن العطف في الآية السابقة مع إفادة التراخي في الفعل، بينما تضمنت العطف في لآية السابقة التعقيب الفاء وما تدل عليه من عدم وجود فترة ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾.

ويحتمل هذا التباين وجوهاً:

الأول : سبب العطف بثم هو إختتام الآية السابقة بموضوع غير الإفاضة وهو تذكير المسلمين بفضل الله بهدايتهم ونجاتهم من الضلالة.

الثاني : إرادة الترتيب الذكري وأن الإفاضة المقصودة في الآيتين واحدة وهي الإفاضة من عرفات، ووردت (ثم) للترتيب الذكري كما في قوله تعالى ﴿أَوْ مَسْكِنًا ذَا مَرَبَةٍ﴾ ♦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١﴾.

الثالث : الإشارة إلى ليلة النحر إذ أنها لا تدخل في الوقوف الواجب لا في عرفة ولا المشعر الحرام الذي يبدأ الوقوف فيه من طلوع فجر يوم النحر وهو اليوم العاشر، ولا تعارض بين هذه الوجوه.

وفي ابتداء الآية بحرف العطف مسائل:

الأولى : التخفيف عن المسلمين بالإشارة إلى الإتيان والإرتباط بين مضامين هذه الآية والآية السابقة.

الثانية : إرادة موضوع الحج ومناسكه في الآية.

الثالثة : تفقه المسلمين في الدين وتعلمهم لكيفية أداء العبادات من القرآن.

الرابعة : تذكير المسلمين بالحج، فصحيح أنه في أشهر معلومة وله أيام مخصوصة ولكن تلاوة هذه الآية في الصلاة اليومية وخارجها تذكير بالحج ودعوة لأدائه.

الخامسة : الزجر عن الخلاف عن إفاضة المسلمين وعن الشقاق والإمتناع عنه.

قانون وحدة المناسك

هل في الآية زجر عن الاختلاف في رؤية وتعيين أوان وليلة هلال ذي الحجة، الجواب لا، ولكنها تمنع من العمل في مناسك الحج بهذا الاختلاف، فيحرم إفاضة قوم ومذهب في يوم وإفاضة آخرين في يوم آخر، ولا بد من وقوف المسلمين في عرفات في يوم واحد والإفاضة في وقت واحد، وهذا الإتيان في الإفاضة هو سنة الأنبياء وأتباعهم وسنة العرب المشركين .

فمن باب الأولوية القطعية أن يعمل به المسلمون، وهو من الشواهد على وحدتهم وأخوتهم الإيمانية والدلائل العبادية على أستدامتها وتجديدها وبزدهم للفرقة والطائفة.

بعد الإفاضة والإندفاع من عرفات جاء الترتيب والإفاضة الثانية في هذه الآية من المزدلفة الى منى يوم النحر، قبل طلوع الفجر للرمي والنحر بينما تضمنت الآية السابقة ذكر ابتداء الإفاضة، ولم تذكر هذه الآية التفصيل في الإفاضة لا من حيث جهة الإبتداء ولا الغاية ولكنها جعلت قرينة عليه وهي لغة التشبيه مما يدل على التوارث المتصل لمناسك الحج.

وذكر قول آخر مشهور في تفسير الإفاضة في الآية بان المراد منها الإفاضة من عرفات ايضاً وانه خطاب خاص لقريش لأنهم كانوا يقفون على المشعر الحرام ويميزون انفسهم عن الناس الذين يقفون على عرفة، فكان في الآيتين تقدماً وتأخيراً بمعنى ثم افيضوا من حيث افاض الناس فاذا افضتم من عرفات، ولكن الظاهر هو المعنى الأعم، واحكام مناسك الحج تناسب ارادة الإفاضة الثانية من مزدلفة بالأولوية لقرينة المقال والحال.

تعاهد المناسك

قال تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِيمَا تَحِبُّوا الْحَجَّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ

الْحَرَامَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾.

في الآية تأكيد على لزوم الإتيان بكل منسك من مناسك الحج .
وعدم الإكتفاء بالأقل او المصداق الواحد من الأفعال المتشابهة وهو
في المقام الإفاضة الأولى، وقد بحث المفسرون الامر بالتفصيل وهل
المراد الإفاضة الأولى او الثانية من خلال الأخبار والوقائع والقرائن
ولكن المهم ايضاً هو النظر لها من خلال الإعجاز والواقع الذي
استحدثته آيات القرآن، فالإفاضة متكررة وان تغير موضوعها وأوانها،
وجاءت الآية لتثبيت هذا التكرار وعدم الملل او التأويل بالأجزاء بالأقل،
كما تبين الآية استقلال أحكام الإفاضة من مزدلفة وانها لا تقل اهمية
وموضوعية عن افاضة عرفات.

وروي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما امر باخراج الناس الى
عرفات، مر على الخمس وهم حلفاء قريش وتركهم، فقالوا له: الى اين
هذا مقام آبائك وقومك فلا تذهب، فلم يلتفت اليهم، ومضى بأمر الله
الى عرفات ووقف بها، ولكن الآية تتعلق بالإفاضة وليس الورد الى
عرفات ثم ان الإفاضة من عرفات ثابتة بنص الآية السابقة، فهذه
الواقعة على فرض صحة حدوثها وسندها ليست تفسيراً لهذه الآية التي
هي تشريع خاص بالوقوف عند المزدلفة والإفاضة النوعية منها انها بيان
لتكرار وتجدد الإفاضة.

وقد ورد المعنيان للإفاضة في النصوص ففي الصحيح عن الصادق
عليه السلام حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: ثم غدا والناس معه -
الى ان قال - وكانت قريش تفيض من المزدلفة وهي جمع ويمنعون
الناس ان يفيضوا منها فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وقريش ترجو ان تكون افاضته من حيث كانوا يفيضون، فأنزل الله عز

وجل عليه ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ يعني ابراهيم واسماعيل واسحاق في افاضتهم منها ومن كان بعدهم^(١).

فمعنى الآية الإفاضة من مزدلفة، وتتضمن ايضاً معنى آخر بلحاظ النصوص وهو الإفاضة من عرفات لتوكيد وتثبيت واطهار عدم التعارض بينهما وعدم بدلية احدهما للآخر.

وكان الآية تخبر عن الثواب العظيم بذات أفعال الحج وأنه ليس فقط إسقاطاً للواجب بل فيه الأجر والثواب بفضل الله عز وجل، طرد للشك باحتمال عدم قبول الحج أو التقصير فيه، وعن عروة بن مضرس قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجمع فقلت : جئتك من جبل طيء وقد أكلت مطيتي وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل إلى وقفت عليه فهل لي من حج؟ فقال : من صلى معنا هذه الصلاة في هذا المكان ، ثم وقف هذا الموقف حتى يفيض الإمام ، وكان وقف قبل ذلك من عرفات ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه^(٢).

نعم ما ورد به الدليل يخرج بالتخصيص، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك قال الله له: لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك^(٣).

فان قلت ليس في حديث ابن مضرس إشارة إلى هذا التقييد، والجواب يتجلى التقييد بدلالته التضمنية بقوله (أكلت مطيتي) ولأصالة الصحة في عمل المسلم، إلى جانب التقييد في الحديث أعلاه واحاديث أخرى مشابهة .

(١) البرهان في تفسير القرآن ٢٠١/١ طبعة حجرية.

(٢) الدر المنثور ٤٥٠/١.

(٣) الدر المنثور ٢٠٢/٢.

قانون الإفاضة

تأمر الآية المسلمين بالإندفاع عند الخروج من عرفة ولا يعني هذا التدافع والتزاحم بينهم لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأمر الناس عند الإفاضة والتزاحم بينهم لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأمر الناس عند الإفاضة بالسكينة، وجاءت الآية بوصف إنصراف الناس من عرفة بالإفاضة التي تشبه فيض وسيل الماء في الوادي عندما يزداد في النهر والوعاء والشق المحفور له في الأرض، وفي مسائل:

الأولى : بيان كثرة وفد الحاج في كل سنة وإلى يوم القيامة.

الثانية : بقاء مصاديق الإفاضة وإن كثرت الطرق والوسائل التي تنقل الحاج من عرفات وتقسيمهم على دفعات إلى ما بعد منتصف الليل، فكل دفعة منهم هي فيض.

الثالثة : مدح المسلمين لتعاهدهم لإفاضة الصالحين من الأمم السابقة الذين كانوا يعمرّون البيت الحرام والحج.

الرابعة : يأتي الفيض بمعنى كثرة العطاء والهباء، وكأن الآية تتضمن المعاني التالية:

الأول : أداء وفد الحاج لأعمال منى وأعمال البيت الحرام.

الثاني : إجتهد المسلمين بالعبادة وسبل التقوى.

الثالث : جهاد المسلمين في سبيل الله وهو من أبهى معاني الإفاضة.

الرابع : إندفاع المسلمين في عمل الصالحات.

الخامس : دعوة وفد الحاج للعودة للأهل عند إتمام المناسك (رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا أفضى أحدكم حجه فليعجل الرحلة إلى أهله، فإنه أعظم لأجره)^(١).

السادس : بعث المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإندفاع وهمة.

الخامسة : تعليم المسلمين بالضبط وسلامة السير والعمل عند الإندفاع من غير تزاحم وإرتباك.

السادسة : دعوة الحاج للإكثار من الذكر والدعاء والإستغفار لذا تضمنت الآية السابقة الأمر المتكرر بالذكر، وذكر جمع من المفسرين أن المراد (ثم أفيضوا) هو الإفاضة من عرفات بلحاظ أن (ثم) للترتيب الذكري وإستدل عليه بقوله تعالى ﴿فَكَرَّعَ رَقَبَةً ♦ أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ♦ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ♦ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ♦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَّوْا بِالْمَرْحَمَةِ ♦﴾^(١).

بلحاظ إرادة ذات الفرد، ولكنه قياس مع الفارق، من جهات:
الأولى : لم تأت آية البحث بقرينة تدل على إرادة الإفاضة الواردة في الآية السابقة.

الثانية : ذكرت الآية السابقة الإفاضة من عرفات وأمرت بالذكر بعدها ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ♦ وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ (ثم) الذي يفيد التراخي ولم تأت بحرف العطف الفاء أو الواو.

الثالثة : تضمنت الآية السابقة الأمر بذكر الله بعد الإفاضة من عرفات والوصول إلى المشعر الحرام وتضمنت هذه الآية الأمر بالإستغفار بعد الإفاضة.

الرابعة : لو دار الأمر بين إرادة ذات الإفاضة في الآية السابقة وإفاضة أخرى فالأرجح هو الثاني خاصة وإن الإندفاع من مزدلفة بذات الهيئة والكيفية.

وقد يكون أشد لوجود مندوحة من الوقت عند الإفاضة من عرفات عند غروب اليوم التاسع لحين الوقوف الواجب عند طلوع فجر اليوم العاشر على إختلاف في مسألة المبيت في مزدلفة، أما عند الإفاضة من مزدلفة فإن الحاج يتوجهون إلى منى ومن آيات التخفيف عنهم أن المسافة بين مزدلفة ومنى حيث رمي الجمرات أقل من المسافة بين عرفة ومزدلفة وإرادة معنى الإفاضة من مزدلفة لا يتعارض مع إرادة الإفاضة من عرفات في ذات آية البحث وقصد محاكاة سنة إبراهيم وإسماعيل والإقتداء بها.

وعن ابن عباس قال: كانت العرب تقف بعرفة، وكانت قريش تقف دون ذلك بالمزدلفة، فأنزل الله: "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس"، فرفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الموقف إلى موقف العرب بعرفة^(١).

وهذا الموضوع يكرر في تفسير هذه الآية وأدعي عليه الإجماع ولكنها أعم إذ أنها خطاب للمسلمين جميعاً، وليس لفريق من قريش، ويمكن حمل الآية بذات المعنى على إفاضة المسلمين الثانية من مزدلفة والخطاب لقريش بالإفاضة من عرفة ثم من مزدلفة لتكون من الآية مسائل:

الأولى : بيان صحة إفاضة قريش من مزدلفة وأنها جزء من الحج ولكن فعلهم ناقص لتخلفهم عن الإفاضة من عرفات.

الثانية : منع الحرج عن المسلمين، فقد يقول بعضهم كيف تقيض من مزدلفة وتفضل كما يفعل الكفار.

الثالثة : إقامة الحجة على قريش بأنهم كانوا يؤدون الحج ناقصاً، وأن الله عز وجل أتقدهم وجذبهم للعبادة الصحيحة بنبوة محمد صلى

الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : بين حج المسلمين وحج غيرهم عموم وخصوص مطلق،
فيأتي المسلمون بالحج كاملاً وكانت قريش تأتي به ناقصاً.
وتتجلى بلحاظ هذه الآية إفاضتان:

الأولى : الإفاضة من عرفات، وهي المذكورة في الآية السابقة ، قال
تعالى ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ
وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾^(١).

الثانية : الإفاضة من مزدلفة وهي التي تذكرها هذه الآية، ويدل على
هذا التعدد.

لقد أراد الله عز وجل من المسلمين الإندفاع بذات الرغبة والصدق
والشوق من مزدلفة وعدم ديبب الملل أو الكسل إلى نفوسهم وأخبرت
آية البحث عن قانون وهو لزوم أداء مناسك الحج بإندفاع مقرون بالذكر
والإستغفار .

ولا ينحصر موضوع هذا الإندفاع بخصوص مزدلفة بل أن موضوعه
وأثره هو بإتيان أفعال الحج التالية في منى ومكة، إنها مدرسة الحج
العقائدية والأخلاقية، وتقدير فإذا أفضتم أي فإذا أقبلتهم وقدمتم إلى منى
ومكة.

تفسير قوله تعالى [مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ]

(حيث) ظرف مكان للإخبار عن ابتداء الإفاضة وفيه مسائل:

الأولى : تعيين مكان الاجتماع والوقوف بالدلالة التضمنية.

الثانية : موضوعية الإفاضة والسير الدفعي الجماعي في مناسك
الحج وتثبيتها.

الثالثة : التوكيد القرآني على موضوعية وتحديد الموضوع الذي تنبعث منه الإفاضة لما له من الموضوعية في صحة المناسك.

الرابعة : المحافظة على مناسك الحج بالعناية العبادية بالإفاضة فهناك أهمية خاصة للإفاضة كموضوع اعتباري وعقائدي في أداء المناسك، وروي عن ابن عمر انه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشية يوم عرفة، فقال: يا ايها الناس ان الله عز وجل يطلع عليكم في مقامكم هذا، فقبل من محسنكم ووهب مسيئكم لمحسنكم والتبعت عوضها من عنده افيضوا على اسم الله.

فقال اصحابه: يا رسول الله افضت بنا بالأمس كثيراً حزينا، وافضت بنا اليوم فرحاً مسروراً فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اني سألت ربي عز وجل بالأمس شيئاً لم يجد لي به: سألته التبعت فأبى عليّ به .

فلما كان اليوم اتاني جبريل عليه السلام فقال: ان ربك يقرئك السلام ويقول لك: التبعت ضمنت عوضها من عندي، اللهم اجعلنا من اهله بفضلِكَ يا اكرم الأكرمين.

فتكررت في الخبر الإفاضة وأن الأولى كانت مساء اليوم التاسع من عرفة والثانية صباح اليوم العاشر من مزدلفة، وهو حجة في المقام.

الخامسة : الإعجاز القرآني في الواجبات التعبدية بتبثيتها وبيانها بفعل متحرك متجدد فجاءت الآية لتحديد موضع مكاني بواسطة فعل الحاج من غير خشية لإحتمال التغيير او التحريف على مر السنين مما يدل على ثبات احكام الحج ونزول القرآن من عنده تعالى لعلمه بالوقائع قبل حصولها.

لفظ [الناس] فيه أقوال:

الأول : انه آدم، عن سعيد بن جبير والزهري.

الثاني : هم اهل اليمن وربيعة، عن الكلبي وهو المروي عن جابر عن الامام الباقر عليه السلام.

الثالث : هم العلماء الذين يعلمون الدين ويعلمونه الناس.

الرابع : سائر العرب وهو المنسوب لابن عباس وعائشة وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة.

الخامس : المراد به ابراهيم وان كان شخصاً واحداً الا انه ينطبق عليه وصف الجمع لقوله تعالى ﴿ إِن اِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ ... ﴾^(١) ولأنه الإمام والرائد في هذا المنسك فجاء أكرامه بالصفة النوعية.

ولا تعارض بين هذه الأقوال، والإلفاظ التي تحمل العموم والخصوص في آن واحد وهو من اعجاز القرآن لا بالذات فقط بل بلحاظ القرائن وامكان حملها على المعنى المتعدد وكأنها من المشترك المعنوي من غير تعارض بينها.

السادس : مما تسالم عليه المسلمون ان احكام القرآن اعم من ان تنحصر باسباب النزول او ايام النبوة، فيمكن ان يكون الجيل السابق من لفظ الناس، بالنسبة للجيل اللاحق فيتوارث المسلمون اتقان المناسك واداءها على الوجه الأتم لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في بيان الفرائض وكيفية ادائها لتعي الأمة جميعها اداءها بصورة صحيحة ولمنع الاختلاف والفرقة والتباين في ادائها.

السابع : في الآية توكيد على اداء الأمم السالفة للحج وان اداءهم لم يكن اجمالياً وعلى نحو صرف الطبيعة واتيان بعض افعاله، فالآية

(١) سورة النحل ١٢٠.

تخبر بان مناسك الحج وما فيها من المشاق والصبر انما هو امر ثابت في الملل الأخرى.

الثامن : بالإمكان الإحتجاج على اهل الكتاب وغيرهم بهذه الآية واثبات تفشي التحريف الى العبادات والأحكام عندهم.

التاسع : الآية حرز ومانع من الإجتهد في اختصار مناسك الحج تحت حجة الضرورة وشدة الزحام والأحوال الإقتصادية او السياسية فيثبت ان الوقوف على عرفات وعند مزدلفة واجب وله اطراف زمانية ثابتة.

العاشر : في الآية منع للفرقة والإستقلال في كيفية اداء المناسك، والإنتقسام وفق الطريقة والمذهب والولاء فلا بد من الإلتقاء بالفعل والمدار على كيفية اداء الأنبياء والأجيال السالفة من المسلمين.

الحادي عشر : في الآية حث على العزم واردة الحاج اداء الحج في السنة التالية وفيه نص يحمل على الإستحباب.

بركة الإفاضة

الخطاب في الآية ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾^(١) إنحلالي يتوجه لكل مسلم ومسلمة من وفد الحاج يسير بإتجاه واحد من عرفات إلى المشعر الحرام في وقت واحد في آية لا تحدث إلا في مساء واحد كل سنة ليكون عنوان تجدد وحدة المسلمين وآية في الدعوة إلى الله، وهذه الإفاضة من مصاديق الإيمان ، وصبغة السلم في الفرائض العبادية .

الثالث : كيفية الإفاضة وتجلي معاني السكينة على وفد الحاج.

الرابع : إقتران ذكر الله والتسبيح بالإفاضة وكأن الآية تخاطب كل مسلم بأن يفيض بالذكر والتسبيح مع وفد الحاج أي أن المراد من

(١) سورة البقرة ١٩٩.

لفظ(الناس) هم ذات المسلمين في سنة الحج وفي السنوات السابقة وهذا القول لا يتعارض مع الوجوه الأخرى المتقدمة، لأصالة الإطلاق وإفادة الألف واللام في لفظ(الناس) معنى الجنس والعهد.

ومن مصاديق مجيء لفظ الناس في الآية أن الحج يؤتى من قبل أهل الملل والنحل من الأمم السابقة وأنه غير مختص بالأنبياء وأتباعهم فحتى المشركين كانوا يؤدون الحج ولكنهم يؤدونه ناقصاً فقريش تضيف من مزدلفة ولا تذهب إلى عرفة وهو من أهم أركان الحج، فحتى الذين حاربوا الإسلام تعاهدوا حج البيت الحرام، قال تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

فالآية أعلاه جمعت بين صنفين من الناس بذات اللفظ ودل على التباين بينهما ظاهر الآية ليكون الناس وفق الآية أعلاه على وجوه:

الأول : الناس الذين أخبروا المسلمين عن إستعداد المشركين لغزو المدينة، وموضوع الآية هو ما بعد معركة أحد، وفي تفسير الآية أعلاه ورد عن مجاهد قال: هذا أبو سفيان قال لمحمد يوم أحد : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا. فقال محمد صلى الله عليه وسلم : عسى . فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده حتى نزل بدرأ فوافوا السوق فابتاعوا ، فذلك قوله {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء} وهي غزوة بدر الصغرى^(٢).

الثاني : المشركون الذين جمعوا الحشود لقتال المسلمين.

الثالث : أفراد القبائل وأهل مكة ممن رضي أن يكون من الجمع المجموع للإغارة على المسلمين.

الرابع : الناس الذين ليسوا طرفاً في هذا الجمع، وأعتزلوا المشركين

(١) سورة آل عمران ١٧٣.

(٢) الدر المنثور ٤٩٩/٢.

فيما يدعون إليه.

الخامس : المسلمون الذين جمع الكفار للهجوم عليهم والتعدي عليهم وعلى ثغورهم ويدل هذا التقريب على أن لفظ الناس في آية البحث عام يشمل غير المسلمين ممن كانوا يفيضون من عرفات ومن مزدلفة وأن الخطاب في قوله تعالى (وأفيضوا) موجه للمسلمين والمسلمات جميعاً إذ يتوجه الخطاب لوفد الحاج على نحو التنجز ، وإلى عموم المسلمين من جهات:

الأولى : التعليق، وإتيان ذات الإفاضة في حال التوفيق لأداء الحج.

الثانية : حفظ المسلمين لميثاق الحج، وفي إبراهيم ورد قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١).

الثالثة : عزم المسلمين على الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة ثم إلا منى إن جاء بالحج، وهو من مصاديق صيغة الشرط في قوله تعالى ﴿فَنَنْفِرُ فِيهِنَّ الْهَجَّ﴾ وإرادة صيغة المضارع والعموم من ذات الآية.

الرابعة : حرص المسلمين والمسلمات وأهل الحل والعقد والعلماء في جميع أمصار المسلمين على إتيان وفد الحاج المناسك على الوجوه الأمثل.

مادة فاض

تكررت مادة (فاض) في هذه الآية مرتين ووردت في الآية السابقة مرة واحدة بقوله تعالى ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾^(١).

ويحتمل أصل هذه الإفاضة حصولها ابتداء في موسم الحج بمعنى ليس من إفاضة قبل هيئة وإندفاع وتدافع الناس عند الخروج من عرفة ويتكرر ذات التزاحم والدفق عند الإنصراف للمشعر الحرام ثم يتفرق الحاج على جهات:

الأولى : الذين يتوجهون إلى الرمي.

الثانية : الذين يذهبون إلى الذبح.

الثالثة : المشتغلون بالخلق.

الرابعة : الذين يتوجهون صوب مكة .

الخامسة : الذين يأتون إلى البيت الحرام للطواف .

فان قلت أن كل الحجاج يتوجهون إلى رمي جمرة العقبة ، والجواب نعم وهو الذي تشير إليه آية البحث بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) فلذا ترى وفد الحجاج يسيرون باتجاه واحد من مزدلفة إلى منى ، ولكن الرمي يتصف بأمور :

الأول : ليس للرمي ساعة مخصوصة فيجوز في أي ساعة من النهار.

الثاني : الرخصة بالرمي ليلاً للنساء والكبار وأصحاب العذر والذين يخشون الزحام .

(١) سورة البقرة ١٩٨.

(٢) سورة البقرة ١٩٩.

الثالث : جواز الإنابة في الرمي ، وفي الذبح .

الرابع : قصر الوقت الذي يستغرقه الرمي خاصة في يوم النحر إذ لم ترم إلا جمرة العقبة وفيه آية إعجازية للتخفيف عن الحجاج ومنع وقوع الكوارث بالتدافع في موضع الرمي . وهل من أسرار في تكرار مادة الإفاضة في الآية ، الجواب نعم، فقد وردت مرة بصيغة الأمر ﴿ثُمَّ أَفِضُوا﴾ ، ثم وردت بصيغة التشبيه والبيان ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ وفيه مسائل:

الأول : تشريع حكم الإفاضة قبل الإسلام .

الثاني : وجود أمة تمثل لأمر الله بالإفاضة قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : تعاهد العرب لمناسك الحج التي أخذوها من إبراهيم عليه السلام.

الرابع : الإشارة إلى ازدياد عدد الحجاج.

الخامس : دعوة المسلمين للصبر على المشركين وعدم منعهم من الذهاب إلى عرفة ومزدلفة خاصة وإن المشركين كانوا يأتون للتجارة ويجلبون معهم الطعام إلا أن نزل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(١) في السنة التاسعة للهجرة إذ بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام عليا عليه السلام بسورة براءة ومنع دخول المشركين المسجد الحرام، ومنع الطواف من غير لباس .

وحج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة التالية حجة الوداع وهي الحجة الوحيدة له منذ أن هاجر إلى المدينة.

وعن ابن عباس: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويحيئون معهم بالطعام يتجرون فيه ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله ﴿خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ﴾^(١)، قال: فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم^(٢).

أفعال منى

الرابع من أفعال الحج المضي الى منى، وهو اسم موضع مبارك وجزء من الحرم ويبعد أكثر قليلاً من فرسخ عن البيت الحرام، والغالب عليه التذكير، وحده من العقبة الى وادي محسر، ويوت مكة في هذا الزمان مجاورة له ومتداخلة معه، وسمي منى لوجوه:

الأولى : ان جبرئيل لما اراد مفارقة آدم عليه السلام قال له تمن قال: اتمنى الجنة، أي انه مشتق من أمنية مباركة يتمناها كل انسان ابتداء من أينما آدم عليه السلام، وكأن هناك نوع ملازمة بينها وبين وجوب الحج على كل مكلف وانه طريق تحقيق هذه الامنية، فمن فلسفة تسميتها الحث على نيل الاماني الكريمة بالسعي والجهاد واداء المناسك كما ترى الناس لا يحققون امانيتهم الدنيوية الا بالسعي والكسب والله واسع كريم.

الثانية : ان جبرئيل قال عندها لإبراهيم عليه السلام تمن على ربك ما شئت، فتمنى ان يجعل الله مكان ولده اسماعيل كبشاً يأمره بذبحه فداء له، فاعطاه الله مناه لتكون التسمية مناسبة للحث على المسألة وطلب

(١) سورة التوبة ٢٨.

(٢) الدر المنثور ٤٦/٥.

الحاجات في منى.

الثالثة : سمي منى للدماء التي تمنى به أي تراق يوم النحر.

الرابعة : التسمية دعوة للتمني والرجاء والمسألة فيه.

ولا تعارض بين وجوه واسباب هذه التسمية اذ انها تتضمن البشارة والوعد الكريم بالإستجابة بالجنة ودفع البلاء، وفيها اخبار عن اتصال ودوام عطائه وفضله تعالى.

وواجبات منى ثلاثة:

الأول: رمي جمرة العقبة.

الثاني: الهدي.

الثالث: التقصير.

اما الأول ففيه مسائل:

رمي الجمرة

من واجبات الحج رمي الجمرات وهي عبادة لها دلالاتها العقائدية والأخلاقية والتربوية انها عهد ووعد باجتناّب الشيطان وعدم الإنقياد له ولأغوائه، وذكر ان ابليس كان يترآى لإبراهيم عليه السلام في موضع الجمار.

بحث فقهي

سميت الجمار جماراً:

الأولى : لأن آدم كان يرمي ابليس فيجمر بين يديه، أي يسرع وينهزم.

الثانية : سميت باسم الارض والبناء.

الثالثة : لأنه مجمع الحصى بمنى فكل كومة من الحصى جمرة، والجمع جمرات، فسمي باسم ما يرمى، وتأتي الجمرة بمعنى القطعة الملتهبة من النار وجمعها جمر على وزن قمره وقمر ويجب ان يرمى في:

الأول : اليوم العاشر جمرة العقبة وحدها.

الثاني : اليوم الحادي عشر والثاني عشر الجمار الثلاث، كل جمرة

بسبع حصيات.

الثالث : اذا بات ليلة الثالث عشر في منى فعليه الرمي في اليوم الثالث عشر وان لم يجب عليه المبيت فيها.

ووقت الرمي للمختار ما بين طلوع الشمس الى غروبها، وافضل الاوقات عند زوال الشمس عن كبد السماء، ولا يجوز ان يرمي ليلاً الا لعذر كالحائض والمريض والذي يستوعب العمل والشغل نهاره ونحوهم، ولو حصل الزحام في الرمي طيلة النهار جاز للمرأة والكبير ومن يخشى الزحام الرمي ليلاً، وقد يستحب خصوصاً في هذا الزمان، ويجب الترتيب في الرمي ان يبدأ بـ :

الأولى : الأولى وهي الصغرى.

الثانية : الوسطى.

الثالثة : العقبة وهي الكبرى.

فلو رماهن بالعكس وخلاف الترتيب أعاد على الوسطى ثم جمرة العقبة سواء كان عن عمد او سهو او نسيان او جهل.

ويظهر في احكام رمي الجمرات السعة والتخفيف والاحكام التشريعية التي تساعد في اجتناب الحوادث والزحام وتسهل للفقهاء وغيرهم ايجاد الضوابط والقواعد التي ساهم في تيسير الحج مع تقدم الأيام وازدياد اعداد الحجاج.

تفسير قوله تعالى ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾

أمر بالإستغفار وسؤال التوبة والمغفرة والإستغفار في الآية على

وجوه:

الأولى : الإستغفار مطلقاً بلحاظ الزمان والمكان.

الثانية : انه خاص بالإفاضة من مزدلفة.

الثالثة : انه عام يشمل حصول الذنب وعدمه.

الرابعة : خاص بمن اذنب واقترب السيئات.

الخامسة : وردت الصيغة بالعموم فالمراد الجميع وليس الذين اذنبوا

بالخصوص.

السادسة : يشمل الحجاج وغيرهم.

السابعة : الإستغفار البدلي، فيستغفر من يوفق للموقف في عرفة ليحسبه الله استغفاراً لمن لم يقف فيها من المسلمين، ويمكن الاستدلال عليه بالأولوية لما تقدم في خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشية عرفة والتي تقدمت (ووهب مسيئكم لمحسنكم)^(١).

الثامنة : لحاظ مكان الاستغفار وزمانه خصوصاً وان هناك مواطن للاستجابة، وعرفة ومزدلفة يجتمع فيهما أمران فضل المكان والزمان.

والآية تتعلق بالمعنى الأعم وان تباينت مرتبة الحكم بالنسبة للمكلفين فمنهم ما يكون الإستغفار له واجباً، وتجزي المرة الواحدة مطلقاً للذي اتحد ذنبه او تعدد، او لا تكفي بل تتعدد بالنسبة للأول والثاني ايضاً من باب الأولوية الجواب ان المرة الواحدة تكفي الا ان ظاهر الآية وقرائن الحال تقتضي تكرار الإستغفار لأنه نوع توسل وسؤال فيستحب الإلحاح به.

ولا مانع من اختيار الأدعية التي تتضمن الإستغفار والتضرع ورجاء التوبة والمغفرة والذكر والإستغفار اثناء الإفاضة لإضفاء صبغة التعبد عليها وللمزيد من الأجر وللتمايز بين المسلمين في اعمالهم العبادية وبين غيرهم بل بين افعال المسلمين العبادية وغيرها من افعالهم الدنيوية الأخرى التي لا يجب فيها التلفظ والنطق المخصوص، وظاهر الآية ان الخطاب موجه لوفد الحاج بدليل واو العطف فالإستغفار معطوف على الإفاضة.

ويصح الإتيان بالإستغفار على نحو القضية الشخصية كل حاج يأتي به بمفرده كيفية وصيغة، كما يصح جماعات باستغفار مخصوص

(١) راجع الصفحة ٤١ من هذا الكتاب.

ليس فيه الا ذكر الله عز وجل وطلب عفوه ومغفرته عند الإندفاع من مزدلفة بل مطلقاً في مناسك الحج.

ان ختم هذه الآيات المتعلقة بالحج بالأمر المطلق بالاستغفار بيان لمنافع الحج في محو الذنوب وستر العيوب، وفتح ابواب الرزق، ودفع البلاء. ويحتمل الإستغفار من جهة محله وموضعه ومناسبته وجوهاً:

الأول : إرادة إستصحاب الإستغفار للإفاضة وتكون الواو في (وإستغفروا) للجمع.

الثاني : تعقب الإستغفار للإفاضة، وبيان خصوصية ما يتصف به المسلمون من الإستغفار في الحج، وتكون الواو للترتيب.

الثالث : المراد المعنى الأعم والخطاب عام للمسلمين بالإستغفار سواء من حضر الحج أو من لم يحضره، لتكون الواو إستثنائية أو أنه من عطف العام على الخاص.

ولا تعارض بين هذه الوجوه وكلها من مصاديق الآية الكريمة وفي خطاب وأمر إلى جميع المسلمين والمسلمات، قال تعالى ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وعد كريم وحث على الإستغفار واستثمار مناسبة الحج ومناسكه، فرصة وغنيمة نوعية عامة للإنتفاع الأمثل منها، وقد ورد قوله تعالى ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) في آخر آية من سورة المزمل مع الأمر باقامة الصلاة وإتيان الزكاة والحث على الدفاع في سبيل الله والسعي في الخيرات، وكأن الإستغفار فيها مناسبة للشواب كأجر للحج

(١) سورة المزمل ٢٠.

(٢) سورة المزمل ٢٠.

واستثماره وان كان المعنى في سورة المزمل اعم.

ان الإستغفار الوارد في هذه الآية نسك وعبادة يلزم الإلتفات الى اهميته والحث عليه وعدم التفريط به وتضييع ما فيه من المنافع، ومن مستلزمات الإستغفار التوبة النصوح والعزم على عدم اقتراف السيئات مع اجتناب العودة للذنوب، وبذا يكون الحج انعطافاً اخلاقياً في حياة المسلم، وتنقية للنفس من ادران السيئات لتقبل بشوق على العبادة ووجوه الصلاح، وبلحاظ المعنى السياقي للآيات يظهر ان تشريع الحج رحمة منه تعالى لما فيه من مناسبة العفو والمغفرة.

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ الآية ٢٠٠.

الإعراب واللغة

فاذا: الفاء استئنافية، اذا: ظرف لما يستقبل من الزمن، ويتضمن معنى الشرط، وهو مضاف للجملة الفعلية "قضيتكم" مناسككم: مناسك: مفعول به مضاف.

الكاف: ضمير متصل في محل جر مضاف اليه
فاذكروا الله: الفاء رابطة لجواب الشرط، اذكروا الله: فعل امر وفاعل ومفعول به.

كذكركم: الكاف حرف جر، ذكر: اسم مجرور وهو مضاف والضمير المتصل الكاف في محل جر مضاف اليه، والجار والمجرور في محل نصب مفعول مطلق أي ذكر شبيه بذكركم آبائكم.

آباءكم: مفعول به منصوب بالفتحة والضمير (كم) مضاف إليه.
أو: حرف عطف يفيد التخيير أو الإباحة، اشد: حال، وذكرت في اعرابه اقوال عديدة، ذكراً: تمييز منصوب بالفتحة.

فمن الناس: الفاء للإستئناف، من الناس: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم.

من يقول: من اسم موصول مبتدأ مؤخر، يقول: فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو.

ربنا آتنا: رب: منادى مضاف منصوب، الضمير(نا) في محل جر مضاف إليه، وأداة النداء محذوفة، آتنا: آت: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، نا: ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. في الدنيا: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من مفعول(آت). وما له: الواو حالية، ما: نافية، له: جار ومجرور متعلقان بحال محذوف، في الآخرة: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من خلاق. من خلاق: من: حرف جر زائد، خلاق: اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً بلحاظ أنه مبتدأ مؤخرأ.

والنسك: العبادة والطاعة وما يتقرب به الى الله تعالى، والمناسك: وجوه العبادة ومواضعها وقيل لثعلب: "هل يسمى الصوم نسكاً؟ فقال: كل حق لله عز وجل يسمى نسكاً". والمراد من الذكر جري الأمر على اللسان يقال ذكره يذكر ذكراً، والذكر نقيض النسيان، ويأتي الذكر بمعنى الصلاة والدعاء والتسبيح والثناء عليه تعالى.

في سياق الآيات

بعد بيان مناسك واحكام الحج والتوجه الى ذكره تعالى اثناء المناسك جاءت هذه الآية متصلة في مضمونها بالآية السابقة ويمكن احتسابها بياناً وتفسيراً لكيفية الذكر ومضمونه وغاياته بالدلالة الإلتزامية ولو على نحو الإجمال.

وصلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ

النَّاسُ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تبدأ كل من الآيتين بحرف العطف لبيان إتصال هذه الآيات واتحاد موضوعها وهو حج بيت الله وأحكام ومناسك الحج.

الثانية : تتحد لغة الخطاب في الآيتين، وكل واحدة منهما تتوجه للمسلمين ولوفد الحاج منهم خاصة.

الثالثة : بيان حقيقة وهي أن الإفاضة من عرفات ومن المشعر الحرام من مناسك الحج.

الرابعة : تقوم أداء مناسك الحج بالذكر والإستغفار، وفيه حجة على العالمين فأداء الحج عبادة تتقوم بذكر الله والتفقه في الدين.

الخامسة : أختتمت آية السياق بقانون كلي ووعد كريم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وكل منسك من مناسك الحج وسيلة إستغفار فعلية، ومناسبة لجذب رحمة الله ورجاء عفوهِ.

السادسة : بعد ذكر المناسك وإنقضائها أخبرت آية البحث وبصيغة الذم عن قوم لا هم لهم إلا الدنيا وزينتها لتدل بالدلالة التضمنية على أن الحج متاع للأخرة، وصيغة من التقوى يتحلى بها المسلم في الدنيا.

السابعة : يدل نظم هذه الآيات وصيغة العطف بين آية السياق والبحث على الإتصال، ومن إعجاز نظم الآيات أنها تتحدث عن مناسك الحج ثم تقسم الناس إلى قسمين:

الأول : الذين يدعون الله بالنفع في الحياة الدنيا.

الثاني : الذين يدعو الله للنفع العظيم في الدنيا والآخرة.

وأختتمت آية البحث بالقسم الثاني وبخصوص الآيتين فيما يتعلق بالمسلمين فيه وجهان:

الأول : شطر من المسلمين من أهل الآية السابقة وشطر من أهل آية البحث.

الثاني : المسلمون والمسلمات من أهل آية البحث، ولا يكون المسلمون من أهل الآية السابقة لأنهم أعمدة التقوى في الأرض وورثة الأنبياء ويدل عليه قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، ترى لماذا لم تقل الآية (وأنتم تقولون ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) والجواب من وجوه:

الأول : مضامين الآية شاملة لأجيال المسلمين في الأولين والآخرين.
الثاني : بين الناس والمسلمين عموم وخصوص مطلق، فكل مسلم هو إنسان، وليس كل إنسان هو مسلم.

الثالث : بيان وهي أن الحياة الدنيا دار إمتحان وبلاء واختيار.
الرابع : ترغيب الناس جميعاً بالإسلام، والإقرار بيوم القيامة، قال تعالى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢).

الخامس : بيان قانون كلي عام للناس جميعاً وهو أن الوظيفة العبادية للناس تتجلى بالدعاء والمسألة لأموال الدين والدنيا.

السادس : بيان المائز بين المؤمنين وغيرهم وهو الإقرار باليوم الآخر، وفاز المسلمين بهذا الإقرار من بين أهل الأرض.

السابع : يترشح عن الدعاء والمسألة للنشأتين الإستعداد بالعمل الصالح والتقوى.

الثامن : قول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة لا يكون بديلاً أو عوضاً عن أداء الحج الذي واجب وضرورة من ضرورات الدين، ولا يصح بديلاً للصلاة من باب الأولوية القطعية، وكذا بالنسبة

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة المائدة ٦٩.

للعبادات الأخرى.

التاسع : من خصال المؤمنين الجمع بين أداء الفرائض وبين الدعاء والمسألة.

وذكر الله في الآية السابقة عند عرفات بقوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ من مصاديق الدعاء للدنيا والآخرة من وجوه:
الأول : يأتي ذكر الله من منازل التقوى بلحاظ أن قصد البيت الحرام وأداء المناسك.

الثاني : لقد أراد الله عز وجل وجود أمة تقول في كل زمان ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

الثالث : بين ذكر الله عز وجل وقول (ربنا آتنا.....) عموم وخصوص مطلق، فالذكر أعم.

والصحيح أن مضامين هذه الآية من ذكر الله إلا أنها مطلقة زماناً ومكاناً ولا تختص بموسم الحج، وليس كل مسلم يستطيع أداء الحج لذا خفف الله عز وجل عنهم بقيد الإستطاعة كشرط في أداء الفريضة، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١)، بينما يستطيع كل مسلم ومسلمة الدعاء والحج عبادة بدنية ومالية، وفيها عناء وتعب وتهئية وفعل المقدمات الفعلية الموصلة للحج وأداء المناسك والإحرام والطواف والوقوف في عرفات والمبيت في منى وبذل المال والإنفاق، وترك الأعمال وتعطيل التجارات الخاصة، ومصارعة حياة الدعة والعيال، بينما يأتي الدعاء الذي تتضمنه هذه الآية بالنطق بكلمات معدودة تجلب الخير في الدنيا والآخرة.

وفيد الجمع بين الآيتين أن قول ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، فوز ونجاة يوم القيامة، إذ أخبرت الآية السابقة عن حرمان الذين يدعون لأُمُور الدنيا وحدها من النصيب والحظ في الآخرة فإن قلت إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، وأن حرمان الذي يطمع في متاع الدنيا وحده من النصيب.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : بيان رحمة الله في طلب التجارة والكسب في موسم الحج.
الثانية : تأكيد جواز الكسب والتجارة بعد إنتهاء أعمال الحج لقوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ والذي يدل بالدلالة التضمنية على المندوحة والسعة وجواز طلب الرزق والتجارة بعدها.

الثالثة : تكرر في كل من الآيتين الأمر (فأذكروا الله) مع التباين الموضوعي فيه، فجاء في آية السياق بخصوص الوقوف في المشعر الحرام، وفي آية البحث عند إنقضاء مناسك الحج، ليتغشى ذكر الله كل أفعال الحج إبتداءً وإستدامةً وإنتهاءً.

ليكون الحج مناسبة لتنمية ملكة الذكر عند المسلمين وهو ثمرة وجائزة عظيمة يخرج بها من أدى مناسك الحج، وحرز للدنيا والآخرة.

الرابعة : أختتمت آية السياق بنفي خصلة الضلال المذمومة عن المسلمين وفيه تأكيد لإنتقالهم إلى منازل الهداية والصلاح، ومن مصاديقها في آية البحث أمور:

الأول : قضاء مناسك الحج وإتيانها كاملة .

الثاني : إتيان وفد الحاج مناسك الحج مجتمعين وفي زمان وموضع واحد .

الثالث : ذكر المسلمين لله والإكثار من الذكر لإدراك عظيم نفعه في النشاطين .

الرابع : تطلع المسلمين للثواب والأجر على إتيان الحج وأفراد العبادات مطلقاً .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَنَزَّ فَضْ

فِيهِنَّ الْحَجُّ ﴾^(١) وفيها مسائل :

الأولى : بين أشهر الحج وقضاء المناسك عموم وخصوص مطلق، لأن مناسك الحج تقضى في أيام معدودة من مدة أشهر الحج .

الثانية : دعوة المسلم الذي فرض على نفسه الحج ثم أتم أداء المناسك للشكر لله عز وجل على هذه النعمة فلذا جاءت آية البحث بالأمر بذكر الله عز وجل، والشكر له سبحانه من مصاديق الذكر

الثالثة : تضمنت آية البحث النهي عن الكلام الفاحش والمعصية والجدال في الحج، وجاءت آية البحث بالأمر بذكر الله عند إنقضاء المناسك .

ويفيد الجمع بينهما إستدامة كراهية تلك القبائح المنهي عنها حتى بعد إنقضاء الحج، فإن قلت من الرفث مداعبة الزوجة ومقدمات الوطئ فهل تشملها هذه الكراهية ، الجواب لا لخروجها بالتخصيص وإنقطاع تروك الإحرام، ولو ورد النصوص بجوازها كما تدل عليه آية البحث باخبارها عن إنقضاء المناسك، ولا تتعارض تلك المقدمات والمداعبة مع ذكر الله بل يكون بصبغة وحلة جديدة، فبعد إقتران الذكر بجرمة تلك المقدمات، إقتران بعد إنقضاء المناسك بحليتها .

الرابعة : جاءت آية السياق بالترغيب بالعمل الصالح والبعث إليه ﴿وَمَا تَعْلَمُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾^(١) ومن مصاديق في آية البحث أمور :

الأول : أداء مناسك الحج .

الثاني : متابعة إتيان المناسك واحداً بعد آخر إلى حين إنقضائها .

الثالث : الإجهاد بذكر الله .

الرابع : السعي إلى الآخرة بصيغ التقوى والصلاح .

الشعبة الثانية :

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآيات التالية ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي

الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾^(٢)

وفيها مسائل :

الأولى : تتضمن كل من الآيتين الثناء على أهل الإيمان، أما آية

البحث فذكرت أداءهم لمناسك الحج، وأما آية السياق فجاءت وثيقة في إنقطاعهم إلى الدعاء والمسألة .

الثانية : كل من أداء المناسك والدعاء رجاء لفضل الله في الدنيا

والآخرة .

الثالثة : تبين الآيتان مجتمعتين ومتفرقتين مرتبة الإرتقاء في منازل

التقوى التي بلغها المسلمون وهي من الشواهد على نيلهم مرتبة ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتِ لِلنَّاسِ﴾^(٣) .

(١) سورة .البقرة ١٩٧

(٢) سورة .البقرة ٢٠١

(٣) سورة .آل عمران ١١٠

الرابعة : إبتدأت آية السياق بحرف العطف (الواو) مما يدل على إتصالها بآية البحث موضوعاً وحكماً، وإذ أُختمت آية البحث بالإخبار عن إختصاص دعاء قوم بحاجات الدنيا وزيتها، جاءت آية السياق مدرسة في الدعاء وسبيلاً للهداية والرشاد بأن يكون الدعاء للدنيا والآخرة وما فيه من الإقرار بيوم القيامة وشدة أهواله، وصيرورة الدعاء كنزاً حرزاً في النشاطين.

الرابعة : قضاء المناسك واقية من النار ليجتمع عند المسلمين إتيان العبادات والدعاء، وكل فرد منهما نجاة من عذاب النار يوم القيامة، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته، ثم لا يرفع قدماً ولا يضع قدماً إلا كتب الله له بكل قدم خمسمائة حسنة، وحط عنه خمسمائة سيئة، ورفعت له خمسمائة درجة، فإذا فرغ من طوافه فأتى مقام إبراهيم، فصلى ركعتين، دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكتب له أجر عتق عشر رقاب من ولد إسماعيل، واستقبله ملك على الركن فقال له: استأنف العمل فيما بقي فقد كفيت ما مضى وشفع في سبعين من أهل بيته^(١).

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾^(٢)

وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : واذكروا الله في أيام معدودات فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا

الله.

(١) الدر المنثور ١/٢٣٣.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣

الثاني : فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله.

الثالث : واذكروا الله في أيام معدودات فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق.

الرابع : فإذا قضيتم مناسككم اتقوا الله.

الخامس : فاذكروا الله واتقوا الله.

السادس : واتقوا الله فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا.....).

السابع : فإذا قضيتم مناسككم اعلّموا أنكم إليه تحشرون.

الثامن : فاذكروا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون.

التاسع : فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا واعلموا أنكم إليه تحشرون.

الثانية : موضوع كل من الآيتين أيام الحج، وتضمنت كل واحدة منهما الأمر بذكر الله مع إتحاد اللفظ (اذكروا الله) وفيه شاهد على موضوعية الذكر في الحج وإتحاده سلاحاً وواقية وهو من مصاديق الصراط في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

الثالثة : جاءت آية السياق بالأمر بتقوى الله، ومن مصاديق التقوى أداء مناسك الحج، والإجتهاد بذكر الله وتقديمه على ذكر الآباء والأجداد.

الرابعة : أختتمت آية البحث بالإخبار عن خسارة الذي لا يسعى إلى الآخرة ولا يستعد لها بالعمل الصالح، وأخبرت آية السياق بأن المسلمين يؤدون الفرائض ويعملون الصالحات ويخشون الله بالغيب مما يدل على أنهم في أمن يوم القيامة، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾.

الخامسة : إخبار المسلمين عن حشرهم وجمعهم يوم القيامة دعوة لهم لهداية الناس وبيان القطع بيوم القيامة وأنه حق وصدق ومن لوازمه التقوى والخشية من الله .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : تضمنت آية البحث الثناء على المسلمين بالإخبار عن قضائهم المناسك وقيامهم بذكر الله الذي هو إعلان عن عدم مغادرة هذه المناسك للوجود الذهني، ولالإعلان عن شكرهم لله عز وجل للتوفيق لأدائها ، إذ يتجلى هذا الشكر بذكر الله عز وجل، وجاءت آية السياق بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والدعوة للحذر من أهل الكفر والنفاق.

الثانية : تكرر لفظ (من الناس) في آية البحث والسياق وبصيغة الذم لأهل الرياء والعناد، وفيه آية في دعوة الناس للإسلام وعدم الناس منهم.

الثالثة : ذكرت آية البحث الحياة الدنيا من جهتين :

الأولى : أداء المسلمين لمناسك الحج وإجتهداهم بذكر الله وما فيه من الثواب العظيم .

(١) سورة البقرة ٢٧٧

(٢) سورة البقرة ٢٠٤

الثانية : سؤال فريق من الناس الخير والرزق في الدنيا وذكرت آية السياق الحياة الدنيا بحسن القول فيها من قبل المنافق الذي يخفي في نفسه الخصومة والعداوة للمسلمين .

الثالثة : آية البحث حرب على النفاق الذي تذكره آية السياق إذ أنها تدعو للإيمان وإتيان أفعال الحج تزيد الجوارح واللسان والريب بذكر الله والمواظبة عليه .

وتعدد في هذه الآية ذكر الناس وبلغة التبويض بما يفيد تفقه المسلمين ومعرفتهم بأحوال الناس وأخذ الحائطة من أهل العداوة، فقد ورد ذكر (من الناس) في هذه الآية والآية التالية التي ابتدأت بقوله تعالى (ومنهم).

وكذا ابتدأت آية السياق بالعطف ولفظ (ومن الناس) ثم جاء بعد ثلاث آيات ذات اللفظ بلغة الثناء على أهل الإيمان (ومن الناس من يشري نفسه) ^(١).

إعجاز الآية

مع ما في الآية من الإرشاد الى الأفعال العبادية بعد الحج ومساهمتها في ابقاء صبغة الورع والصلاح في النفوس فانها تبين عمل شطر من اهل الدنيا ومدى الخطأ فيه مع انه يتضمن السؤال والدعاء للباري عز وجل أي ان التوجه الى الله تعالى بالدعاء يستلزم شروطاً ومقدمات فينبغي ان يكون موضوعه مناسباً ووفق احكام الشريعة والحاجات الأهم.

الأولى : تدل الآية على العناية السماوية بوفد الحاج.

الثانية : انها مصداق وبرهان قرآني على استضافة الباري عز وجل لهم.

الثالثة : ذكر الآية لخاتمة مناسك الحج فضل منه تعالى في بيان تفاصيل

احكام الحج.

الرابعة : الآية تمنع من الزيادة والإضافة في المناسك وتجعلها من الإجتهد في مقابل النص فهي تحبر عن انقضاء المناسك وانتهاء افعال الحج.

الخامسة : ختم المناسك بالذكر تخفيف وتيسير ورحمة وموضوع للتدارك وصيغة عبادية تصلح للإتصال والمواظبة.

السادسة : في الآية بشارة القبول وعنوان الرضا.

وتبين الآية إخلاص المسلمين العبادة لله عز وجل فهم لا يكتفون بأداء المناسك كاملة بل يتجهون حال إتمامها إلى الذكر والتسبيح، وفيه تنزه من أخلاق الجاهلية وحرب على مفاهيم النفاق، وتوثيق لحقيقة وهي إنقطاع المسلمين إلى ذكر الله والشوق إلى لقائه.

ومن إعجاز الآية أنها ابتدأت بحرف العطف (الفاء) لبيان أمور :
الأول : عدم وجود فترة أو كسل عند المسلمين، فحالما تنتهي المناسك يلجأون إلى ذكر الله باللسان وتلاوة القرآن والتسبيح .

الثاني : دعوة وفد الحاج إلى تعاهد الصلاة بأوقاتها، وعن الأمام جعفر الصادق عليه السلام يذكر الحج فقال: إن رسول الله صلى الله عليه واله قال: هو أحد الجهادين، هو جهاد الضعفاء ونحن الضعفاء، إنه ليس شيء أفضل من الحج الا الصلاة، وفي الحج ههنا صلاة وليس في الصلاة قبلكم حج^(١).

الثالث : سرعة إنقضاء مناسك الحج، وشوق المسلمين للمزيد من الأقوال العبادية في البقعة المباركة وعند البيت الحرام فأخبرت آية البحث بأن ذكر الله كنز وخزائن فانهلوا منها

وهل جاء الأمر بذكر الله هنا لمنع حبط العمل كما قال فريق بأن الكبيرة تحبط الأعمال، الجواب لا يحبط العمل العبادي شي، وجاء الأمر بالذكر ليكون شاهداً على استمرار إخلاص المسلم في عمله ومناسكه ودعائه وفي لوط ورد قوله تعالى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾^(١)

وقد هاجر من سواد العراق إلى الشام فراراً بدينه بعد أن آمن بنبوة إبراهيم عليه السلام . ليكون وفد الحاج مهاجرين إلى الله تعالى باداء مناسك الحج عند بيته المحرم والمواظبة على ذكر الله تعالى .

ومن إعجاز الآية الدراسة المقارنة بين المؤمنين الذين يرومون الآخرة ويسعون إليها وبين الذين لا هم لهم إلا الدنيا، وفيه دعوة للمسلمين لعدم الإصغاء لأهل الدنيا والميل إلى زخرفها، وحث لهم بتوظيف الإستطاعة في أداء الحج، فصحيح أن تحصل مقدمة الواجب ليس بواجب إلا أنه لا تحصيل بذل الوسع وإظهار الشوق للحج خصوصاً عند ما تقترب أشهر الحج .

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة آية (مناسككم) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

الآية مدرسة في الدعاء واوانه وكيفيته وموضوعه وهي حاجة وضرورة وواقية من الزلل ومناسبة للإنتفاع الأمل من الدعاء، وهي في مفهومها عون للمسلمين في تعلم صيغ الدعاء واستثمار مظان الإستجابة الزمانية والمكانية.

وفي الآية نفع عظيم ظاهر وخفي، فهي تحبر عن انتهاء المناسك وتجعل النفوس مطمئنة لا تلهث وراء الإضافات واختيار الأفضل منها

وتحث المسلمين على اداء المناسك بدقة وعدم الإلتفات الى غيرها او الإنشغال بالأعاجاد.

كما خصت الآيات السابقة مناسك الحج وأحكامها فان هذه الآية جاءت بالإخبار عن قضاء المناسك كموضوع قائم بذاته وفيه درس وحكم بسنن وآداب العبادات، وشاهد على أن الله عز وجل يرضى من المسلمين اداءهم الحج .

وجاءت الآية بصيغة الخطاب ولغة الجمع (مناسككم) لبيان الملازمة بين الإسلام ومناسك الحج، وكأن الآية دليل على أن مناسك الحج لا يؤديها إلا المسلمون وأنها خالصة لهم مع أن الأمر بالحج جاء عاماً شاملاً للناس جميعاً بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١)

وجاءت آية البحث بأمر المسلمين بذكر الله حال إنقضاء المناسك مثلما تضمنت الآية السابقة ذات الأمر مع التباين في الحال إذ أختتمت الآية السابقة بشرط من المناسك وإقتران الذكر بأدائها، وفيه مسائل :
الأولى : الترغيب بذكر الله .

الثانية : وجوب ذكر الله، وهذا الوجوب لنفع المسلمين أنفسهم، وهو من مصاديق السعي في مرضاة الله وجهاد النفس، قال تعالى ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)
الثالثة : ذكر الله حسن ذاتاً وأثراً .

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٢) سورة العنكبوت ٦

الرابعة : محبوبة الذكر في كل وقت حال حتى عند الفعل العبادي فمع حسن أداء الفرض والمستحب فان الإنسان يحتاج ذكر الله والاستجارة به .
لقد أراد الله عز وجل لوفد الحاج أن يستقبلوا أيامهم ما بعد إنقضاء المناسك بذكر الله وصيغ التقوى .

أسباب النزول

روي ان العرب كانوا بعد ايام التشريق وانقضاء الحج يقفون بين مسجد منى وبين الجبل ثم يذكر كل واحد منهم فضائل آبائه في الشجاعة والسماحة وصلة الرحم، ويتناشدون الأشعار، ويتكلم كل واحد منهم بالمشور من الكلام الذي يتضمن المدح والإطراء للآباء لنيل مراتب الرفعة والشهرة، فجاء القرآن باعطاء الأولوية لذكره تعالى.

عن الباقر عليه السلام كان الرجل يقول كان ابي وكان ابي فنزلت عليهم في ذلك، وعنه عليه السلام ان اهل الجاهلية كان من قولهم كلا وايبك، بلى وايبك، فامروا ان يقولوا لا والله، بلى والله، وبذا يكون موضوع النزول واسبابه مدرسة في السمو الاخلاقي والاصلاح العقائدي.

والإجماع على عدم انحصار موضوع الآيات بأسباب النزول بل انه اعم واشمل وباق الى يوم القيامة، ومن الإعجاز في المقام ان اسباب النزول جاءت من باب المثال الحاضر فان الآية تنهى عن التفاخر لأموار مذهبية وسياسية ووطنية، فذكره تعالى عنوان الوحدة الإسلامية.

والآية درس اخلاقي لتترشح مضامين الإيمان والوحدة الإسلامية على المسلمين حتى بعد انقضاء مناسك ولتبقى اسباب النزول حية وان تباينت مصاديقها وافرادها.

مفهوم الآية

تتضمن الآية بشارة قضاء المناسك وانه تعالى يتعاهد الحاج حتى يتموا مناسكهم ويكملوا ما عليهم من الفريضة، واخبار القرآن عن انقضاء المناسك يدل بالدلالة الإلزامية على قبول العمل لأن القضاء يعني الإتمام والإنجاز، وجاءت الآية بصيغة الجمع سواء ان عمل الجماعة مصحح لعمل الفرد او لأن القبول يأتي عاماً وشاملاً للجميع فعلى العباد الأداء والإمثال وعنده سبحانه الجزاء وحسن القبول.

والآية حصانة ومنع من النظر للحج مناسك مخصوصة تنتهي باوانها ومكانها بل هي عمل عبادي يتصل بما يتعقبه من الأيام في مكة او عند مغادرتها والعودة الى الأهل والديار وذلك بذكره وتسييحه والثناء عليه تعالى شكراً له سبحانه على التوفيق لطاعته واعلاناً عن التمسك باخلاق الحاج وسيماء الصالحين.

لقد جاءت خاتمة الآية لتبين للناس ان الحج وسيلة للهداية والرشاد وموعظة تذكر الإنسان بيوم الحشر والحساب وان اداء الحج واقية من العذاب وطريق معبدة الى الجنة، والآية وان جاءت على نحو الجملة الا انها تتضمن الإنشاء والزجر والذم لمن يقوم بهذا النوع من الدعاء، وفي ذم الكافرين مدح وثناء على المسلمين لأن مناسك الحج شاهد تأريخي ووجداني وعملي تراه الملائكة والناس اجمعين يخبر بان المسلمين لا يذكرون الا الله ولا ييغون الا وجهه فهجر الأوطان وتحمل المشاق والأخطار وانفق الأموال لأداء الحج شاهد على صدق الإيمان والإخلاص في طاعته وطلب مرضاته سبحانه.

إفاضات الآية

إبتدأت الآية بحرف العطف الفاء بعدم إختتام الآية السابقة بالأمر بالإستغفار وكأن الإستغفار هو آخر المناسك مع أن الآية السابقة ذكرته في حال الإفاضة، وفيه شاهد على موضوعية الإستغفار في أداء العبادات وحاجة الناس إليه، فاذا كان وفد الحاج يتسلح بالاستغفار وهو يؤدي أسنى الأعمال العبادية، ويجمع بين الحج والصلاة في أوقاتها فان باقي الناس يحتاجون إليه في أمور الدين والدنيا وكذا حاجتهم لذكر الله .

لقد أراد الله عز وجل لحجاج بيته أن تكون ألسنتهم رطبة بذكره .
وعن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:
ما من ملب يلبي إلا لبي ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا عن يمينه وشماله^(١).

ما أشق السفر وكثرة عنائه، ولكنه على النقيض في الحج حيث العذوبة وإتصال اللذة لأن الحج بضاعة العمر، ومتاع الآخرة وزهد بالدنيا وصبر في مرضاة الله، ونجاة من سنايك الفزع، وهو مرآة للعاقبة الحسنة، وويل للشيطان وجنوده لأن إتمام المناسك حرز للذات والولد من مصائده، وإبطال للنفس الشهوية ، وكبح سنوي لها بلجام مناسك الحج.

لقد جعل الله عز وجل الحج حمية من الدنيا واستيحاشاً من أهلها، وخلقاً للباس البطالة، والحج فنظرة للعبور إلى ساحل الأمن ومقامات العز، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٢)

(١) الدر المنثور ١/٤٣٩.

(٢) سورة الطلاق ٢

الآية لطف

تتضمن الآية تأديب وإرشاد وفد الحاج إلى وظائفهم الأخلاقية بعد أداء الحج بنبد التباهي بالأنساب والتفاخر بالآباء، فاثناء المناسك يقف جميع حجاج بيت الله بخشوع وخضوع الغني والفقير والسيد والعبد، فليس لبعضهم أن يلجأ بعد إنقضاء الحج إلى إظهار تفضيله على غيره من الحجاج الذين جاءوا من الأمصار البعيدة، فيقوم بذكر أمجاد آبائه أو يبين جاهه وسلطانه وسطوته ليفتخر بها عليهم، فأراد الله عز وجل للحاج ألا يشعر بأنه أدنى من غيره الذي يتفاخر بشأنه، ويستمر ذات صبغة التساوي بين وفد الحاج بصفة العبودية والخشوع لله بأن يلتقوا بذكر الله على نحو الوجوب لذا ورد الذكر والتكبير بعد صلاة الفريضة في أيام.

وتطرد الآية عن المسلمين الكسل في العبادة عند إنقضاء المناسك تمنع جلوس المسلمين ساكتين وتحول دون الجدال واللجاج فالذكر والتكبير سوء الموجهة الكلية الذي يستظل المسلمون بظله ويرحبون به فضل الله، فبعد إنقضاء المناسك يأتي رجاء قبولها فيكون الذكر والتكبير شفيحاً والذكر حسن بكل حال، فهو ردم لنافذة الملذات وطرق لباب الوصل بعيداً القدسية عن الحجاب الذين إختفوا بأداء مناسك الحج إذ أشرقت معها أنوار الحضرة المقدسية على القلوب المنكسرة .

وعن ابن مسعود قال : لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بصيغة الجملة الشرطية وفي موضوع انقضاء المناسك وأفعال الحج (فاذا قضيت مناسككم) مما يدل على وجود أفعال واجبة وأن انقضاء المناسك لا يعين إنتهاء الأفعال العبادية في الحج، وجاء جواب الشرط بالأمر بذكر الله عز وجل حال القيام والجلوس والنوم ليكون هذا الذكر ثمرة الإخلاص في أداء الحج، وبشارة الفوز بالجنة قال تعالى في الثناء على أهلها ﴿وَأَخِرْ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وفي الآية شهادة من عند الله للمسلمين من وجوه :

الأول : توفيق المسلمين لأداء مناسك الحج كاملة .

الثاني : صحة أداء المسلمين للمناسك .

الثالث : عدم ترك وفد الحاج لبعض أفراد المناسك .

الرابع : المسلمون على نهج وهدى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن جابر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر ويقول : لتأخذوا مناسككم ، فإنني لا أدري لعلني لا أحج بعد حجتي هذه^(٢).

وهل في ذكر الله الوارد في الآية تدارك لما نقص من المناسك ، الجواب لا دليل عليه لأن الآية تشهد للمسلمين بانقضاء المناسك، والله عز وجل يرضى بالقليل ويعطي الكثير إنما يكون الذكر مناسبة للأجر والثواب ورشحة فيض المناسك، وبه يصير وفد الحاج رسل بيت الله إلى قومهم وقراهم وأمصارهم، ودعاة إليه وفي التنزيل حكاية عن إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا

(١) سورة يونس ١٠

(٢) الدر المنثور ١/٤٥١.

الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ^(١) فيتقوم هذا الميل بذكر الله عز وجل عند البيت الحرام وجاء التشبيه بذكر الآباء أو أشد منه لبيان حق الله على العباد في ذكره وعبادته وهو تعالى خالق الآباء والأبناء.

وفي الآية دعوة لعدم الإكتفاء بالقليل من ذكر الله إذ أنه خير محض وحدائق ناضرة ومفتاح لسعادات لامتناهية وذكر الآباء لا يعود على الإنسان بالخير إلا ما كان بقصد القربة والفلاح أما ذكر الله فإنه يعود على ذات الإنسان وعلى آبائه بالرحمة والمغفرة، وتلك آية في إعجاز القرآن بأن يدعو الناس إلى ما فيه نفعهم في النشاطين، ومن منافع ذكر الله أنه بر بالوالدين وإعلان عن حسن سمت ذريتهما.

ثم إنتقلت الآية إلى موضوع آخر، وهم الذين يتخذون الدعاء بلغة للدنيا، ويلثهون وراء بهجتها ويتبعون الشهوات، ويمتنعون عن أداء الزكوات فيأتون يوم القيامة وليس لهم نصيب أو حظ يومئذ، وفيه تذكير بعالم الحساب والثواب العظيم لأداء المناسك يوم القيامة .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : وجوب أداء مناسك الحج كاملة من قبل وفد الحاج مجتمعين ومتفرقين، ويخرج المعذور عن بعضها بالتخصيص كالحائض، والعاجز عن الطواف مع وجوب النيابة والتوكيل أو القضاء في المقام .

الثانية : لا تستوعب مناسك الحج كل أيامه المذكورة في قوله تعالى ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾^(٢) وبين أشهر الحج وأيام المناسك عموم وخصوص مطلق.

(١) سورة إبراهيم ٣٧

(٢) سورة البقرة ١٩٧

الثالثة : قضاء المناسك لا يعني إقطاع الذكر والتسبيح في أيام الحج، ليكون تقدير الجمع بين آية البحث والآية أعلاه هو :

الحج أشهر معلومات فاذكروا الله فيها كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ومن أسرار صيرورة الحج شهراً متعددة إستدامة الذكر والتكبير والتسبيح بعد إنقضاء المناسك.

الرابعة : ذكر الله بعد إنقضاء المناسك من مصاديق الشكر لله تعالى على نعمة أداء الحج قال تعالى ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُوْحَضٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

الخامسة : أولوية ذكر الله، وإجتنب التفاهر بالأنساب، ويلحق به التباهي بالأجداد والجاه وذكر مقامات الدنيا والثروة وكثرة الأولاد، لقد أراد الله عز وجل إستدامة حال التساوي بين المسلمين في الأعمال والأفعال بعد إنقضاء المناسك وأن يكون الجامع بينهم هو ذكر الله، ويكون من خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، أنهم إذا إنقضت مناسك الحج لا يحصل الفصل والتمايز بينهم سواء بذكر بعضهم الآباء أو الجاه أو أي موضوع يكون في زمانه فاصلاً بينهم، فما داموا في البيت الحرام فهم يعيشون معاني الأخوة الإيمانية بالذكر والتكبير والتهليل، قال تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣).

ومن أبهى مصاديق التقوى أداء مناسك الحج، ليفوز كل حاج أيام الحج بمرتبة الأكرم بأداء المناسك وإقطاعه مع أهل الموسم إلى الذكر والتسبيح، وفيه بعث للسكينة في نفوس الحاج، وعزوف عن الدنيا ورجاء فضل الله في النشاطين .

(١) سورة .فصلت ٣٥

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة .الحجرات ١٣

من غير أن يتعارض هذا الرجاء مع العزوف إذ تنقاد الدنيا إلى المؤمن وهو سائح في عالم الملكوت .

السادسة : أختتمت الآية بزم الذين لم يتخذوا الدنيا مزرعة للأخرة، ولم يبادروا إلى أداء الحج وقطف ثمار إتمام المناسك ولم يذوقوا حلاوة الذكر الذي يجري على اللسان ولكن الجوارح كلها تتلذذ بعبودته .

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ ﴾

الآية خطاب الى وفد الحاج ينحل بعدد الحجاج في كل عام، وكذا تنحل البشارة التي تدل عليها الآية بالدلالة التضمنية اذ انها تحمل الأخبار عن القبول والرضا منه تعالى بفعل الحجاج وادائهم المناسك وان افعالهم ابتداء واستدامة تقع في عين الله عز وجل وبأمره.

وتمنع الآية بدلالاتها التضمنية والمفهوم من استحداث وجوه اخرى من المناسك تلك التي قد تجد اندفاعاً واذناً صاغية من وفود الحاج بسبب الشوق للمحسوب او لاتباع القائمين والمرشدين في اداء المناسك، او للاعتياد.

ولغة الجمع في المناسك تفيد الكثرة والتعدد الذي يتفرع عنه زيادة الثواب والأجر وتكون اضافة المناسك لعموم الحجاج بشارة القبول والرضا فلم تقل الآية فاذا قضيت المناسك او مناسك الحج، فمن معاني اضافة المناسك لعموم الحاج ان كل مسلم أمة مستقلة باداء فريضة الحج.

ووردت المناسك بصيغة الجمع بقوله تعالى ﴿ وَأَرَأَيْتُمْ مَنَاسِكَنَا ﴾^(١) في

ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، وقد تفضل سبحانه باخبار المسلمين عن مناسك الحج والظاهر ان هذه الآية استجابة لدعوة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فضلاً منه تعالى على المسلمين بالإخبار عن انقضاء المناسك واتمامها.

ومع ان ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لهما منزلة عظيمة خصوصاً وانهما كانا من الأنبياء المرسلين، وابراهيم عليه السلام من الخمسة اولى العزم، فانهما تضرعا وتوسلا لرؤية ومعاينة مناسك الحج وجاء القرآن ببيان تفصيلي للمناسك رحمة واکراماً للمسلمين، انها هبة إلهية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتخفيف واعانة في اداء المناسك يسر ووضوح، ومصدق لقوله تعالى ﴿ وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(١).

وليس من دليل على خروج واستثناء بعض الحاج مما في الآية الكريمة من البشارة، بالإضافة الى اصابة الإطلاق التي تفيد ارادة كل حاج اتم مناسكه وتحث الآية في مفهومها على اتمام المناسك والحرص على ادائها كاملة.

وصحيح ان انقضاء المناسك اعم من القبول والرضا الا انه يدل على القبول بالدلالة التضمنية بالإضافة الى استحضر فضله تعالى وامره بالأداء والبيان والتفصيل، والحكيم لا يفعل الا لغرض كريم، والغرض لا يتعلق به تعالى لأنه غني عن العالمين وغير محتاج وانما يتعلق بالعباد فلقد شرع الله مناسك الحج كي تكون طريقاً الى الجنة وحرزاً ووقاية من النار لمن احسن اداءها واتم افعالها.

لذا ورد عند الرجوع الى مكة استحباب قراءة الحاج اذا وقف على باب المسجد.

(اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى نُسُكَكَ وَسَلِّمْنِي لَهُ وَسَلِّمَهُ لِي أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْعَلِيلِ الذَّلِيلِ الْمُعْتَرِفِ بِذَنْبِهِ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي وَأَنْ تَرْجِعَنِي بِحَاجَتِي إِلَيْكَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَالْبَلَدُ بَلَدُكَ وَالْبَيْتُ بَيْتُكَ جِئْتُ أَطْلُبُ رَحْمَتَكَ وَأَوْثَمُ طَاعَتِكَ مُتَّبِعاً لَأَمْرِكَ رَاضِياً بِقَدْرِكَ أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمُضْطَرِّ إِلَيْكَ الْمُطِيعِ لَأَمْرِكَ الْمُشْفِقِ مِنْ عَذَابِكَ الْخَائِفِ لِعُقُوبَتِكَ أَنْ تُبَلِّغَنِي عَفْوَكَ وَتُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ بِرَحْمَتِكَ).

ويأتي الحجر الأسود ويستلمه ويقبله مع الامكان، والا فيستلمه بيده ويقبل يده، وان لم يستطع فيستقبله ويكبر ويقول:
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِهِ وَأَكْبَرُ مِنْ أَخْشَى وَأَحْذَرُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُمِيتُ وَيُحْيِي بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

ويقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أُوْمِنُ بِوَعْدِكَ وَأُوفِي بِمَهْدِكَ).

ولم تقل الآية (فاذا قضيتم المناسك) بل أضافت المناسك للمسلمين وفيه مسائل :

الأولى : أداء المناسك حاجة للمسلمين، فالله عز وجل ﴿غَنِيٌّ

عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ولكن الفرائض والعبادات رحمة بالناس أنفسهم.

الثانية : إختصاص المسلمين بأداء مناسك الحج وما فيه من الدلالة على وراثتهم للأنبياء.

الثالثة : دعوة المسلمين لتعاهد المناسك لأنها لهم وبهم ولا تؤدي إلا من قبلهم.

الرابعة : تأكيد وجوب أداء المناسك كاملة من غير نقصان، وهو الذي يدل عليه لفظ ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ﴾.

وإبتدأت الآية بحرف العطف (الفاء) الذي تكرر ثلاث مرات في الآية لبيان حقيقة من جهات:

الأولى : عدم الفترة بين أفراد مناسك وأعمار الحج.

الثانية : التداخل بين الإستغفار وقضاء المناسك، وكأنها تختتم بالإستغفار، ويكون الإنتقال إلى الذكر من متاهات سؤال العفو والمغفرة من الله.

الثالثة : سؤال الرزق الكريم من الله، وإرادة العوض عن الجهد المبذول والمال الذي أنفقه الحاج في الطريق إلى مكة وأثناء الحج، قال تعالى ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾^(١).

الرابعة : تعقب ذكر الله لأداء المناسك من غير تراخ أو غفلة أو نسيان لمحجى الفاء في قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ كما يقال جاء زيد فعمر، أي أنه دخل بعده مباشرة من غير فترة أو مدة تذكر.

الخامسة : لايعني قضاء المناسك في صفحة العبادة الإضافية في الحج والإنشغال بالدنيا وزينتها وإنشاد الشعر والتباهي بالآباء وأجدادهم، بل لابد من الإنشغال بذكر الله والتكبير والتهليل، وهذا الذكر واقية من الشيطان والنفس الشهوية.

السادسة : تنمية ملكة الذكر عند المسلمين، وجعلهم يعتادون على الذكر في أيام السنة كلها، لما فيه من النفع العظيم، قال تعالى ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

قال تعالى ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٢) والتفت هو المناسك كلها، وهو المروي عن عبدالله بن سنان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: التفت هو الحلق وما في جلد الإنسان وعنهم أنه أخذ الشارب وقص الأظفار^(٣).

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وأبو الشيخ عن فاطمة بن الحسين قالت: لما أخذ الله الميثاق من بني آدم جعله في الركن، فمن الوفاء بعهد الله استلام الحجر.

وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: كنت مع أبي محمد بن علي فقال له رجل: يا أبا جعفر ما بدء خلق هذا الركن؟ فقال: إن الله لما خلق الخلق قال لبني آدم {ألست بربكم؟} قالوا بلى؛ فأقروا، وأجرى نهراً أحلى من العسل وألين من الزبد، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر، فكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم ألقم ذلك الكتاب هذا الحجر، فهذا الإستلام الذي ترى إنما هو بيعه على إقرارهم الذي كانوا أقروا به.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: ضرب الله متن آدم فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية، فقال: هؤلاء أهل الجنة، وخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال: هؤلاء أهل النار أمثال

(١) سورة الرعد ٢٨.

(٢) سورة الحج ٢٩.

(٣) أنظر الوسائل ٧.

الخردل في صور الذر، فقال: يا عباد الله أجيئوا الله: يا عباد الله أطيعوا الله. قالوا: لبيك اللهم أطعناك، اللهم أطعناك، اللهم أطعناك. وهي التي أعطى الله إبراهيم في المناسك: لبيك اللهم لبيك. فأخذ عليهم العهد بالإيمان به، والإقرار والمعرفة بالله وأمره^(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: حججنا مع عمر بن الخطاب، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلك ما قبلتك، ثم قبله فقال له علي بن أبي طالب: إنه يضر وينفع قال: بم...؟ قال: بكتاب الله عز وجل.

قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قال الله {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم}^(٢) إلى قوله {بلى} خلق الله آدم ومسح على ظهره فقرهم بأنه الرب وإنهم العبيد، وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك في رق، وكان لهذا الحجر عينان ولسان، فقال له، افتح فاك. ففتح فاه فألقمه ذلك الرق،

فقال: أشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، وإني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق، يشهد لمن يستلمه بالتوحيد فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع.

فقال عمر: أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا حسن^(٣).

(١) الدر المنثور ٤/٣٦٦.

(٢) سورة الأعراف ١٧٢.

(٣) أنظر الدر المنثور ٤/٣٦٦.

قوله تعالى ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ ﴾

ولا يعني الفراغ من المناسك التوجه التام الى مشاغل الدنيا ومزاولة الأعمال الحياتية والإنقطاع اليها، فانقضاء المناسك يعني فراغ الجوارح من ادائها وامكان الرجوع الى الأوطان والأمصار، وهو امر لا يتعارض مع الذكر والتسبيح والتهليل في اشارة الى الإنعطاف في حياة الحاج ولزوم تعاهده للذكر واسباب التوبة.

موضوعية الذكر

في الذكر في المقام مسائل :

الأولى : الذكر على الذبيحة والهدي، والآية اعم خصوصاً مع جواز النيابة في ذبح الهدي.

الثانية : التكبيرات بعد الصلاة في يوم النحر وايام التشريق.

الثالثة : ابدال الناس ذكر الآباء والتفاخر بهم بذكر الله.

الرابعة : الفراغ من الحج سبب للإقبال على الدعاء والإستغفار.

وهذه الوجوه كلها من مصاديق الآية، ولحاظ أن التكبيرات منصوباً عليها لا يعني حصر الذكر بها، فالذكر عنوان الإرتقاء في سلم الكمالات النفسية ورسوخ الإيمان وتثبيت اركان الدين.

ان الفراغ من المناسك وثيقة وشهادة ومناسبة كريمة للفلاح والرشاد.

والذكر من حيث اوانه ومدته يحتمل وجهين:

الأول: ما بعد انقضاء المناسك مباشرة واثناء شد الرحال للتفرق عن مكة كي تبقى انوار العبادة تضيء دروب مكة وتحيط هالة التقديس بالحجاج اثناء مغادرتهم الى قبر النبي الإكرم صلى الله عليه وآله وسلم او الى بلدانهم.

الثاني: الذكر على نحو الدوام والإتصال وعدم انحصاره بايام

معدودة بل انه يصبح صفة ملازمة لمن حج البيت لتكون علامة تشریف مميزة له ودعوة للغير للحوق به سواء باداء الفريضة او بالإنشغال الدائم في الذكر، ظاهر الآية على الأول ولا يمنع من احتمال ارادة الثاني ولو على نحو الثواب الإضافي والعنوان الإعتباري.

ان الذكر عند انتهاء المناسك تجسيد عملي لقوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾^(١) فقد يظن الإنسان ان النهي عنها ينحصر باوان الحج ومناسكه، فجاءت الآية الكريمة لتشير اليها بالدلالة التضمنية وتمنع من حصولها لإنشغال القلب واللسان بالذكر بل لإنقذاح ملكة التقوى في النفس مما يصير حرزا وواقية.

والذكر مناسبة كريمة وموضوع للسفر من الخلق الى الحق وينمي ملكة التقوى ويساهم في تنزيه النفس من تنقيح الجوارح والأفعال. وجاء التشبيه بذكر الأباء، ويمثل وجوهاً :

الأول : إرادة الكم ومقدار الذكر .

الثاني : المقصود كيفية الذكر .

الثالث : التثنية إلى أوان الذكر (وعن ابن عباس قال : كان المشركون يجلسون في الحج فيذكرون أيام آبائهم وما يعدون من أنسابهم يومهم أجمع فانزل الله على رسوله في الأسلام) (فاذكروا الله كذاكم آباءكم أو أشد ذكراً)^(٢).

الرابع : المراد الحماس والإنفاع في ذكر الآباء ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة، التي تجلى فيها الإعجاز بالإخبار عن كون ذكر الله اشد من ذكر الآباء .

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) الدر المنثور ٤/٤٦٤.

تفسير قوله تعالى ﴿كَذَرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾

الكاف تفيد التشبيه وقد تقدم ان العرب كانت تتفاخر بالآباء وامجادها بعد انتهاء مناسك الحج فنزلت الآية للنهي عنه وابداله بذكر الله وان ذكر الله يأتي بديلاً كريماً عن ذكر الآباء وفيه نجاة، وموضوعها اعم من ان ينحصر بسبب النزول وأوانه من وجوه:

الأولى : انها افاضة من افاضات الحج وبركاته التي تتجلى على السلوك من حين الشروع به لتستمر الى ما بعد انقضاء مناسكه.

الثانية : الآية تحول نوعي في السيرة الإجتماعية والسجيا النفسية بانتقال الإنسان الى الإنقطاع لذكره تعالى ومعرفة الحاج لأولوية الذكر وتقديمه على استحضار امجاد الآباء.

الثالثة : التمثيل في الآية يعني الإبدال والنسخ أي كما تذكرون آباءكم وامجادكم باندفاع وشوق فتوجهوا الى ذكره تعالى باخلاص نية وانبذوا الإشتغال بامجاد الآباء في موسم الحج.

الرابعة : ذكر الآباء هنا من باب المثال الأمثل والحاضر والا فان المرجوح اعم ويشمل الأولاد والعيال وحاجاتهم فقد يلتفت الإنسان بعد انتهاء المناسك فجأة الى حاجات الدنيا ومتطلبات المعيشة واحوال العيال وامورهم المعلقة وتهيئة المتاع والهدايا وانواعها وما يترشح عن ميادين الأسواق من تلاعب الشيطان وظهور الطمع وما قد يتفرع عنه من الغش والتغريب ونحوهما.

الخامسة : جاءت هذه الآية لتحكم سلوك الحاج بمفاهيم التقوى وتجعله يمتاز اخطر مرحلة بعد المناسك بالنجاح والتوفيق.

السادسة : الآية اخبار عن منافع الحج على الحياة اليومية العامة وخارج موسم الحج بسيادة الذكر والتسبيح.

السابعة : في الآية دعوة للبحث والدراسة والإستنباط عن كيفية

استثمار الحج وافراد الحاج لإصلاح المجتمعات.

الثامنة : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقي عنده من يأتي مسلماً ايماناً ليتفقه في الدين ويتعلم الأحكام ثم يأذن له بالرجوع الى اهله ليرشد قومه وليستحضر المناسك والأعمال العبادية امامه، ويجعله يحس ويزداد معرفة بأحكام الإسلام والتقوى ويعمل على تنزيه ساحة الربوبية ويمنع من المعصية والفحشاء وفق مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التاسعة : كأن هذه الآية ارشاداً بان يستمر الحاج بالصلاح الى ما بعد اداء المناسك ويبدأ بنفسه لإصلاح أسرته وقومه وجعلهم يقتدون به وبسيرته.

العاشر : تمثل الآية كنزاً من كنوز الحج لم يستقرأ بعد من جهة العلم والتحقيق وان كان ظاهراً للعيان والوجدان ويحس به كل مسلم ويبرز على سيرة وسلوك الحاج ولو على مراتب متباينة.

الحادية عشرة : ورد عن الزهراء عليها السلام في خطبتها انها قالت: (وجعل الله الحج تشييداً للدين)، وظاهر الكلمة العموم وكثرة وافاضة منافع الحج لما هو ابعد من مواضع ومناسكه.

الثانية عشرة : ورد عن ابن عباس انه قال في تفسير الآية هو ان تغضب لله اذا عصي اشد من غضبك لوالدك اذا ذكر بسوء، وهو من مصاديق تفسير الآية التي لا تنحصر بالجانب السلبي والرد بل تشمل تعظيم شعائر الله بالمفهوم الإيجابي الوجودي واثبات مسالك الصلاح والهداية ابتداء.

الثالثة عشرة : موضوعية ذكره تعالى وأولويته.

الرابعة عشرة : الذكر مقدمة وتمهيد وحال مناسبة لأداء العبادات والتخلص من شواغل الدنيا وكدوراتها.

الخامسة عشرة : ذكره تعالى ليس تكليفاً مستحدثاً يحتاج الى وقت اضافي وتفرغ واستعداد وتعطيل لبعض الأعمال بل يأتي بديلاً في الوقت والفعل والجهد والتلفظ.

السادسة عشرة : الآية تمنع من اقامة الإحتفالات والمهرجانات المهنية والوطنية ونحوها لمناسبة انتهاء الحج، وتحرص الأفعال بذكره تعالى ولو على نحو بعض الفعاليات القرآنية والأدبية والثقافية ذات الصبغة الدينية المحضة.

السابعة عشرة : ذكر الآباء جاء من باب المثال وليس الحصر، ففي الآية نهى عن التفاخر الشخصي والقبلي والسياسي والدولي اثناء الحج لدرء الفتنة ولإبقاء ايام الحج خالصة للذكر ومناسبة للعبادة المحضة.

والتشبيه والتماثل بين ذكر الله وذكر الآباء فيه وجوه:

الأول : المساواة بينهما من جهة الكم، أي كما كنتم تذكرون آباءكم، ليكون التغيير في الموضوع دون الكم.

الثاني : التشبيه في الكيف والإخلاص والأهمية، فكما كنتم تحرصون على ذكر الآباء فاحرصوا على ذكر الله عز وجل.

الثالث : كما كنتم تتفاخرون بالآباء فتفاخروا بالإيمان، وذكره تعالى لأنه عز بلا عشيرة.

تفسير قوله تعالى ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

(او) يأتي بمعنى حرف الإضراب (بل)، وهذا التأويل لا يمنع من حمله على المعنى الظاهر وهو الترديد بين التشبيه بذكر الآباء او الأشد والأكثر والتعدد في معاني (او) بلحاظ المعاني اللغوية له والقرائن، ويمكن استقرار شدة الذكر من وجوه:

الأولى : كثرة الذكر وكميته.

الثانية : الإقبال على ذكره تعالى بكيفية وانقطاع اكثر من ذكر

الآباء.

الثالثة : بلحاظ اسباب النزول فان ذكر الآباء عند الإنتهاء والفراغ من مناسك الحج، اما ذكره تعالى فهو اعم واكثر واوسع مكاناً وزماناً.

الرابعة : شدة الذكر تترشح من ادراك عظيم الثواب والنفع المتصل في الحياة الدنيا والدار الآخرة.

الخامسة : الشدة في الذكر من جهة الإجتهد فيه وتعدد كفياته.

السادسة : بتأثيره على النفس وارتقائها في عالم الملكوت في حال الذكر والتسبيح.

السابعة : ذكر الناس لأبائهم على مراتب متفاوتة، وهذا التفاوت اما بحسب اهتمام الشخص نفسه باجداد الآباء او بما للآباء من اجداد او عدمها، فليس كل الآباء لهم اجداد، اما ذكره تعالى فهو بحر من الثناء لا ينتهي بحد ولا يستطيع الناس احصاء معشار صفاته وافعاله الحسنة سبحانه.

الثامنة : ذكر الآباء ينفرد به شخص او جماعة تربطهم صلة الرحم، اما ذكره تعالى فيلتقي به العباد جميعاً ويكون وفد الحاج رواده لما افاضته المناسك عليهم من التكامل العقائدي والارتقاء العقلي.

التاسعة : ذكره تعالى اكثر وقعاً في النفس وحضوراً في الوجود الذهني، فذكر الآباء يرد عند التفاخر وذكره تعالى يصاحب النفس ويتغشاها.

العاشرة : ذكر الآباء مناسبة للفرقة وقد يؤتى به للتعريض بالآخرين كما في كثير من الأشعار او انه يؤدي في مفهومه الى ذم الآخرين.
اما ذكره تعالى فسبب للوفاق والرحمة وهو مناسبة لتوثيق اواصر الأخوة بين المسلمين وطرده الضغائن والأحقاد.

الحادية عشرة : من فضله تعالى ان تنزل شآبيب الرحمة بذكره تعالى بدل العصية وما فيها من الأضرار.

الثانية عشرة : ذكره تعالى يفتح البصائر وينقي السرائر مما يجعله سبيلاً لإتيان الأفضل من الأفعال.

الثالثة عشرة : كره تعالى مدخل لوجوه من العبادة وسبب للإلتفات الى الدعاء والمسألة.

الرابعة عشرة : ذكره تعالى علة لقضاء الحوائج وان انشغل عنها الإنسان بالذكر والتسبيح.

الخامسة عشرة : الظاهر ان ذكره تعالى سواء كان بمثل ذكر الآباء او اشد منه يكون عند الله اشد واكثر بمراتب لأنه سبحانه يضاعف الحسنة وينمي الصالحات ويزيد عليها من فضله.

السادسة عشرة : تحت الآية على استثمار الذكر كباب للثواب والأجر واكتناز الصالحات.

السابعة عشرة: الآية تحريض على المزيد من الذكر والتسبيح وبيان الفارق الدائم والخصوصية بين الأفعال العبادية وغيرها.

الثامنة عشرة : تفتح الآية الباب امام الإجتهد في الذكر وعدم حده بحد معين او مثل وشبه مخصوص لأنه خير محض.

التاسعة عشرة : تحول الآية دون نعت الذين يكثرون ذكر الله بالتشديد على النفس ونحوه، فالآية وقاية وحرز للمؤمنين.

العشرون : في الآية بشارة الثواب العظيم على الذكر والتناسب الطردي بين الذكر والثواب.

الحادية والعشرون : ورد ذكر الآباء لأنهم الأهم والأقرب للإنسان في ذكر امجاده ومفاخره فجاء توكيد الإكثار من ذكره تعالى ليكون حجة ومانعاً من ادعاء خصوصية لغير الآباء تستحق الذكر.

الثانية والعشرون : اختصاص ذكره تعالى بالشدة والزيادة والكثرة بصيغة الإطلاق.

الثالثة العشرون : اداء مناسك الحج والإنقطاع اثناءها الى الله عون على زيادة الذكر وسبب في الإنشغال عن ذكر الآباء.

الرابعة والعشرون : الآية عنوان وتجسيد للشكر والثناء والحمد له تعالى على التوفيق الى طاعته.

و يستحب زيارة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم استحباباً مؤكداً بنصوص مستفيضة، يفتخر بها كل مسلم لما تدل عليه من الصلة بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبين أمته وما تفيد من تجديد العهد بالالتزام بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل، وفي خبر الأسلمي عن ابي عبد الله عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أتى مكة حاجاً ولم يزرني الى المدينة جفوته يوم القيامة، ومن اتاني زائراً وجبت له شفاعتي ومن وجبت له شفاعتي وجبت له الجنة ومن مات في احد الحرمين مكة والمدينة لم يعرض ولم يحاسب ومن مات مهاجراً الى الله عز وجل حشر يوم القيامة مع اصحاب بدر".

تفسير قوله تعالى ﴿فَإِنَّ النَّاسَ مِنْ قَوْلِ رَبِّنَا لَأَنفِصِي الدُّنْيَا﴾

في الآية مسائل:

الأول : تتعلق الآية بالدعاء كسلاح وسبيل لقضاء الحوائج والإستعانة به لتحقيق الرغائب.

الثاني : جاءت الآية على نحو الإخبار الا انه لا يمنع من ارادة الإنشاء بالدلالة التضمنية والإلتزامية.

الثالث : بدأت الآية بحرف الجر (من) وهو يفيد التبعية، والناس عنوان جامع يدخل فيه المسلم وغير المسلم.

الرابع : ما دام موضوع الآية الدعاء فهل يخرج الكفار منه

بالتخصص، الجواب لا، لأن الكفار أيضاً يتوجهون أحياناً بالدعاء الى الله تعالى.

الخامس : روي عن ابن عباس ان المشركين كانوا يقولون اذا وقفوا: اللهم ارزقنا ابلاً وبقراً وغنماً وعبيداً واماء، وما كانوا يطلبون التوبة والمغفرة وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والمعاد، وعن انس كانوا يقولون: اسقنا المطر واعطنا على عدونا الظفر.

السادس : للآية دلالات لا تنحصر بايام التنزيل فالآية اعم من ان تنحصر بالكفار فهي شاملة لأفراد الزمان الطولية ولشطر من الناس لذا فان قوله تعالى ﴿ فَمِنْ النَّاسِ ﴾ اعجاز قرآني لدلالته على اطلاق التبويض وعدم حصره بجماعة او ملة معينة او ملل وأمم مخصوصة، نعم جاءت الآية لتوثيق فعلهم ليكون عبرة وموعظة ودرساً وتحذيراً للمسلمين .

السابع : لقد جاءت الآية بصيغة المضارع لإفادة التأديب والتنبيه لعموم المسلمين وتحذيرهم من حصر الدعاء في حاجات الدنيا.

الثامن : للآية مضامين قدسية عرفانية وهي عدم الإنشغال عن الذكر والعبادة والتسبيح بالشهوة واللذة وحاجات البطن والفرج.

التاسع : تدعو الآية لإستحضار الآخرة واهوالها.

العاشر : في الآية توكيد على حاجة الإنسان للدعاء كمقدمة ووسيلة وآلة مباركة لإجتياز عقبات الآخرة.

الحادي عشر : جاءت الآية متعقبة لآية الذكر بعد المناسك ويمكن جعلها برهاناً على ما ذهبنا اليه في الآية السابقة من توظيف مناسك الحج وجعلها نافعة ومثمرة.

الثاني عشر : ظاهر التداخل ووحدة الموضوع بين هذه الآية والآية السابقة التوكيد على ذكره تعالى وجعله سجية ثابتة عند المسلم وليصبح

سبباً لتنحية الدنيا وحاجاتها عنه.

الثالث عشر : الآية في معرض الدم لأولئك الذين يحصرون الدعاء والمسألة بمحاجات الدنيا لتركهم الأهم والأولى.

الرابع عشر : الإكتفاء بسؤال حاجات الدنيا وشهوات النفس يدل بالدلالة الإلزامية أو التضمنية على قلة الإيمان بالآخرة وعدم الإستعداد لها بما هو مناسب من الأعمال العبادية.

الخامس عشر : السؤال والدعاء جزء من السعي وهو فعل وقول ومرآة الإنسان ويعكس ما في نفسه فلو كان يخشى الآخرة لسأل الله تعالى الجنة.

السادس عشر : ما تدل عليه الآية من الدم والتقيح لا يشمل المسلمين لأن الإيمان بالمعاد من اصول الدين وعليه اجماع علماء المسلمين، كما ان قراءة المسلم للفتحة وغيرها من السور في الصلاة شاهد يومي على سؤال المسلم لحاجات الآخرة.

السابع عشر : تدل الآية على تفضيل المسلمين ووراثتهم للأرض لا بخصوص الحج وحده بل بما فيه من الذكر والدعاء.

الثامن عشر : الآية حجة على الناس وموعظة لهم ومناسبة لبيان الوظائف الأساسية للدعاء.

التاسع عشر : فريضة الحج وما يتعقبها من الذكر سلاح لتقويم مدرسة الدعاء والإنتفاع منه على الوجه الأتم.

وعن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل فيهم {فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق} ويحيى بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار}

فأنزل الله فيهم {أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب} ^(١).
 وأختتم الآية السابقة بالإخبار عن إحصاء دعاء فريق من الناس
 بأمور الدنيا من غير بيان لأثر ونفع هذا الدعاء الذي لا يذكرون فيه
 الآخرة مع أن حاجتهم حيثئذ أشد وأطول، قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ

لَهِيَ الْخَيْرُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَئِنَّ الدُّنْيَا لَفَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ^(٢)، أما آية البحث فأنها ذكرت دعاء فريق من الناس
 للدنيا والآخرة ثم بينت الآية الآخرة ما يلحقهم من الثواب على عملهم،
 وبلحاظ أن الآية واردة بخصوص الحج وأفعاله ففي الآية حث للمسلمين
 على الدعاء للدنيا والآخرة، فمن الإعجاز في نظم آيات الحج هذه أنها
 تضمنت الأوامر حسب سياقها وهي:

الأول : الأمر بإتمام الحج والعمرة، والأمر بتقوى الله كما في الآية
 السادسة والتسعين بعد المائة.

الثاني : الأمر بالتزود من الصالحات وفعل الخير، والأمر بتقوى الله
 والخشية منها سبحانه كما في الآية السابقة والتسعين بعد المائة.

الثالث : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وذكر الله سبحانه على
 نحو الإطلاق على نعمة الهداية، كما في الآية الثامنة والتسعين بعد المائة.

الرابع : الأمر بالإستغفار كما في الآية التاسعة والتسعين بعد المائة.

الخامس : الأمر بذكر الله كذكر الآباء أو أشهر منه كما في الآية
 السابقة.

السادس : الأمر بذكر الله في أيام الحج بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي

أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ ^(٣).

(١) الدر المنثور ١/٤٦٤.

(٢) سورة العنكبوت ٦٤.

(٣) سورة البقرة ٢٠٣.

وجاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية، ولكنها تتضمن معنى الإنشاء والبعث على أمور:

الأول : إقرار المسلمين بأن الله عز وجل هو ربهم، وأن له الربوبية المطلقة على الخلائق كلها، ويتلو كل مسلم ومسلمة عدة مرات وعلى نحو الوجوب في الصلاة اليومية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

الثاني : توجه المسلمين بالدعاء إلى الله.

الثالث : سؤال المسلمين الله عز وجل أن يرزقهم في الدنيا، وفيه شاهد على تسليم بأن مقاليد الأمور كلها بيد الله، وأنه سبحانه لا تستعصي عليه مسألة، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

الرابع : الدعاء للآخرة ذخيرة وحرزاً ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾^(٣).

الخامس : الدعاء للأمن من عذاب النار، وعدم الدخول فيها، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أوقدت النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة^(٤)، ومع شدة لهيب النار فإن الدعاء وافية منها لذا فإن آية البحث كنز للوقاية والسلامة منها.

وجاء لفظ (حسنة) في الآية مرتين وبصيغة النكرة في سياق الإثبات وتفيد العموم يستقرأ من قرينة عدم إرادة فرد ومصدق واحد من الجنس وفي التنزيل ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة البقرة ٢٠.

(٣) سورة الشعراء ٨٨.

(٤) الدر المنثور ١/٤٧.

إِلَيْكَ ﴿١﴾.

وجاءت آية البحث على شعبتين:

الأولى : لغة التعيين وتشمل:

الأول : الذين يسألون الله عز وجل، وهم فريق من الناس، والمراد المسلمون.

الثاني : المسؤول هو الله عز وجل.

الثالث : إرادة الإطلاق في الدعاء وإرادة الدنيا والآخرة مجتمعين ومتفرقين.

الثانية : لغة الإجمال، وهي على قسمين:

الأول : ذكر الحسنة في الدنيا من غير تعيين لجنسها وزمانها وكيفية مجيئها.

الثاني : الحسنة في الآخرة وعدم بيان ماهيتها، وهذا التقسيم من إعجاز الآية الكريمة، إذ يتضمن تفويض أو الحسنة وجنسها وكيفية الله عز وجل.

تفسير قوله تعالى ﴿وَمَالَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾

الخلق النصيب والحظ، وفي الآية مسائل:

الأولى : مع الإنشغال بالدعاء ومزاولته والتوجه الى الباري يأتي الوعيد والإنذار لأن مسمى الدعاء جزء علة ، اما الجزء الآخر فهو الإيمان بالمعاد واليوم الآخر.

الثانية : الآية حجة في توكيد موضوعية (المعاد) في الملل السماوية.

الثالثة : جاء في مفاتيح الغيب: (وقال آخرون: هؤلاء قد يكونون

مؤمنين ولكنهم يسألون الله لدنياههم، الى ان قال: وقد يقال لمن فعل ذلك انه لا خلاق له في الآخرة، وان كان الفاعل مسلماً، لكن المسلم خارج بالتخصص من موضوع هذه الآية وهي وعيد يفيد في مفهومه تنبيه المسلمين وبيان فضله تعالى عليهم بالذكر بعد الحج لذا ترى الآية جاءت بصيغة ﴿من الناس﴾ وهي تدل على ارادة طائفة من عموم الناس وفي خطابات القرآن ورد ﴿يا ايها الذين آمنوا﴾ بخصوص المسلمين و﴿يا ايها الناس﴾ ويشمل الناس جميعاً، ان اداء فريضة الحج اقرار باليوم الآخر ورجاء للنجاة من مواطن يوم القيامة، وخاتمة الآية تدل على خروج المسلم عن موضوعها، وفيه دلالة على ارادة الذي لا يؤمن باليوم الآخر.

الرابعة : استشهد الرازي بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾^(١) وانها نزلت فيمن اخذ مالا يمين فاجرة^(٢).

ولكن الآية اعم في موضوعها وسبب النزول بالإضافة الى ما ذكر في سبب نزولها وانها نزلت في امرؤ القيس ورجل من حضرموت اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيأتي بيانه.

الخامسة : ورد لفظ ﴿خَلَاقَ﴾ ثلاث مرات في القرآن كلها جاءت بصيغة النفي والأخبار عن الحرمان يوم القيامة لأولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، فيخرج المسلم من مضامينها وما فيها من التخويف والوعيد.

السادسة : المنازل والمقامات الكريمة في الآخرة لا تنال الا بالدعاء سواء بعنوانه المجرد او بجعله مثلاً للفرائض واحكامها.

(١) سورة آل عمران ٧٧.

(٢) مفاتيح الغيب ١٨٧/٥.

السابعة : الدعاء عنوان الإقرار والإيمان.

الثامنة : ان الله عز وجل يحب ان يسأله العبد لآخرته وفيه تنمية لصفة نفسية راسخة تبعث على التوقي والسعي لكمال النفس وتسخير الجوارح والأركان في اعمال البر والصلاح.

التاسعة : الآية في منطوقها ذم لأهل الجحود واصحاب الدنيا وهي في مفهومها حث للمسلمين على السؤال للآخرة ومدح لهم واخبار عن اهليتهم لمنازل الآخرة.

وكان فريق من أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ويدعون لأمر الدنيا، اللهم إرزقنا المطر، اللهم إرزقنا إبلاً ويقول الآخر إرزقنا غناً فجاءت آية البحث لتوثيق فعلهم وإنحصار سؤالهم بأمور الدنيا، وبيان فضله تعالى على الناس ببعثة النبي محمد صلى الله عليه ،آله وسلم وهدايتهم لسؤال أمور الدنيا والآخرة ترى لماذا ليس هؤلاء من نصيب وحظ في الآخرة، يحتمل الجواب وجوهاً :

الأول : الملازمة بين سؤال حاجات الدنيا وحدها وبين الخسارة في الآخرة، فالذي لا يدعو الله إلا بخصوص الدنيا يكون في الآخرة من الخاسرين.

الثاني : توظيف حاجات الدنيا لذاتها وعدم إتخاذها زاداً ومتاعاً للآخرة .

الثالث : دلالة إنحصار السؤال بالدنيا على عدم الإقرار باليوم الآخر ولكن الآية ابتدأت بالقول (ربنا) .

الرابع : إفادة الواو في (وماله) معنى الإستئناف أي أنه بالأصل إختار الحرمان من النصيب في الآخرة باصراره على الكفر والجحود.

الخامس : إنه لا يتوجه إلى الله إلا عند الطمع في أمور الدنيا التي هي كالغشاوة التي تحول دون تدبره وإستعداده لعالم الخلود، قال تعالى

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾^(١) □

السادس : حرمان من النصيب بامتناعه عن التصديق بالنبوة والرسالة وإتمام الحج والعمرة .

والصحيح وهو الثاني والرابع والخامس والسادس .

في باب الوجوه والنظائر ذكرت ثمانية وجوه عديدة لمعنى القضاء وجاء هنا بمعنى الفراغ كما جاء القضاء في القرآن بمعنى الأمر والأجل والوجوب والهلاك والإبرام والإعلام والخلق، مع الإقرار بالتداخل في الجملة بين هذه الوجوه.



قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الآية ٢٠١

الإعراب واللغة

ومنهم: الواو: حرف عطف، منهم: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، من يقول: ربنا آتنا: تقدم إعرابها.
حسنة: مفعول به منصوب، وفي الآخرة: الواو حرف عطف، وجار ومجرور.

وقنا: الواو عاطفة، ق: فعل امر مبني مبني على حذف حرف علة، والفاعل ضمير مستتر تقديره انت، والضمير (نا) مفعول به اول.
عذاب: مفعول به منصوب بالفتحة، النار: مضاف إليه.

والحسنة هي النعمة بالنفس او المال او الملة والجماعة، والإحسان يكون للنفس وللغير أي ان الإنسان يحسن لنفسه ويحسن لغيره، ولكن الإنعام لا يكون الا للغير.

ووقاه: صانه ونجاه، ويقال: وقاه مما يكره أي حماه منه، ووقي: تأتي مخففة ومشددة، والتخفيف هو اللغة الأحسن وبها ورد التنزيل، والعذاب هو الضرر المحض المستحق المقرون بالإهانة.

في سياق الآيات

جاءت الآيات بتقسيم الناس بلحاظ موضوع الدعاء بعد الأمر بذكره تعالى، وفيها تأديب وارشاد و لا تنفصل آيات الدعاء هذه عن الحج وما فيه من الذكر.

وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال اكثر

دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وفي التهليل والتحميد في الحج نوع دعاء.

وصلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية السابقة ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾^(١)

وفيها مسائل:

الأولى: المبادرة إلى الدعاء عند إنقضاء المناسك رجاء الإستجابة والله عز وجل هو الشاكر العليم.

الثانية: بين الآيتين عموم وخصوص في ماهية الدعاء والذين يقومون بالدعاء.

الثالثة: في الجمع بين الآيتين تأديب للمسلمين بخصوص الدعاء والهداية له، ولو دار الأمر بين الدعاء مخصوص الدنيا وللدنيا والآخرة فيجب الثاني لما فيه من الإقرار بالمعاد واليوم الآخر.

الثالثة: أيها أكثر حاجة في الدعاء الدنيا أم الآخرة، الجواب هو الثاني قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(٢)

الرابعة: جاءت الآية السابقة بالدعاء للدنيا مطلقاً أم في آية البحث فبينت إرادة الحسنة في الدنيا.

الخامسة: الدعاء للدنيا والآخرة باعث لأداء المناسك.

السادسة: الجمع بين الآيتين من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ

إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١).

(١) سورة البقرة ٢٠٠

(٢) سورة العنكبوت ٦٤.

ومن الإعجاز في الجمع بين الآيتين دعوة الناس جميعاً لسؤال الوارد في هذه الآية والذي يقوم بالإيمان فما أن يطلع الإنسان على التباين بين مضامين الدعاء في الآيتين حتى يميل إلى ما في هذه الآية من سؤال حاجات الدنيا والآخرة .

وبين لعدة الآية والآية السابقة عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء من جهات :

الأولى : تعلق كل من الآيتين بالناس .

الثانية : موضوع الآيتين هو الدعاء وذكر الله .

الثالثة : الدعاء وسؤال الله بخصوص الحياة الدنيا .

الرابعة : تكرر قوله تعالى ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا﴾ في الآيتين أما مادة

الإفتراق بين هذه الآية والآية السابقة فمن جهات :

الأولى : في الآية السابقة جاء السؤال بخصوص الحياة الدنيا أما في

هذه الآية فالدعاء شامل للحياة الدنيا والآخرة .

الثانية : أهل المسألة الذين ذكرتهم الآية السابقة غير الذين ذكرتهم

آية البحث .

الثالثة : الدلالة على تفقه أهل آية البحث بأمر دينهم، وإقرارهم

بالمعاد وأن الدنيا دار ممر وهي زائلة .

الرابعة : تضمنت آية البحث خطاباً وأمرّاً للمسلمين يتعلق بحجهم

ووجوب ذكركم لله بعد أداء المناسك، بينما أختتمت آية البحث بذكر

الدعاء وحده مع شمول موضوعه لحاجات الدنيا والآخرة .

الخامسة : حرمان الذين يسألون بخصوص الدنيا من ثواب الآخرة

وعظيم النعم فيها، بينما جاءت آية البحث بالوعد الكريم للمؤمنين

الذين يسألون لأمر الدين والدنيا.

الثاني : صلة هذه بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١)،

وفيه مسائل:

الأولى : ذكرت آية السياق دعاء فريق من الناس لحاجات الدنيا والآخرة، وتتجلى في آية السياق من وجوه:

الأول : إفاضة وإندفاع وفد الحاج من عرفات.

الثاني : الوقوف عند المشعر الحرام.

الثالث : إفاضة المسلمين في آن واحد سواء من عرفات بعد غروب اليوم التاسع من شهر ذي الحجة أو من المشعر الحرام بعد طلوع الشمس من اليوم العاشر منه.

الرابع : إتخاذ وفد الحاج الإستغفار جلباباً.

الثانية : المسلمون يقولون ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ويطردون العبادات التي يأتي معها الفضل الإلهي في الدنيا والآخرة، وفي التنزيل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

الثالثة : من خصائص المسلمين أنهم يعلمون بمضامين آية البحث ويدعون للدنيا والآخرة، ويمثلون لأوامر الإلهية الواردة في آية السياق بأداء مناسك الحج.

الرابعة : أداء مناسك الحج واقية من عذاب النار، وتزكية للعبور على الصراط.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا

مِنْ رَبِّكُمْ...﴾^(٣)، وفيه مسائل:

(١) سورة البقرة ١٩٩.

(٢) سورة الروم ٤٥.

(٣) سورة البقرة ١٩٨.

الأولى : تتضمن آية السياق الترغيب بفضل الله، ومنه بلحاظ آية البحث وجوه:

الأول : لجوء المسلمين للدعاء.

الثاني : توجه المسلمين بسؤال حاجات الدنيا من عند الله.

الثالث : سؤال المسلمين الله عز وجل لحاجات الآخرة، والأمن والسلامة فيها، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

الرابع : إقرار المسلمين بالعالم الآخر، وأن الله عز وجل خلق النار جزاء وعقاباً للكافرين.

الثانية : حينما يتوجه المسلمون إلى الله عز وجل بالدعاء والمسألة يأتيانهم في الدنيا حسنة، فإن آية البحث تخير عن الحسنات في الدنيا من وجوه:

الأول : الوقوف في عرفات، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى (فإذا أفضتم) بالدلالة التضمنية لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الإقامة والوقوف في المحل.

الثاني : ذكر المسلمين لله عز وجل في المشعر الحرام.

الثالث : شكر المسلمين لله عز وجل على نعمة الإيمان والهداية إلى أداء مناسك الحج.

الرابع : نجاة المسلمين من الضلالة والغفلة.

الثالثة : من خصائص العبادات في الشريعة الإسلامية أنها حسنة بذاتها ويطرح عنها الحسن والثواب في الآخرة، ليفوز المسلمون بالدعاء للآخرة وبالسعي الحثيث لها في مسالك التقوى، قال تعالى ﴿فَنَزَّلْنَا اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(٢).

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة الأنعام ١٢٥.

الرابعة : كما أنه لا جناح على المسلمين بإبتغاء ورجاء الفضل من الله كذلك لا جناح عليهم في سؤال الخير والمال والجاء والزوجة الصالحة في الدنيا.

الخامسة : لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتلو آية البحث في طوافه بالبيت الحرام، وعليه إجماع علماء الإسلام وسيرة المسلمين، وعن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار} (١).

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ومنهم من يقول وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا.

الثاني : ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار والله سريع الحساب.

الثالث : ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا.

الثانية : إتحاد موضوع الآيتين، فأية البحث وصف لأهل الإيمان وأدائهم الحج على نحو التمام وآية السياق إخبار عن عظيم ثوابهم.

الثالثة : بيان النفع العظيم من الدعاء وسؤال الله عز وجل حاجات الدنيا والآخرة.

(١) تفسير ابن كثير ٥٥٩/١.

(٢) سورة البقرة ٢٠٢.

الرابعة : يفيد الجمع بين الآيتين تأديب المسلمين وتعليمهم سنن الدعاء وإصلاحهم للدعاء للآخرة كدعائهم للدنيا.

الخامسة : تسليم المسلمين بأن الجنة حق والنار حق، فيسألون الله النجاة من عذاب النار والذي يدل بالدلالة الإلزامية والمفهوم على إرادة دخول الجنة، قال تعالى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١).

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾^(٢)، وفيه مسائل:

الأولى : بين الدعاء الذي ورد في آية البحث، وذكر الله الذي ابتدأت به آية السياق عموم وخصوص من وجه، فمادة الالتقاء أن كلاً منهما إنقطاع إلى الله، وفيه رجاء وقصد القربة، أما مادة الإفتراق فهي أن الدعاء سؤال وبيان للحاجة والرغائب، والذكر تسبيح وتهليل وتكبير.

الثانية : جاء ذكر الله بخصوص أيام الحج أما الدعاء لخير الدنيا والآخرة فهو مطلق وينسبط على أيام الدنيا كلها.

الثالثة : ذكر الله في أيام الحج وسيلة وعلة للفوز بالحسنة في الدنيا وكذا الدعاء لها، مما يدل على أن المسلمين يجتهدون بسؤال الخير والفضل من عند الله.

الرابعة : أختتمت آية السياق بوجوب العلم بأن المسلمين والناس يحشرون إلى الله، وجاءت آية البحث بما يدل على تسليم وتصديق المسلمين بالحشر والمعاد، من وجوه:

الأول : سؤال الحسنة والخير في الدنيا ليكون زاداً في الآخرة.

(١) سورة الشورى ٧.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

الثاني : تسليح المسلمين بالدعاء الذي يصاحبهم في الدنيا وعالم البرزخ وفي الآخرة.

الثالث : بيان آية البحث لسؤال الخير والفلاح والأمن في الآخرة، قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾^(١).

الخامسة : إتيان الحج وذكر الله في أيامه من مصاديق الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة التي ذكرتها آية البحث، قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَكَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣)، وفيه مسائل:

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية، أما آية السياق فوردت بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية : كل من الآيتين يتعلق موضوعها بفريق من الناس مع التباين بينهما، فتبين آية البحث توجه فريق من الناس للدعاء والتضرع إلى الله رجاء رحمته في النشاطين، أما آية السياق فأنها تبين حال المنافقين.

الثالثة : تضمنت آية السياق الأمر للمسلمين بتقوى الله وتتجلى في آية البحث مصاديق من التقوى بالدعاء والتوسل إلى الله عز وجل ليكون من إعجاز القرآن مجيء بأمر ومجيء آية مجاورة لها بالإمثال له، وهو من مصاديق الفضل الإلهي على المسلمين.

الرابعة : يسأل المسلمون الله عز وجل أيام الحج وغيرها بأن يقيهم عذاب النار، أما المنافق فإنه يسوق نفسه إلى النار بعداوته للإسلام.

(١) سورة النحل ٣٠.

(٢) سورة النحل ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٢٠٤.

اعجاز الآية

تبين الآية السبيل الأمثل لصيغ الدعاء والأمني، وتدل بالدلالة التضمنية بأن مقاليد الأمور بيد الله تعالى وإن حاجات الدنيا لا تنال إلا بسؤاله تعالى وفيها تأكيد على موضوعية السلاح وأهميته في معرفة منازل الأشخاص رجالاً ونساء.

تبين الآية الحاجة للدعاء لأمر الدنيا والآخرة، لتكون هذه الآية وسيلة سماوية لإرتقاء المسلمين في سلم المعارف الإلهية، وفيها إستحضار لعالم الآخرة والتوقي من أهوال الحساب فيها وليس من حصر المضامين القدسية لآية البحث . ويتجلى المائز بين المؤمنين وغيرهم بخصائص الدعاء، فالمؤمن يدعو الله عز وجل بالسلامة في الدين والدنيا، وبالنجاة يوم القيامة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَنَسْأَلُ أَتَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

ومن الإعجاز أن كلاً من هذه الآية والآية السابقة ذكرت صنفاً من الناس بخصوص الدعاء، فذكرت هذه الآية أهل الإيمان الذين يدعون لأمر الدين والدنيا، ويقرون بعالم الغيب والحياة بعد الموت، وذكرت الآية السابقة الذين يسألون الله لخصوص حاجات الدنيا.

ولم يرد ذكر الذين لا يسألون الله لا للدنيا ولا للآخرة، مما يفيد ترجيح إرادة وفد الحاج في الآيتين وتذكير الآية السابقة بما كان عليه أهل الجاهلية من صيغ الدعاء وإنقطاعهم لأمر الدنيا، وجاء لفظ (الناس) في الآية السابقة لتأكيد كتابة الحج على الناس جميعاً سواء الذي يطلب للدنيا أو يسأل لها وللآخرة.

والآية الكريمة مدرسة في قوانين الدعاء وبيان أفضلية الجامع المانع في

الحاجات، وما يدل على سنخية الإيمان والإقرار بأن مقاليد الأمور كلها بيد الله (وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً قد صار مثل الفرخ المنتوف فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل كنت تدعوا له بشيء أو تسأله شيئاً؟

قال : كنت أقول اللهم (ما كنت معاتبي) به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال: سبحان الله إذا لا تستطيعه ولا تطيقه فهلاً قلت: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار^(١).

وتبين الآية آداب الدعاء بأن يبدأ بتعظيم مقام الربوبية وإظهار إخلاص العبودية لله عز وجل وآية البحث من مصاديق ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيُوتًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢)، من جهات:

الأولى : توثيق أحوال الناس، وذكر ضروب الدعاء التي يدعون بها.

الثاني : تأكيد حقيقة وهي أن الله عز وجل يسمع الدعاء.

الثالثة : هداية المسلمين لمناهج الحق، وضرورة السؤال للآخرة والنجاة فيها.

الرابعة : بعث المسلمين على الإجهاد في الدعاء.

الخامسة : أيام وموسم ومواطن الحج وعاء مباركة للدعاء مطلقاً، وما فيه النفع الخاص والعام، وتستقرأ مسائل من قول (ربنا آتنا) منها:

الأولى : دعاء المسلم لنفسه.

الثانية : دعاء المسلم لنبيه والديه.

الثالثة : سؤال المسلم للأمة.

الرابعة : تضره وسؤال الأمة لذاتها.

(١) الكشف والبيان ٣٩٦/١.

(٢) سورة النحل ٨٩.

الخامسة : دعاء الأمة للفرد منها.

السادسة : سؤال الجماعة للأمة مطلقاً.

ويمكن تسمية الآية هذه الآية الكريمة آية (ومنهم من يقول) وورد هذا اللفظ وبإضافة حرف العطف (والواو) في القرآن مرتين مع التباين في الجهة التي تخبر عنها الآية.

الآية سلاح

هذه الآية فضل كريم واحسان محض لما فيها من تأديب للمسلمين وارشادهم للدعاء وللكيفية الصحيحة النافعة منه وعدم تضييع هذه النعمة.

الدعاء سلاح الأنبياء وهو صلة بين العبد والخالق، وباب مفتوح ومقدمة لكسب الغنائم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) فهو سبحانه الذي يهب العطايا لمن يدعوه . وإذا كانت الدنيا دار عمل بلا حساب، فهل الدعاء من العمل في الدنيا، الجواب نعم، والذي يدعو الله عز وجل للنجاة في الآخرة إنما يدخر ليوم الحساب ومع سؤال الحسنة في الآخرة فان الآية تضمنت سؤال الوقاية من عذاب النار . ليكون بينهما عموم وخصوص مطلق، فالحسنة أعم في موضوعها وتشمل سؤال الخلود في النعيم .

وجاءت الآية بصيغة المضارع (يقول) لإفادة الزمن الحاضر والمستقبل والدلالة على أن الآية حث لأجيال المسلمين ووفد الحاج إلى يوم القيامة للدعاء لأمر الدين والدنيا، وتدل الآية بالدلالة الإلزامية على دعوة

وفد الحاج للتقيد بأحكامه وأداء مناسكه واجتناب النواهي مدته كما في قوله تعالى ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾^(١).

وتحتمل الحسنة في الدنيا وجوها:

الأول : إنها مطلوبة بذاتها.

الثاني : المراد إتخاذها بلغة إلى الآخرة.

الثالث : إرادة الإنتفاع منها في الدنيا وفي الآخرة.

الصحيح هو الثالث، فالتوفيق للعبادة مثلاً حسن ذاتاً في الدنيا وهي خير صاحب في الآخرة، ولتعم النعمة التي تكون مقدمة للسعادة الأبدية في الآخرة.

وفي الآية حرز من إدبار الدنيا وقلة الرزق نعم ليس من ملازمة بين الخير وكثرة النعم وبين الشر وإدبار النعم وقلة المعاش، ولكن الآية جاءت مطلقة لصيرورة المؤمن في محبوبة من العيش وخير متصل وسلامة من الشر.

لقد إتخذ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية سلاحاً وصاحباً (وعن أنس قال: أكثر ما سمعت النبي يدعو اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)^(٢) وفيه دعوة وإرشاد للمسلمين للدعاء بالتنزيل والمأثور وأن فيه كفاية وغنى.

والآية مناجاة وحرز، إذ تبدأ بقوله (ربنا) وفيه فزع وتسليم للباري ورجاء رحمته، وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة، فلقي العدو فسمعتة يقول: يا

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) جامع الأحاديث ٣٣/٤.

{مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين} قال: فلقد رأيت الرجال تصرع، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها^(١).

ولم تذكر الآية كيفية التصرف بالحسنة والنعمة إذا جاءت في الدنيا والتوقي من إتخاذها بالشر، والجواب من وجوه:

الأول : يدخل التصرف بالنعمة في مطلق الحسنة التي وردت في الآية ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، وهو من أسرار صيغة التكرير والإجمال في الآية.

الثاني : صدور الدعاء من منازل الإيمان أي تحل الحسنة في مقامات الإيمان.

الثالث : الحسنة والرزق الكريم تثبيت للإيمان في النفوس.

الرابع : من معاني الإنكار في الآية مصاحبة الحسن للنعمة في وجودها عند المؤمن بأن تكون خيراً محضاً ابتداءً وإستدامة.

مفهوم الآية

تظهر هذه الآيات تقسيم الناس على اساس الإيمان بالمعاد واليوم الآخر بلحاظ أنه احد اصول الدين كما تظهر اهمية الدعاء كوسيلة مباركة للنجاة يوم القيامة مع ان الملاك يومئذ هو عمل الإنسان في الدنيا ورجحان كفة الصالحات او اقترافه السيئات، فجاء الدعاء ليكون عملاً صالحاً وفعلاً مباركاً وتنتهى الآية عن ترك الدعاء والدعاء للدنيا فقط وفيها تأديب في باب الدعاء وهي من اللطف الإلهي لتقريب العبد الى الطاعة وابعاده عن المعصية ويرد الدعاء بمعنى الإستغاثة وهو نوع عبادة لذلك جاء المدد الإلهي بتوجيهه وتهذيب مضامينه والآية وان وردت

على نحو الجملة الخيرية الا انها تتضمن معنى الأمر والتعليم والإرشاد وهذا من جامعة القرآن السماوية وما فيها من الهدى والرشاد.

ان الله عز وجل يريد من وفد الحاج والناس جميعاً التوجه اليه وسؤاله والإلحاح في الدعاء، والرغبة فيما عنده والإنقطاع والإلتجاء اليه وبلغة الجمع والإتحاد.

وتظهر الآية اهلية المسلمين لخلافة الأرض وانهم ورثة الأنبياء لأن الدعاء سلاح الأنبياء، وتحثهم على الدعاء في ساعة الرخاء والشدة ولأمور الدين والدنيا، كما تبين الآية انه تعالى هو الملاذ والفرع والملاجأ، أي ان الآية تهدي لأكثر الأسلحة تأثيراً ونفعاً الا وهو الدعاء، وهو مناسبة لإظهار الخضوع والمسكنة لله تعالى، ومن مفاهيم الآية انها تثبت للإيمان في القلوب وقرار بالربوبية.

وفي الحديث ان الدعاء مخ العبادة فاراد الله عز وجل بهذه الآية بيان مضامين الذكر في الحج وعند انقضاء المناسك، وقد تقدم القول منا ان في كل آية دعاء ولكن هذه الآيات هي آيات الدعاء والمسألة موضوعاً، وتظهر الآية حب الله عز وجل للمسلمين ولعباده جميعاً بحثهم على الدعاء الأفضل مع ضمانه الإستجابة ، وتحذر في مفهومها من التفريط بما فيه من النعم والمنافع القريبة والبعيدة.

ان اضافة المناسك وانقضائها الى العموم الإستغراقي ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ نهى وتحذير من رمي بعض المسلمين للبعض الآخر بعدم قبول حجهم ودعوة لإختتام الحج بمضامين الوحدة بين المسلمين والعودة الى الأمصار بسيماء التقوى والصلاح.

إنفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الفضل والهيئات من عند الله سبحانه، وتفضل وهدى المسلمين لكيفية الإنتفاع الأمثل من الفضل الإلهي بسلاح الدعاء.

وتبين الآية حقيقة وهي أن مقاليد الأمور بيد الله عز وجل، وهو الذي يهب وينزل البركة ويجعل النماء في المال والولد ، وتكشف الآية عن الأعم مما مكتوب للإنسان، فيزيد الله من فضله على الإنسان بالدعاء والمسألة، والآية سياحة في عالم الملكوت ، ودعوة للمسلمين بالتوجه إلى رحاب الدعاء وما فيه من الحقائق الناضرة التي تملأ النفس بهجة وأملًا وتجعل الإنسان يستقرأ إستجابة الدعاء والفضل الإلهي في ذاته وماله وما عنده من النعم فيشكر الله عز وجل فيزيد عليه من فضله واحسانه .

وقد تأتي النعمة الواحدة فتكون مصداقاً للحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة كما في سؤال المغفرة فان منافعها أعم من أن تحصى في الدنيا وفي الآخرة، وقد تأتي المغفرة بذات السؤال الوارد في مضامين آية البحث أي يسأل العبد الله عز وجل من الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة فينعم عليه بالمغفرة.

والآية مناسبة لشكر الله على كل نعمة لأن الدعاء وسيلة لإستحضار النعم التي يعيش في كنفها الإنسان ويتمتع بها مثل العافية والأمن والرزق قليلة أو كثيرة، ولما رأى سليمان عليه السلام عرش بلقيس ملكة سبأ حاضراً عنده بطرفة عين قال ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيُلَوِّتِ أَشْكَرَ أَمْ أَكْثَرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

وفي الآية تطلع ورجاء إلى رحمة الله ولانتظار الرزق الكريم منه سواء سؤال معين مخصوص أو تفويض الأمر إلى الله، وفي خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...﴾^(١).

فقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر أمر الله بتحويل القبلة إلى البيت الحرام وهو حسنة في الدنيا وفي الآخرة لعموم أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، مما يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم من أهل هذه الآية ولكنه سأل لأمته.

وهل يختص سؤال الحسنة بالدنيا وفق نوااميسها والمتعارف فيها أم يشمل الدعاء لما هو خارق للعادة، الجواب هو الثاني فالله سبحانه هو الذي أمر بالدعاء وضمن الإجابة، نعم الإجابة أعم من موضوع السؤال فقد تأتي من غيره بما يكون فيه ذات فضل المسألة أو أكثر منها. وقيل أن الأمور الخارقة للعادة خاصة بالأنبياء لأنها لو ظهرت في غير زمان النبي لبطلت دلالاته على النبوة، وذهب إلى هذا القول المعتزلة، والجواب من وجوه:

الأول : بين خوارق العادات والمعجزة عموم وخصوص مطلق، فالمعجزة أخص وهي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة.

الثاني : من عظيم قدرة الله وسلطانه أنه يرزق المؤمن الأمر الخارق للعادة مع التسالم بأنه ليس من دلائل النبوة.

الثالث : آية البحث تلقين وتعليم للمسلمين وهي من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن تتوجه أمته للدعاء على سؤال

التكثير ﴿إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وفيه تفويض لله عز وجل بتعيين ماهية وجنس الحسننة والنعمة، وإن كان هو.

الرابع : إنقطعت النبوة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
الخامس : من خصائص النبوة تعاقب وتوالي المعجزات، أما يأتي لغيرهم فهو الكرامات والفضل الإلهي، وهي لا ترق إلى المعجزة.
السادس : من يرزق الله فضله يظهر الخضوع والخشوع ولا يدعي ما ليس له، وقد إنتقم الله من قارون حينما قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(١).

وقيل أن الأنبياء مأمورون بإظهار المعجزة، أما الأولياء فهم مأمورون بإخفائها، ولادليل على هذا التفصيل وأن فسر بأن النبي يقطع بالمعجزة وأنها فرع النبوة، أما الولي فلا يقطع به، إنما هناك تباين بين معجزة النبي وغيره من الأولياء والصالحين.

السابع : أي كرامة أو نعمة تأتي للصحابة وأهل البيت والصالحين وعموم المسلمين إنما هي من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشاهد على صدق نبوته، لذا فإن آية البحث تحت المسلمين على النهل من بحار الفيض الإلهي والتنعم برشحات رسالة خاتم الأنبياء، وهو الذي تدل عليه الآية التالية؟

الآية لطف

إبتدأت الآية بقوله تعالى (ومنهم) أي من الناس لبيان حقيقة وهي أن المؤمنين شطر من الناس، وأن الدعاء والتوجه بالدعاء إلى الله بالمسألة لم ينقطع إلى يوم القيامة لأصالة الإطلاق في لفظ (ومنهم) والتقدير هو: ومن الناس في كل زمان من يقول

ومن دلائل اللطف في الآية الكريمة هداية المسلمين إلى سبل وكيفية وما هية الدعاء بصيغة الجملة الخبرية، فلم تقل الآية قولوا : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾^(١)

بل جاءت بصيغة الجملة الخبرية، وفيه مسائل:

الأولى : بيان حال الناس والتباين في المسألة والحاجات التي يسألون الله عز وجل قضاءها .

الثانية : الإشارة إلى الأمم السابقة وأن منهم من يسأل الله للدنيا ومنهم للآخرة، قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَلْبِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

الثالثة : ترغيب المسلمين بالدعاء، وإدراك أنه غنيمة في ذاته، ومقدمة للغنيمة.

الرابعة : التذكير بيوم الجزاء وحاجة الإنسان فيه للعفو والمغفرة إذ جعل الله الآخرة حساباً بلا عمل فيدعو المسلم الله وهو في الدنيا ليكون دعاؤه واقية وحرزاً له في الآخرة من النار وشدة حرها .

تضمنت الآية السابقة الإخبار عن إنقضاء مناسك الحج والأمر بذكر الله عز وجل والإكثار منه، ثم أختتمت ببيان حال من الناس لا يسألون الله إلا لخصوص الدنيا مع حجهم أسباب الرحمة عن أنفسهم في الآخرة.

(١) سورة البقرة ٢٠١

(٢) سورة آل عمران ١٣٧

ومن إعجاز القرآن ونسيم اللطف الذي يتضمنها نظم الآيات مجيء الحسن والتمام بعد النقص والإخبار عن الغواية والضلالة فتعقبت هذا البيان إشراقة إيمانية بالإخبار عن حال المؤمنين الذين يسألون الناس لأُمور الدنيا والآخرة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، بتقريب وهو دلالة هذا الدعاء على تسليم أمة وفريق من أهل الأرض بالبعث والنشور وعالم الحساب والجزاء.

وإذا أخبرت الآية السابقة على أن الذي يدعو لخصوص الدنيا ليس له حظ في الآخرة، فإن آية البحث تدل بالدلالة التضمنية على أن الذي يدعو للدنيا والآخرة تتغشاها رحمة الله في الآخرة، ويكون دعاؤه ثروة وذخيرة.

الصلة بين أول وآخر الآية

ذكرت الآية دعاء الصالحين وكيفيته بأن يبدأ بالإقرار بمقام الربوبية لله عز وجل والتسليم بأن الخير كله بيده وأنه تعالى سميع بصير ترى لماذا قدمت الآية حاجات الدنيا على الآخرة مع أن حاجات الآخرة هي الأكثر والأهم والأولى بالدعاء، الجواب الدنيا طريق ومزرعة للآخرة فيسأل العبد الله عز وجل الحسنة في الدنيا لتكون عوناً له في عباداته وتعظيمه لشعائر الله كالزوجة الصالحة والمال الكثير الذي يخرج منه الزكاة، والعافية والسلامة من الأدران فيؤدي الصلاة صلاة المختار، ويقوم بصيام شهر رمضان مادام مقيماً.

ومن الحسنة في الدنيا الأمن من الإفتتان ومن أسباب الغواية والغفلة ومقدمات الهلكة ، فيمد الله في عمره ليوظفه في طاعة الله وسبل مرضاته فتكون الحسنة في الدنيا للنفع في ذات الدنيا وللنفع الأعظم في

الآخرة، وهل كل من آتاه الله حسنة في الدنيا يؤتته حسنة في الآخرة والجواب لا دليل عليه ، لذا جاءت آية البحث بتأكيد الجمع والتفريق وسؤال الحسنة في الدنيا وفي الآخرة أيضاً . وفيه نكتة وهي إرادة حسن العاقبة وعدم مغادرة الدنيا إلا بإنتهاج التقوى، قال تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) ومع أن النجاة والأمن من النار من الحسنة في الآخرة فإن الآية الكريمة جاءت بذكر الوقاية والنجاة من النار على نحو التعيين، وفيه مسائل :

الأولى : إستحباب التعدد والإكثار من المسألة .

الثانية : بيان قانون في الإرادة التكوينية وهو دعاء المؤمن بالأمن والسلامة من النار .

وفيه إقرار بأن النار حق واللجنة حق .

الثالثة : إرادة الخير مطلقاً في الآخرة باكتساب ما هو حسن من الثواب والأمن مما هو سوء من العذاب والعقاب الأليم .

الرابعة : إمتناع النار عن عذاب الذي توجه بالدعاء وهو في الدنيا سائلاً الله عز وجل النجاة من النار .

وإفراد دعاء المؤمنين بآية مستقلة شاهد على موضوعية وبعث للمسلمين للدعاء لأمر الدين والدنيا والإستعداد لعالم الحساب بالدعاء والجوانح والأفعال .

وجاءت الآية بثلاثة أفراد من الدعاء :

الأول : الدعاء للدنيا بالحسنى والأحسن من الخيرات والفضل الإلهي .

الثاني : الفوز في الآخرة بالحسنى وتتجلى بوجوه كثيرة ومتجددة في يوم ﴿كَأَنَّ سَنَةً مِّنَّا تَعْدُونَ﴾ ^(١) ومنها :

الأول : الأمن من الفزع والخوف يوم القيامة ، قال تعالى في الثناء على المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَ الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ ^(٢) وتبين الآية أعلاه أن فريقاً من الناس تسبق لهم الحسنى والوعد والوعد من الله سبحانه وجاءت آية البحث لسؤال الحسنة لنيل الإستجابة .

الثاني : الشرب من الحوض .

الثالث : العبور على الصراط بأمن .

الرابع : النجاة في مواطن يوم القيامة .

الخامس : مغفرة الذنوب .

السادس : أخذ كتاب الصالحات باليمين .

السابع : الأمن من الحزن لما فات والخوف مما يأتي .

قال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الحج ٤٧

(٢) سورة الأنبياء ١٠٣

(٣) سورة البقرة ١١٢

الثالث : الوقاية والسلامة من النار يوم القيامة ، وفيه دلالة على لزوم الإحتراز من دخول النار، ويتجلى هذا الإحتراز بأمور :

الأول : عمل الصالحات .

الثاني : إجتنب السيئات .

الثالث : الدعاء والتضرع إلى الله بالنجاة من لبيب النار .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : الإخبار عن قيام أمة من الناس بالسؤال والدعاء إلى الله في أمور الدنيا والآخرة .

الثانية : وجوب الإقرار بالمعاد وأن الدار الآخرة حق وصدق .

الثالثة : زجر الناس عن فعل المعاصي والسيئات بالخشية من النار، وهل يمكن أن يكون العبد يدعو الله بالوقاية والبرزخ من النار وهو يفعل السيئات ، الجواب نعم ولكن هذا الدعاء زاجر ومانع من فعل السيئات وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

الرابعة : حث المسلمين على جذب الناس لعالم الدعاء والإكتناز من منافعه وبركاته وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢)

(١) سورة العنكبوت ٤٥

(٢) سورة آل عمران ١٠٤

الخامسة : عطف هذه الآية على الآية السابقة بحرف العطف للدلالة على إتحاد موضوع الآيتين مع التباين في صيغ الدعاء .

السادسة : بعث المسلمين للعموم في الدعاء وعدم الحصر فيه، وقد جاء الإطلاق في الندب إلى الدعاء بقوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

وفي الآية مسائل :

الأولى : بعث المسلمين للتفقه في الدين والإرتقاء في سلم المعارف الإلهية بالإحاطة الإجمالية بقوانين الجزاء .

الثانية : تقسيم الجزاء إلى قسمين :

الأول : الدنيوي العاجل .

الثاني : الآخروي الآجل .

الثالثة : لزوم الإقرار بأن التسليم والإيمان بعالم الآخرة وأنها دار حساب بلا عمل لا يعني خلو الدنيا من الحساب الإلهي إذ تقول آية البحث ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

الرابعة : بعث الإنسان للتفكر في فعله ومقامه وهل هو من :

الأول : الذين يسألون الله للدنيا .

الثاني : الذين يتوجهون بالدعاء إلى الله عز وجل لأمر الدنيا والآخرة والسلامة من عذاب النار .

الثالث : الذين لا يلتفتون إلى الدعاء وموضوعيته في حياة ومقام الإنسان .

الرابع : رجوع عمل الإنسان في الدنيا له حيث يشاء الله . فهو سبحانه قادر أن يمحو الفعل السيئ ويحو أثره على صاحبه، وأن يضاعف الفعل الصالح وثوابه .

الخامس : بيان حضور مصاديق الثواب والعقاب في حياة الناس، وفيه بعث للخوف في نفس الكافر وبعث السكينة في نفس المسلم . ليكون واسطة في الدعوة إلى الإسلام .

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾

إبتدأت الآية بالنداء والتوسل لله عز وجل من مقامات الخضوع والخشوع، وجاء الدعاء بلفظ (ربنا) والرب من أمهات الأسماء الحسنى، والدعاء به شاهد على التسليم بأن الربوبية المطلقة لله عز وجل وجاء بالإضافة إلى صيغة الجمع (ربنا) لإفادة الإقرار بأن الله عز وجل رب الإنس والجن والخلائق كلها .

الأولى : للدعاء معنيان الأول لغوي يقال دعاه دعاءً ودعوى، وهو سؤال الغير والاستعانة به، اذا كان اعلى في الرتبة.

اما في الإصطلاح فانه الرغبة الى الله عز وجل والتوجه اليه بالمسألة لقضاء الحوائج.

الثانية : الدعاء سلاح الأنبياء والخيرة المتيسرة في كل آن والإدخار الكريم لمواجهة المشاق والصعاب.

الثالثة : انه الحرز الذي يحتفظ به الإنسان لساعة ولوجه عالم

الرابعة : الظاهر ان التقسيم في موضوع الدعاء مصداق خارجي للتقسيم الإستقرائي العقائدي للناس وفق معايير الإيمان والكفر.

الخامسة : تدل الآية بالدلالة التضمنية والأولية على عدم حصر الدعاء بأحوال الآخرة لأن الله واسع كريم، ولأن الدنيا مزرعة الآخرة (وفي الحديث القدسي: يا موسى سلني كل ما تحتاج حتى علف شاتك وملح عجينة^(١)).

السادسة : سؤال حوائج الدنيا سعي كريم الى حسن المقام في الآخرة لأنه شاهد على الإقرار والإعتراف بالربوبية.

السابعة : ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: ان الدعاء هو العبادة^(٢)، وفي الدعاء ثناء على الله وتمجيد له وهو ضرب من الحمد والشكر والاقرار.

الثامنة : الدعاء لحاجات الدنيا الصغيرة منها والكبيرة تقرب وتذل الى الله عز وجل.

التاسعة : التبعية في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يصدق على المتحد والمتعدد فيشمل الواحد والجمع، بينما جاء الدعاء ﴿ إِنَّا ﴾ بصيغة الجمع مما يعني استحباب الدعاء الجماعي والتأمين على الدعاء، وكذا دعاء الشخص للجماعة.

العاشرة : يروي عن انس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل على رجل يعودده وقد انهكه المرض فقال: ما كنت تدعو الله به قبل هذا؟

(١) البحار ٣٠٣/٩٠.

(٢) مجمع البيان ٤٠٠/٨.

قال كنت اقول: ما كنت تعاقبني به في الآخرة فعجل به في الدنيا، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: سبحان الله انك لا تطيق ذلك الا قلت ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، قال: فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشفي^(١).

الحادية عشرة : قال احد كبار المفسرين في تفسير الآية: (فتثبت ان الإقتصار في الدعاء على طلب الآخرة غير جائز)، ولكن الآية اعم وجاءت على نحو الأولوية والتوسعة في الدعاء واستحضار ذكره تعالى في مختلف الحاجات، ومسائل الدنيا قد تترشح من سؤال حاجات الآخرة، وكما تكون قراءة القرآن والإشتغال بالذكر سبباً لقضاء حوائج الدنيا وان لم يسألها العبد، وقد يكون سؤال حاجات الآخرة سبباً في قضاء حوائج الدنيا وان لم يسألها العبد، فمن الناس من لا يسأل حوائج الدنيا ومن دون عناد واستكبار بل لعلمه بفضلته تعالى وانه سبحانه يرحم الذي يسأل حوائج الآخرة ويكفيه حوائج الدنيا، انه اعتماد فطري لقاعدة تقديم الأهم على المهم وللإطمئنان والسكينة لعظيم رحمته سبحانه.

الحادية عشرة : سؤال حوائج الدنيا والآخرة يأتي في سورة الفاتحة ونصفها دعاء، ويأتي في آيات القرآن الأخرى فيؤدي المسلم الصلاة فيحتسبها الله عز وجل امثالاً وعملاً بهذه الآية الكريمة ويصدق على العبد انه سأل الله عز وجل ان يرزقه خير الدنيا والآخرة بفضل منه تعالى، وفي هذه الآية وظائف زائدة فقد جاءت للحث على ذكر الحاجات على نحو التفصيل والإجمال.

الثانية عشرة : الآية من جوامع الكلم وفي اختصارها وسعة معانيها اعجاز قرآني.

الثالثة عشرة : لفظ (الحسنة) الوارد في الآية عنوان جامع لا تنحصر مصاديقه في باب دون آخر، وهو من المشترك اللفظي والمعنوي وبين افراده ومصاديقه في الدنيا وتلك التي في الآخرة عموم وخصوص من وجه وفي شطر منها عموم وخصوص مطلق.

الرابعة عشرة : من الحسنة في الدنيا:

الأول : الصحة.

الثاني : الأمن.

الثالث: الرزق الكريم.

الرابع : اداء الفرائض.

الخامس : الإسلام.

السادس : الإيمان.

السابع : الولد الصالح.

الثامن : كفاية شر الأعداء.

التاسع : التفقه في الدين.

العاشر : الثبات على الإسلام.

الحادي عشر : السلامة من الآفات والفتن.

الثاني عشر : قضاء الحوائج بيسر وعافية.

الثالث عشر : قراءة القرآن والتدبر في آياته.

الرابع عشر : استثمار الدنيا كطريق الى الآخرة.

الخامس عشرة : الأخلاق الحميدة والذكر الجميل.

١٢٠ _____ معالم الإيمان/ج ٣٦

السادس عشرة : استقرار الإيمان في النفس وعدم كونه مستودعاً.

السابع عشرة : صبغة الإحسان في العمل ليكون السائل من المحسنين.

الثامن عشرة : التوفيق لأداء فريضة الحج وإتمام المناسك.

التاسع عشرة : الإهتمام الى ذكر الله عز وجل على نحو الدوام والإتصال.

العشرون : المعاني السلبية للحسنة أي بسلب ما هو ضدها لأن نفي الطمع والحسد والكبر ونحوها يجعل الإنسان مستبصراً في الأمور.

الحادي والعشرون : نيل مراتب الحسن ونبد القبيح وفق احكام الشريعة وموازين العقل.

الخامسة عشرة : ورد لفظ الحسنة تخفيفاً وفضلاً من الله تعالى وعلى نحو الإجمال الإنحلالي فيسأل العبد على نحو الإجمال، فيأتيه الرزق الكريم دفعياً وتدرجياً وفي ابواب لم يلتفت العبد لها، فقد لا يسأل الصحة الا عند المرض، ولكن الآية وما فيها من السؤال وقاية وحرز من اصل المرض وتساهم في اجتناب الوقوع فيه كما انها تنفع الإنسان لو اصاب بالمرض اذا ما ابتلاه الله عز وجل.

السادسة عشرة : الإجمال في الآية لا يمنع من التفصيل بل انه يحث على التفصيل في سؤال الحاجات وتؤكد السنة الشريفة التي هي بيان وتفسير للقرآن.

السابعة عشرة : ان قلت لقد جاء قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي... ﴾ (١) بصيغة الإطلاق الشمولي فلماذا لغة الدم هذه، قلت ان صيغة (عبادي) قيد

يفيد السؤال عن ايمان وذل واقرار وعبودية، الأمر الذي يترشح عنه قهراً وانطباقاً الإيمان باليوم الآخر كواحد من اصول الدين، كما ان هؤلاء لم يسألوا الا متاع الدنيا، وحجبوا عن انفسهم سؤال الأهم.

الثامنة عشرة : الذين ذمهم الله عز وجل في الآية السابقة لم يسألوا الحسنة في الدنيا لذاتها، بل سألوا العطاء في الدنيا كوسيلة الى الآخرة، وهذه الآية تظهر الفرق بين الإطلاق والتقييد، فهؤلاء يسألون حاجة الفرج والبطن ومن غير التفات الى الضوابط الشرعية اما التقييد في هذه الآية بـ(الحسنة) كصفة للعطاء والرزق فهي دليل على الإيمان واللجوء الى الله تعالى والإقرار بانه واسع كريم، وبذا يظهر الفرق واسعاً بين الذين ذمهم الله عز وجل في سؤالهم لحاجات الدنيا من غير تبصر بحقيقة الدنيا وزيف زخرفها وبين الذين يسألونها بلحاظ ان الدنيا مزرعة الآخرة.

التاسعة عشرة : يظهر موضوع الدعاء نوع تفقه في الدنيا، لأن الحسنة في الدنيا مادة وسبب لتهديب النفس واصلاح الذات وتترشح عنها منافع غيرية.

العشرون : يمكن تقسيم السؤال تقسيماً استقرائياً الى وجوه :

الأول : السؤال للعطاء في الدنيا وحاجاتها.

الثاني : السؤال لمصالح الدنيا.

الثالث : السؤال للحسنة في الآخرة.

الرابع : السؤال للحسنة في الدنيا والآخرة

وذكرت الآية الكريمة الرابع أعلاه ، اما الآية السابقة فقد ذكرت الأول منها.

الحادية والعشرون : لو كان الإنسان يسأل الحسنة في الدنيا فهل تشملها موارد الذم في الآية السابقة ، الأقوى لا ، لأن الحسنة في الدنيا مدخل كريم الى الآخرة بالهداية والرشاد، ولكن سؤال الدنيا والآخرة هو الأتم والأكمل.

الثانية والعشرون : سؤال الحسنة في الدنيا يترشح على عالم الآخرة وسؤال الحسنة في الآخرة تظهر منافعه في الدنيا.

الثالثة والعشرون : الظاهر ان لفظ ﴿ حَسَنَةً ﴾ له معنيان:

الأول: الحسنة الواحدة والإتحاد، لأنها نكرة في محل الإثبات فتحمل على المتحد، كما في قوله تعالى ﴿ إِن تَسْأَلُوا حَسَنَةً سَوْهُمْ^(١) ﴾ ﴿ إِن تَصِيبْ حَسَنَةً سَوْهُمْ^(٢) ﴾ ﴿ وَإِن تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا^(٣) ﴾.

الثاني: اصطلاح قرآني يحمل معنى اعم كما في قوله تعالى ﴿ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً^(٤) ﴾ وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ وهو المقصود في الآية لأصالة الإطلاق ولقرينة (في الدنيا) وهو وعاء زمني واسع.

الرابعة والعشرون : تفيد واو الجماعة في الدعاء الشخصي والجماعي ويتعلق بمصالح النفس والآخرين ويشمل الدعاء للذرية والأبناء فمن بركات الدعاء انه افاضة متقدمة تسبق المولود وتكون

(١) سورة آل عمران ١٢٠.

(٢) سورة التوبة ٥٠.

(٣) سورة النساء ٤٠.

(٤) سورة النحل ١٢٢.

حاضرة ايام دعائه وان لم يكن له عمل في ذلك الدعاء.

تفسير قوله تعالى ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ فيه وجوه:

الأولى : ليستوعب الدعاء جميع آتات وحياة الإنسان في الدارين.

الثانية : فيه اقرار بالنشور والحساب.

الثالثة : عدم الإنشغال بالدنيا دون الآخرة.

الرابعة : عالم البرزخ من الآخرة وتشمله اطلاقات الآية، والحسنة فيه بالنجاة من حساب منكر ونكير الابتدائي ومن ضغطة القبر.

الخامسة : استحضار الآخرة في المسألة ينسبط على سلوك الإنسان وجوارحه.

السادسة : سؤال الحسنة في الآخرة يجعل للسائل نصيباً في الآخرة وينفصل عن اولئك الذين ليس لهم خلاق في الآخرة.

السابعة : الحسنة في الآخرة لها مصاديق منها:

الأول : الخلود في الجنة.

الثاني : النجاة من عذاب البرزخ، قال تعالى في ذم ووعيد آل فرعون وحالهم في عالم البرزخ والقبر ﴿التَّارِيعُضُونَ عَلَيْهَا غَدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(١).

الثالث : علو المنزلة في الجنة.

الرابع : المغفرة والعفو ومحو الذنوب.

الخامس : رفع الحساب او تخفيفه.

السادس : الشرب من الحوض ، وعن رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم "إني فرطكم على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يا رب مني ومن أمتي فيقال لي هل شعرت بما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم" (١).

السابع : العبور على الصراط يسر.

الثامن : مضاعفة الحسنات وزيادة ثواب الصالحات.

التاسع : عدم الظمأ من العطش يوم القيامة.

العاشر : عدم الخوف من الحزن يوم الفزع الأكبر.

الثامنة : سؤال الحسنة في الآخرة يجعل الإنسان حذراً من الموبقات
واسباب الخسارة في الآخرة.

التاسعة : الشفاعة بقسميها، الأدنى والأعلى أي ان تدركه شفاعة
الشافعين وان يؤذن له بالشفاعة لغيره.

العاشرة : الدعاء للآخرة يعني استحضار أهوالها ومواطن الحساب
فيها.

الحادية عشرة : الآية بيان للأفراد الزمانية الطولية والأحوال التي يمر
بها الإنسان ويحتاج معها الى رحمة الله، سواء تلك التي في الدنيا او
التي في الآخرة.

وبين الإنسان والمسلم عموم وخصوص مطلق فكل مسلم هو انسان وليس العكس، ومدح المسلمين بصفة الإنسانية حجة على غيرهم لما يدل عليه بالدلالة الإلزامية من كفاية صفة الإنسانية في الدعاء العقائدي الشمولي.

ولو كان الكافر يدعو بذات الدعاء فهل يشمل الممدح الوارد في ثنايا هذه الآية الجواب لا لحجب دعاء الكافر ولجوده واعراضه عن اصول الدين وفروعه ولعمومات قوله تعالى ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١) هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الدعاء اعم من الإستجابة والقدر المتيقن من قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ هو ارادة المسلمين، وتدل الآية على اجتماع الرجاء والخوف في قلب المسلم.

في المجمع روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "من أوتي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على امر دنياه واخراه فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة ووقى عذاب النار"، وعن علي عليه السلام: "هي المرأة الصالحة في الدنيا، وفي الآخرة الجنة".

وعن عبد الأعلى قال: "سئلت الصادق عليه السلام عن قول الله ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ قال: رضوان الله والجنة في الآخرة، والسعة في المعيشة وحسن الخلق في الدنيا، وعنه عليه السلام قال رضوان الله عليه والتوسعة في المعيشة وحسن الصحبة، وفي الآخرة الجنة.

ولم تذكر الآية قوماً يسألون الله لخصوص الآخرة وحدها بل جاءت هذه الآية والآية السابقة بذكر صنفين من الدعاء وهما:

الأول : الدعاء للدنيا وحدها، كما في الآية السابقة.

الثاني : السؤال والدعاء للدنيا والآخرة، كما في هذه الآية.

وفيه شاهد على موضوعية السعادة والغبطة في الحياة الدنيا، والتتعم

بما فيها من الخيرات وسؤال إقبالها وزهرتها، والتوقي من إدبارها وضنك العيش.

إن السؤال للآخرة بذاته تفقه في أحواب الدنيا وبرزخ دون التعلق بزخرفها وطريق لجعلها تأتي منقادة، وفيه رضا بالقليل وتنمية للملكة القناعة، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غَنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ"^(١).

ويتجلى إعجاز آية البحث بالآية التالية التي تبدأ باسم إشارة يدل على أهل هذه الآية وحسن سمتهم وتوظيفهم العقل للنفع الأعم في النشاطين، وإقرارهم بالمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

تفسير قوله تعالى ﴿وَفَنَّا عَذَابَ النَّارِ﴾

ومن إعجاز القرآن صيرورة الدعاء مقدمة للفعل الصالح وبرزخاً دون إرتكاب السيئات وصيرورة الفعل مطلقاً صالحاً كان سيئاً مناسبة للدعاء وسؤال المغفرة .

والدعاء للنجاة من النار دعوة للذات والغير لإجتنب الذنوب التي تسوق الإنسان إلى النار فان قلت قد يتلو الإنسان آية البحث ويسأل الله الوقاية من النار وهو مقيم على المعصية ويفعل السيئات والجواب إن تلاوة هذه الآية والدعاء بالتوقي من النار يدفعانه عن المعاصي دفعة أو على نحو التدريج، ومن الآيات الآيات أن اسم الصلاة في أصله هو الدعاء على قول مشهور قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرُ^(١) ليكون الدعاء زاجراً عن السيئات والمعاصي، بالإضافة إلى تضمن الصلاة قراءة القرآن على نحو الوجوب في كل ركعة منها، ومنها من منافع التلاوة في الصلاة بأن يكون فيه إصلاح للعبد وبعث على التوبة والإنابة، وفي الآية مسائل :

الأول : أفراد الدعاء في الآية وقاء هو الحاجز الذي يأمن به الإنسان من الضرر المحتمل من جهته.

الثاني : الآية لطف الهي في تعليم كيفية الدعاء.

الثالث : تدل الآية على لزوم الإحتراز من النار بالقول والمسألة والتضرع وليس الأفعال فقط.

الرابع : كما تأتي النوافل والتسييح لتدارك النقص في الصلاة فهذا الدعاء والسؤال المحو وتغطية الأخطاء والذنوب التي ارتكبتها الإنسان مما لم يلتفت إليه بل وما فعله عن قصد ونية، ليأتي الدعاء بسؤال الوقاية من النار تعصيماً للإستغفار.

الخامس : هذا السؤال يملئ على الإنسان قهراً وانطباقاً استحضر ذنوبه، والإستغفار منها والعزم على عدم اتيانها وتكرار العودة إليها.

السادس : سؤال الوقاية من النار يدل بالدلالة الإلتزامية على حصر الحسنة في الآخرة بالجنة.

السابع : النجاة من النار جاء بعرض واحد مع سؤال الحسنة في الدنيا، والحسنة في الآخرة.

وبعد سؤال الحسنة في الآخرة جاء سؤال الوقاية من الجنة مع ان سؤال الحسنة يدل بدلالته التضمنية على سؤال النجاة من النار ، وهو من مصاديق الحسنة في الآخرة هو الجنة، فان سؤال الوقاية من النار نوع اعجاز وليس تأكيداً فقط، ففيه احتراز من دخول النار لمدة معينة كما ورد بخصوص آخر من يدخل الى الجنة ممن يخرج من النار بالشفاعة وفضل الله تعالى ويطلق عليهم الجهنميون ، وعن الإمام الباقر عليه السلام يقول: ان قوما يحرقون في النار حتى إذا صاروا (حميما) أدركتهم الشفاعة قال: فينطلق بهم الى نهر يخرج من رشح أهل الجنة فيغتسلون فيه فتبت لحومهم ودماؤهم وتذهب عنهم قشف النار ويدخلون الجنة فيسمون الجهنميين فينادون باجمعهم: اللهم اذهب عنا هذا الاسم قال : فيذهب عنهم.

وفي الآية مسائل :

الأول : الإقرار بأن النار حق سواء على القول بأنها مخلوقة الآن وهو المشهور المختار، أو أنها لم تخلق بعد .

الثاني : لا تكون النجاة من النار إلا بفضل الله، ورحمة منه تعالى وليس من إنسان يقول أن أنجو من النار بعلمي بدليل أن هذه الآية تتضمن دعاء الصالحين وفي التنزيل ﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١)

الثالث : الإقرار والتسليم بشدة عذاب النار .

وتبين الآية مسألتين :

الأولى : الدعاء للدنيا بالحسنة .

الثانية : السؤال للأخرة من جهتين

الأولى : سؤال الله الحسنة في الآخرة .

الثانية : الدعاء والتضرع بالنجاة من عذاب النار وشدة لهييها .

وقد يقول قائل يدل الفوز بالحسنة في الدنيا على السلامة من دخول النار، الجواب هذا صحيح ولكن معاني الآية أعمم من وجوه :

الأول : المراد من الآخرة أمور :

الأول : عالم البرزخ .

الثاني : أوان النشور والبعث من القبور.

الثالث : مواطن يوم القيامة من الحوض، والميزان، والصراط ،
وتطابير الصحف.

الرابع : العفو الإلهي يوم القيامة ومحو الذنوب وستر العيوب التي
يتغش عالم الحساب والجزاء .

الخامس : عالم الجزاء من الدخول إلى الجنة أو دخول النار .

الثاني : إنه من عطف الخاص على العام بلحاظ أن الوقاية من النار
حسنة .

وتبين الآية فضل المسلمين وأنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) بسؤالهم
وهم في الدنيا الوقاية من النار .

يتلو كل واحد منهم ذكراً أو أنثى آية البحث ليحرز وهو في الدنيا
الأمن في الآخرة في حر النار، ويكون من منافع هذه الآية تلقي البشارة

بصك النجاة من النار في عالم البرزخ وحال الدخول إلى القبر لذا ورد في النص أن قبر المؤمن روضة من رياض الجنة .

الثالث : بيان حقيقة وهي النجاة من النار أمر عظيم يستحق سؤالاً خاصاً، وذكرأ له على نحو التعيين .

الرابع : جاءت الآية من باب المثال ولييان وأن سؤال الوقاية من النار له موضوعية خاصة، وذكره مناسبة ودعوة لسؤال النجاة في مواقف ومواطن القيامة والسلامة من الحزن والخوف يومئذ .

الخامس : ليس من برزخ بين الجنة والنار، فيدل الدعاء بالنجاة من النار بالدلالة الإلتزامية على سؤال دخول الجنة وإرادة الإقامة الدائمة في النعيم .

قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

الآية ٢٠٢

الإعراب واللغة

أولئك: أولاء: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ،
الكاف: حرف خطاب، لهم: جار ومجرور بمحذوف متعلق خبر مقدم،
نصيب: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر المقدم خبر (أولئك)
مما: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لنصيب، كسبوا: فعل ماضٍ،
وواو الجماعة فاعل.

والله: الواو استئنافية، اسم الجلالة: مبتدأ، سريع الحساب: خبر،
ومضاف إليه

والنصيب: الحظ والمقدار المخصوص المقسوم من الشيء، ويرد
بمعنى الجزاء، ويقال يتناصبون المال أي يقسمونه.

في سياق الآيات

بعد الأمر بالذكر والدعاء وتعليم المسلمين كيفية المسألة، وتقسيم
الناس بلحاظ موضوع الدعاء، جاءت هذه الآية للإخبار الكريم عن
الجزاء وفي الآية اشراقات من المعرفة الإلهية واطهار للملازمة بين عالم
الدنيا والآخرة.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة وهي على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١)

وفيها مسائل :

الأولى : يشمل موضوع آية البحث بمضامين الآية السابقة بدليل إبتدائها باسم الإشارة (اولئك) .

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين حث المسلمين للدعاء لأمر الدنيا والآخرة وسؤال النجاة من النار، فان قلت لو دعا الكافر الله عز وجل بمضامين الآية السابقة فهل له نصيب مما كسب كما ذكرت آية البحث الجواب نعم لأن الآية وردت مطلقة في مضامينها، وتعريفها لأهل الدعاء بأنهم من الناس بالإضافة إلى العموم في الكسب وعدم تعيين صبغته إنما يكون المرجع فيه عمل الإنسان وإصلاحه وجعله في الخيرات .

الثالثة : جاءت خاتمة الآية بقانون كلي وهو سرعة الحساب من عند الله عز وجل، وفيه ترغيب بالدعاء وجعل الله على يقين بأن فضل الله يأيته في الدنيا عاجلاً ولا ينحصر الثواب بخصوص الآخرة .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾^(٢)

وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : فإذا قضيت مناسككم اولئك لهم نصيب مما كسبوا .

(١) سورة البقرة ٢٠١

(٢) سورة البقرة ٢٠٠

الثاني : فاذكروا الله كذكركم أباءكم اولئك لهم نصيب مما كسبوا .

الثالث : فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا اولئك لهم نصيب مما كسبوا .

الرابع : فاذكروا الله كذكركم أباءكم والله سريع الحساب .

الخامس : ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا والله سريع الحساب .

السادس : ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق والله سريع الحساب .

الثانية : بيان ثواب الحج والدعاء بعده، وصحيح أن آية البحث وردت بصيغة الغائب (اولئك لهم نصيب) وجاءت آية السياق بصيغة الخطاب (فاذا قضيتم مناسككم) ولكن أداء الحج كسب ونفع في الدراين وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١)

الثالثة : بلحاظ أن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ نوع وعيد للذين يحرمون أنفسهم من الدعاء، ويحجبون عنها ثوابه في الدنيا والآخرة، فان يتضمن في مفهومه الأمن من نزول العقاب العاجل في الدنيا ليكون مصاديق مجئ الحج وأداء المناسك على السيئات ومحوه لها .

الرابعة : الذي يسأل للدنيا ينال الجزاء على ما كسب ليكون في الجمع بين الآيتين إنذار من فعل السيئات

الخامسة : لقد أخبرت آية السياق بأن الذي يدعو للخصوص الدنيا ولا يقر ويلتفت لعالم الآخرة يخسر الآخرة ولا يفوز بنصب وأجر فيها .

وجاءت آية البحث لتخبر عن سرعة الحساب من الله أي أن دعاءه للدنيا وإن حصلت فيه إستجابة بلطف وفضل من عند الله فإنه لا يدفع العقاب العاجل، بخلاف الذي يسأل الله عز وجل حسنة في الدنيا والآخرة فإن من مصاديق الحسنة التي يسألها محو السيئة وعدم ترتب العقاب عليها .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١).

وفيه مسائل :

الأولى : ترغيب المسلمين بالحج ومقدماته العقيلة لما فيه من الثواب .

الثانية : تأكيد قانون ورد في القرآن وهو ﴿أَنْبِيْ لَا أَضِيعُ عَمَلٌ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى﴾^(٢).

الثالثة : هداية المسلمين إلى الجمع بين أداء الفرائض وبين الدعاء .

الرابعة : بعث السكينة في قلوب المسلمين بالثواب والأجر العظيم على أداء مناسك الحج، وهذا الأجر مطلق وشامل كحالهم في الدنيا والآخرة ويمكن إستقراء مسألة في المقام وهي أن الذين ينقطعون إلى الدعاء ويلجأون إلى الله بتضرع ومسكنة يهديهم الله للكسب الحسن والعمل الصالح وفعل الخيرات أي أن الآية بشارة التوفيق في الدنيا وإصلاح الفعل .

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه :

(١) سورة البقرة ١٩٩

(٢) سورة آل عمران ١٩٥

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾^(١)

وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : واذكر الله في أيام معدودات أولئك لهم نصيب مما كسبوا .

الثاني : فمن تعجل في يومين أولئك لهم نصيب مما كسبوا .

الثالث : ومن تأخر أولئك لهم نصيب مما كسبوا .

الرابع : واذكروا الله في أيام معدودات والله سريع الحساب .

الخامس : والله سريع الحساب واعلموا أنكم إليه تحشرون .

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين البشارة لوفد الحاج الذين يذكرون الله عز وجل في أيام التشريق، فإذا كان الحاج يبيت في منى ليالي التشريق فإن هذه الآية تدعوه لإستثمار أيامها واستيعاب الذكر لها .

الثالثة : في الحج خصوصية وهي الجمع بين منى سكة وأداء الصلاة اليومية، وهو ما لا يتحصل في مصر من أمصار الأرض وقت آخر : إلا في مكة وبالذات في يوم الحج .

الرابعة : الذين يحصرون دعائهم بأمور الدنيا وبهجتها تأتيهم الدنيا ولكن الحساب عليها شديد وأثره عاجل .

الخامسة : لزوم الخشية من الله عز وجل، وإجتنب تقيد السؤال بخصوص الدنيا، فلا بد من إعلان الحاجة إلى رحمة الله في الآخرة .

السادسة : يتضمن الجمع بين خاتمي الآيتين التخويف والوعيد للذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يسألون الله عز وجل السلامة والنجاة فيها إذ

أخبرت آية السياق حرمانهم من الرزق الكريم والفلاح وذكرت آية البحث سرعة الحساب من عند الله .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(١)

وفيها مسائل :

الأولى : وردت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية عن شطر من الناس، بينما وردت آية السياق بلغة الخطاب الموجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين إنذار الذين يحاربون الله ورسوله خفية أو علانية .

الثالثة : بعث السكينة في نفوس المسلمين، وإخبارهم بأن الله عز وجل ينتقم من المنافقين، وهذا الإنتقام يأتي عاجلاً بما يمنع من استمرار كيدهم للإسلام لقوله تعالى في خاتمة آية البحث ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢)

الرابعة : تذكير الناس بالجزاء والحساب الأخروي، ودعوتهم للتنزه من درن النفاق .

الثالث : صلة هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣) .

(١) سورة البقرة ٢٠٤ .

(٢) سورة البقرة ٢٠٢ .

(٣) سورة البقرة ٢٠٧ .

الأولى : إتحاد موضوع الآيتين باختصاص كل واحدة منهما بحال شطر من الناس وما يخص قولهم ومرتبة إيمانهم .

الثانية : تتجلى معاني التأديب والإصلاح في القرآن بأن تأتي آية للإنذار في موضوع مخصوص ثم تتبعها آية أخرى تتضمن الإرشاد إلى النهج القويم وكيفية النجاة في ذات الموضوع وهو من مصاديق إمامة القرآن وأنه يقود العاملين بسنته وأحكامه إلى النعيم الدائم.

الثالثة : الثناء على الذين أخلصوا العبادة لله، وحملوا أنفسهم في طريق الشهادة حرب على النفاق والإنشغال بالدنيا واللهث وراء زيتها.

الرابعة : بيان تعدد سبل الصلاح، وموارد إحراز الفضل الإلهي فلاية تبين كنوز الدعاء بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١) ومجئ الثواب على هذا الدعاء والتسليم بالمعاد .

وآية السياق تظهر حسن إختيار حب الله والسعي في مرضاته، والتضحية بالنفس دفاعاً عن الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد .

إعجاز الآية

بيان الحكم والجزاء وعظيم النفع بحسن الدعاء، والآية درس يتضمن الوعد والوعيد وتدفع المسلمين الى ولوج ابواب الدعاء.

إبتدأت الآية باسم الإشارة البعيد لبيان إتصال موضوعها بالآية أو الآيتين السابقتين، وفي اسم الإشارة للبعد جذب للأسماع، ودعوة لمعرفة الوصف أو الموضوع أو الحكم الذي يتعقبه وتبين الآية ترتب الحكم والجزاء على الدعاء والعمل الصالح، ولحوق الخسارة بمن يفرط

(١) سورة البقرة ٢٠١.

في أيامه في الدنيا بالإنقطاع إليها، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١)

ترى لماذا لم تقل الآية (لهم ما كسبوا)

الجواب جاءت الآية لبيان أثر ونفع الدعاء في قبول الصالحات ومضاعفة الحسنات ومحو السيئات، ومن إعجاز الآية إختتامها بذكر الله وعظيم قدرته وسلطانه، والإخبار عن كون جزائه ثواباً وعقاباً قريباً من الناس ويكون حالاً ويكون مؤجلاً لتكون موضوعية للدعاء في تقديم الثواب وإرجاء أو محو العقاب.

وهل من موضوعية للنصيب في عالم البرزخ، الجواب نعم، فصحيح أن الناس على أقسام في عالم القبر والبرزخ إلا أن قبر المؤمن روضة من رياض الجنة، وهذه النعمة من مصاديق النصيب المذكورة في آية البحث.

والصحيح هو الأخير، وفيه مسائل:

الأولى : بيان حقيقة وقانون دائم وهو أن ملك السموات والأرض لله عز وجل وأنه إله في الدنيا والآخرة.

الثانية : مقاليد الأمور كلها بيد الله سبحانه.

الثالثة : التداخل والإتصال بين الدنيا والآخرة.

الرابعة : رجاء فضل الله في الدنيا والآخرة.

الخامسة : بيان موضوعية الدعاء في خواتيم الأعمال وعواقب الأمور.

وهل من منافع الدعاء إصلاح المسلمين للقيام بأفعال وأمر تجعلهم ينالون الثواب العظيم، الجواب نعم، ليكون الدعاء أمر تتولد عنه الصالحات، والمواظبة على الدعاء وصيرورته ذخيرة في الدنيا والآخرة. ويحتمل لفظ أولئك وجوهاً:

الأول : إرادة الذين يدعون الله للدنيا والآخرة.

الثاني : الذين يدعون الله بخصوص الدنيا.

الثالث : الذين يدعون الله للدنيا والذين يسألون الله للدنيا والآخرة.

الرابع : وفد الحاج، وعامة المسلمين الذين يواظبون على الدعاء في أيام الحج وغيرها.

والصحيح هو الرابع ويدخل الأول في طوله ترى لماذا ذكرت الآية التبعية في قوله تعالى ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾^(١)، والجواب من وجوه:

الأول : المراد الثواب والأجر على الأعمال وليس التبعية، وإن كانت من التي تفيد التبعية تأتي بعد (ما) ومهما لصبغة الإبهام في كل منهما.

الثاني : من معاني الباء بيان الجنس كما في قوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾^(٢).

الثالث : من معاني الباء أنها تأتي بمعنى الباء كما في قوله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ٢٠٢.

(٢) سورة الحج ٣٠.

(٣) سورة الشورى ٤٤.

الرابع : إرادة ابتداء الغاية الموضوعية أي في الموضوعات.

ليكون تقدير الآية على وجوه:

الأول : أولئك لهم نصيب وحظ على فعلهم.

الثاني : أولئك لهم نصيب بما كسبوا وعملوا.

الثالث : أولئك لهم نصيب من بداية كسبهم وعملهم الصالحات.

ويمكن تسمية هذه الآية (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا

في هذه الآية .

الآية سلاح

تحت الآية بلحاظ ما قبلها المسلمين على اتقان احكام الدعاء وعلى المواظبة على الذكر والتسبيح واللجوء الى الله تعالى في حوائج الدنيا والآخرة.

أظهرت الآيتان السابقتان التباين في ماهية وموضوع الدعاء ، وتنقسم إلى قسمين :

الأول : الدعاء لأموال الدنيا وحاجاتها وطلبها بالذات وللذات .

الثاني : الدعاء لحاجات الدنيا والآخرة وسؤال النجاة من عذاب النار.

فجاءت آية البحث لبيان قانون كلي وهو إستجابة الله عز وجل للدعاء والمسألة ، ومن خصائص هذه الآية أمور .

الأول : تعليم المسلمين صيغ الدعاء .

الثاني : إدراك المسلمين لضرورة الإنتفاع الأمثل من الدعاء .

الثالث : بيان الجزاء على الدعاء بذاته المجرد لثرتب الحكم بالنصيب على السؤال والتضرع إلى الله، والدعاء (ربنا آتنا) من مصاديق الإقرار بالعبودية لله عز وجل والتسليم بان الخير بيده ، بالإضافة على الثواب على أداء مناسك الحج.

وجاءت خاتمة الآية (والله سريع الحساب) لتجعل المسلم في يقظة وحذر دائمين، وتدعو لعمل ما فيه الثواب العاجل، واجتناب ما يأتي منه البلاء والعقاب السريع .

مفهوم الآية

الآية تؤكد لمفاهيم الدعاء وحث على اختيار الأفضل والأحسن منه في الموضوع والغاية والبغية والرغبة، وهي بشارة القبول والاستجابة، كما تمنع الآية من التفريط في الدعاء، ومن سؤال ما يجب سؤاله وهو حاجات الآخرة لأنها الأهم والأولى.

وتبين الآية قاعدة كلية في الإرادة التكوينية وان الجزاء اعم من ان ينحصر بعالم الآخرة وهذا البيان والتذكير لطف منه تعالى كي لا تفوت الناس فرصة الحياة الدنيا، وهو حث لهم على التقوى واللجوء اليه تعالى، والاستعانة به، خصوصاً وان الإستغاثة نوع عبادة وتدارك.

ومن مفاهيم الآية وجوه:

الأول : بعث المسلمين على فعل الصالحات.

الثاني : الوعد من عند الله عز وجل بالجزاء على العمل الصالح.

الثالث : إخبار المسلمين والناس بأن ثواب أداء مناسك الحج حظ وجزاء عظيم.

الرابع : ترغيب المسلمين بأداء الحج والإكثار من ذكر الله.

الخامس : دعوة المسلمين لإتمام مناسك الحج ، قال تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(١).

السادس : جعل المسلمين يشتاقون للشواب العظيم على الذكر والدعاء.

السابع : بعث الحسرة في نفوس الكفار لتخلفهم عن أداء مناسك الحج.

الثامن : قرب الجزاء من عند الله ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾^(٢).

إنفاضات الآية

في الآية تنمية للملكة التقوى في النفوس ، إذ تبعث الدعاء الأمثل ، وسؤال الحاجات مع رجاء الإستجابة من عند الله ، وآية البحث من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(٣)

بلحاظ أن النصيب من الكسب يأتي بالدعاء والتوسل إلى الله والتسليم بربوبيته ، وتنفي الآية الكفر والضلالة عن أصحاب الدعاء لأنه من مصاديق الإيمان .

وفي ثنايا آيات المناسك والعمل لصالح جاءت آية البحث لبيان موضوعية الذكر وإقترانه بالعبادة وصورته جزء منها كما في قوله تعالى

(١) سورة البقرة ١٩٦.

(٢) سورة المعارج ٥-٦.

(٣) سورة الفرقان ٧٧.

قبل آيتين ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾^(١)

وفي الآية ترغيب بالإسلام، والدعاء والمسألة من منازل الهداية والتقوى، وورود الآية بصيغة التبعيض من الناس شاهد على أن المسلمين هم الذين يتعاهدون الدعاء الأمثل، ويسألون الله قضاء حوائج الدنيا والآخرة، إن أية إستجابة يتفضل بها الله عز وجل لدعاء التوقي من النار تتجلى بتخفيف والإبتعاد عن لهييها، والله عز وجل يعطي بالأوفى والأتم .

الآية لطف

تدعوا الآية إلى تحري مصاديق اسم الإشارة الذي تبدأ به الآية (اولئك) لما فيه من معاني الثناء والبشارة والنيل من فضل الله والذي يترشح عن المسألة والدعاء الأنفع والأعم الشامل لأمر الدين والدنيا والمبادرة إلى الدعاء للنشأتين .

إن بيان سرعة الحساب من عند الله رحمة ولطف منه تعالى سواء كان المراد من سرعة الحساب الجزاء العاجل في الدنيا، أم قرب الآخرة وأن الدنيا دار مرور تطوى أيامها بسرعة، وتنقضي لذاتها في أوانها فلا يبقى إلا الجزاء المترتب عليها بينما يكون الدعاء مفتاحاً لخزائن من فضل الله، ووسيلة لمحو السيئات والذنوب .

إن قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢) دلالة على أن المراد من اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ عامة المسلمين أهل الآية

(١) سورة البقرة ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة ٢٠٢.

السابقة الذين يسألون الله للدنيا والآخرة وتبين الآية أن النصيب الذي يلحق المسلمين وهم أهل الدعاء والمسألة قريب منهم وفيه تنمية للملكة الرجاء عند المسلم وإزاحة لأسباب الخوف من مستقبل الأيام ، قال تعالى ﴿وَرَجُوزٌ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُوزُ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ لإرادة البعد ومن معانيه ودلالاته :

الأول : لغة المدح والثناء .

الثاني : إرادة أهل الدعاء من الأولين والآخرين بدلالة جاءت آية البحث بصيغة (ومن الناس) .

أي من الناس في الأمم السابقة والملاحقة، قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَلْبِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢)

ليكون من السنن السابقة أمور :

الأول : الدعاء لأغراض الدنيا .

الثاني : الدعاء للدنيا والآخرة .

الثالث : سؤال التوقي من النار .

الرابع : موضوعية الدعاء في حياة الأمم .

(١) سورة .النساء ١٠٤

(٢) سورة . آل عمران ١٣٧

وهل يمكن القول أن من بركات دعاء الأمم السابقة وصوله كأثر كريم للمسلمين، الجواب نعم، فالدعاء سلاح الأنبياء وطريق الفوز بالنافلة والفضل من عند الله .

فقد أخبرت آيات القرآن عن مضاعفة الله ثواب الصالحات كما في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)

وفي الآية ترغيب بكسب الخيرات واكتناز الحسنات ، وإنذار من كسب السيئات التي تكون ندبة سوداء في عالم الفعل وفي صحائف الأعمال .

وأختتم الآية بذكر الله عز وجل وبيان صفة من صفاته سبحانه ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وفيه دفع وهم عن الأذهان بأن الحساب الإلهي منحصر بيوم القيامة واللبث الدائم في الجنة ثواباً، او الإقامة المستديمة في النار عقوبة على الكفر الجحود وفعل المعاصي، وحرمان النفس من استثمار الدنيا بالدعاء لأموال الدين والدنيا والوقاية من عذاب النار .

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾

(اولئك) اسم اشارة للبعيد ويحتمل وجهين:

الأول: جاء للدلالة على الفريقين اللذين تقدم ذكرهما في الآيتين السابقتين لوحدة الموضوع في تنقيح المناط.

الثاني: متعلق الآية الفريق الذي ذكر في الآية السابقة أي الذين

اصلحوا حالهم واحسنوا صيغة الدعاء باقرار واعتراف بالعبودية لله عز وجل .

والأقوى الأول وافادة المعنيين معاً ومن الإعجاز ان اسم الإشارة هنا يتضمن المدح والذم وبطريقة السبر والتقسيم يعرف ان المراد من الآية مدح المسلمين وذم الكافرين والمنقطعين الى الدنيا.

كما يأتي النصيب لغة بمعنى الحظ وما يستحقه الإنسان، فانه يأتي بالمعنى الأخص وهو الجزاء الحسن، ومن المعنى الأول قوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْتَوِصٍ ﴾^(١)، وقد يكون المراد من النصيب ما يحصل عليه من النعم في الدنيا، أما المعنى الثاني فان النصيب عبارة عن الجزاء الحسن في الآخرة ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ أَتَى اللَّهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾^(٢)، وكان هذه الآية تفسير للآية محل البحث اذ انها تخرج الذين لا يسألون الله الا الدنيا وزينتها بالتخصيص من نيل النصيب في الآخرة . وعلى المعنى الأول وهو الأعم يشملهم اسم الإشارة (اولئك)، الوارد في الآية ولكن القرائن ترجح الثاني خصوصاً وان الآية جاءت متضمنة الوعد والوعيد ولكنه لا يمنع من المعنى الأعم وشمول اهل الدنيا بالآية على نحو الوعيد والتخويف والإنذار، أي ان القرائن غير كافية للتقييد التام للآية خصوصاً وان الآية القرآنية لها ظاهر وباطن وحد ومطلع.

وهل يحتمل ارادة الوجه الأول فقط من الآية، أي الذين لا يسألون

(١) سورة هود ١٠٩.

(٢) سورة الشورى ٢٠.

الا لحاجات الدنيا وارادتها بالذات لا لغاية اخروية بدليل التبعض الوارد في قوله تعالى ﴿ مَنَّا كَسَبُوا ﴾ وان المراد منه التقليل ولأن اسم الإشارة جاء بارادة البعيد (اولئك) الجواب لا، لأن الآية تتضمن الوعد والإكرام للمؤمنين والبشارة بالإستجابة ونيل الرغائب في الدارين.

وورود وتكرار التبعض في الآيتين السابقتين وتتعلق كل آية منهما بطائفة من الناس مباينة في عملها ودعائها للطائفة الأخرى ويدل في ظاهره على وجود فريق آخر من الناس لا يشتغل بالدعاء وهو بالأولوية اسوء من الذي يدعو للدنيا فقط.

والأهم في الآية ليس التقييد او الإطلاق فهي مدرسة في معرفة ترتب الجزاء على الفعل والنية والقصد وان لكل عمل استحقاقاً وجزاء فعلى الإنسان ان يختار نوع ومقدار الجزاء بنوع الفعل الذي يأتيه، وليعلم موضوعية الدعاء في موازين الأعمال وان السؤال للآخرة هو الأولى والأهم وليس من خسارة فيه، ومن اراد النفع في الدنيا فليسأل الآخرة، لأن الغايات الأخروية تترشح عن الأفعال في الدنيا فتجعلها صالحة لنيل المراتب الرفيعة في الآخرة ولا ينالها الا الذي يصبغ اعماله بصبغة الإيمان والصلاح.

ولم تذكر الآية مقدار وموضوع النصيب فيحتمل وجوهاً :

الأول : إرادة النصيب في الدنيا .

الثاني : المراد الأجر في الآخرة .

الثالث : نيل النصيب في الدنيا وفي الآخرة .

والصحيح هو الثالث لأصالة الإطلاق، ولسعة رحمة الله ولأن كلاً في النشاطين ملك له تعالى ، وفي التنزيل ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾^(١).

وجاءت الآية بأمرين :

الأول : صيغة التذكير (نصيب) وهو في المقام الإثبات الذي يفيد التعيين.

الثاني : التبعية في الكسب المحروز (عما كسبوا) .

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

بيان قرآني لعظيم قدرة الله تعالى وان الأشياء جميعاً تكون حاضرة عنده بما في ذلك افعال العباد ورجحان كفة الحسن او السيء منها.

ولأنه سبحانه غني غير محتاج فانه لا يحتاج ان يسأل العباد عن افعالهم وعن ذنوبهم او يستحضر الشهود، بل احاط بها علمه من غير واسطة.

وتبين الآية شدة الحساب يوم القيامة أي ان سرعته فرع من شدته، ومباغته العباد يومئذ بافعالهم يستلزم الإستعداد له، فلا امل بالتدارك حيثئذ او التغيير او التبديل لأن الآخرة دار حساب بلا عمل.

في سرعة الحساب في الآية وجوه:

الأولى : سرعة الحساب هنا تتضمن الوعد الكريم والوعيد بالعقاب، فالمؤمن يستبشر بهذه الآية ويطمع بان يناله جزاءه واستجابة دعائه بخصوص الآخرة بسرعة وتعجيل ليتلقى كتابه يمينه ويدخل الجنة سعيداً، والكافر يتمنى الإمهال وعدم السرعة في الجزاء لأن مصيره الى

الثانية : المراد من سرعة الحساب المعنى المركب من الشخصي والنوعي، فكل انسان يحاسبه الله عز وجل بسرعة ويصدق عليه ان حساب الناس يكون سريعاً فيحاسبون بوقت واحد من غير ان يشغله سبحانه حساب احدهم عن الآخر، وورد في الخبر ان الله تعالى يحاسب الخلق في قدر حلب ناقة^(١).

الثالثة : قد تأتي السرعة بمعنى (القرب) أي ان حساب الله تعالى للعباد قريب وآت.

الرابعة : ورد عن الإمام علي عليه السلام انه قال: معناه انه يحاسب الخلق دفعة كما يرزقهم دفعة^(٢).

الخامسة : ذكر عن ابن عباس انه قال: يريد انه لا حساب على هؤلاء انما يعطون كتبهم بايمانهم فيقال لهم هذه سيئاتكم قد تجاوزت بها عنكم، وهذه حسناتكم قد ضاعفتها لكم.

السادسة : قالوا بان سرعة الحساب ان يخلق الله علماً ضرورياً في قلب المكلف فيعلم حسناته وسيئاته ومقدار الثواب والعقاب، والآية اعم وقد ورد ذكر الميزان واخباره والصراط وغيره من معالم يوم القيامة ولا تعارض بينهما.

السابعة: ان الحساب هو الجزاء، أي ان جزاءه تعالى وثوابه او عقابه يأتي سريعاً سواء كان المطلوب الجزاء الأخروي ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ *

(١) تفسير الرازي ٢٠٨/٢.

(٢) مجمع البيان ٤٤/٣.

وَرَأَاهُ قَرِيبًا ﴿١﴾ او الجزاء العاجل في الدنيا في حث على الطاعات والتقيد
باحكام الدعاء

الثامنة: الآية اخبار عن حتمية المعاد ووقوف الناس للحساب بين
يدي الله.

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ ﴾ الآية ٢٠٣

الإعراب واللغة

واذكروا الله: الواو: عاطفة، اذكروا: فعل امر مبني على حذف النون والواو: فاعل، اسم الجلالة مفعول به.

في أيام: جار ومجرور متعلق ب(اذكروا)، معدودات: نعت لأيام مجرور مثله.

فمن: الفاء استئنافية، من: اسم شرط مبتدأ، تعجل: فعل ماض في محل جزم فعل الشرط .

في يومين: جار ومجرور متعلق ب(تعجل) وعلامة جره الياء لأنه مثنى .

فلا اثم: الفاء رابطة لجواب الشرط، لا: نافية للجنس، اثم: اسمها مبني على الفتح.

ومن تأخر: الواو: حرف عطف، من تأخر: تقدم إعرابها.

لمن اتقى: اللام حرف جر، من: اسم موصول في محل جر.

واتقوا الله: الواو: حرف عطف، إتقوا: فعل أمر، والواو: فاعل

واسم الجلالة مفعول به منصوب، وأعلموا: مثل وإذكروا.

إنكم: حرف مشبه بالفعل واسمه .

إليه تحشرون: إليه جار ومجرور، تحشرون: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بالفتحة، والواو: نائب فاعل، وجملة تحشرون في محل رفع خبر(إن).

العجل والعجلة: السرعة خلاف البطئ، والإستعجال والتعجل: الإستحثاث وإرادة السرعة والسبق، والتأخر: الإبطاء والتريث تقيض التعجل والتقدم.

في سياق الآيات

بعد الأمر بالذكر اثناء الحج وبعد انقضاء مناسك الحج وبيان اقسام الدعاء والصحيح منه، جاءت هذه الآية في التحديد الزمني للذكر والتسبيح والتحميد مما يدل على موضوعيته ولزومه حيثئذ.

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وفيها مسائل :

الأولى : من الكسب الحسن الذي ذكرته الآية السابقة وبلحاظ آية البحث أمور :

الأول : ذكر الله عز وجل

الثاني : الإجتهد بذكر الله في أيام مخصوصة .

الثالث : الكسب في التعجل في أداء المناسك وأنه لا ينقص الثواب .

الرابع : عدم ترتب الضرر على التأخر في النفر من منى مع تعاهد التقوى .

الخامس : تقوى الله والخشية منه كسب حميد، وباب للثواب، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(١)

وفي الآية أعلاه شواهد على مضامين الآية السابقة من وجوه :

الأول : تجلي معاني النصيب من الكسب .

الثاني : تقوى الله عمل وكسب سواء تجلت التقوى بالإعتقاد وإبتلاء النفس بالخشية من الله أو بالقول أو بالفعل وأداء الفرائض .

الثالث : تيسير الأمور وتقريب البعيد الحسن، وتهئية مقدمات الفلاح والمخرج من النصيب الذي وعد الله عز وجل في الآية السابقة بنيله .

الرابع : العمل بالرخصة في المناسك والفرائض من الكسب، وعند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه^(٢).

الثانية : تبعث آية البحث المسلمين على الكسب والعمل الصالح لقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ليكون من إعجاز القرآن الإخبار عن الثواب على فعل الخيرات ثم مجئ الآية التالية بالهداية إلى فعلها .

(١) سورة .الطلاق ٣

(٢) مجمع البيان ١٧/٢ .

الثالثة : تقوى الله وافية من نزول البلاء، وقد نزل العذاب بقوم ونجى الله عز وجل المؤمنين منه كما في قوله تعالى (ونجيناهم من لوط).

الرابعة : قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ باعث كريم لإتيان مناسك الحج والترغيب فيها والحرص على التكبير والتهليل عقيب الصلوات اليومية سواء بالنسبة لوفد الحاج أم أهل الأمصار.

الخامسة : العلم بالرجوع إلى الله والوقوف بين يديه باعث للعمل الصالح، وبرزخ دون فعل السيئات وما فيها من الأضرار على الذات والغير.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١) وفيها مسائل :

الأولى : ذكر الله في أيام مخصوصة من شهر ذي الحجة من مصاديق آية السياق من وجوه :

الأول : إنه من الحسنه في الدنيا من جهات .

الأولى : الهداية والتوفيق إلى أداء المناسك وإتيان الصالحات .

الثانية : ذكر الله حسنة في الدنيا .

الثالثة : الثواب العاجل في الدنيا على ذكر الله في الدنيا .

الرابعة : ذكر الله من التقوى والخشية من الله .

الخامسة : في الذكر تسليم بالرجوع إلى الله .

الثاني : ذكر الله من مصاديق قوله تعالى ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْغَايَةَ فِي الْآخِرَةِ﴾ (١) من جهات :

الأولى : لذكر الله ثواب عظيم في الآخرة .

الثانية : ذكر الله سبب لمحو الذنوب والسيئات .

الثالثة : التقدم والتأخر في الذكر ، وفي النفر لا ينقص من ثواب المؤمن .

الرابعة : تقوى الله حسنة في الآخرة مثلما هي حسنة في الدنيا .

الخامسة : يفيد الجمع بين آية البحث والسياق معرفة وإقرار المسلمين بالحشر والرجوع إلى الله بلجوئهم إلى الذكر والتسبيح رجاء عفوه ورحمته .

الثالث : ذكر المسلم من مصاديق قوله تعالى ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْغَايَةَ فِي الْآخِرَةِ﴾ (١) من جهات :

الأولى : ذكر الله حرز وواقية من النار .

الثانية : الأيام المعددات التي ذكرتها آية البحث وهي أيام التشريق وفيها مناسبة كريمة للوقاية من النار سواء لوفد الحاج أو عموم أهل الأمصار، ويتجلى هذا التوقي بذكر الله فيها والإتيان بالتكبير عقب كل صلاة فريضة يومية .

الثالثة : تقوى الله واقية من النار، وأمن من العذاب وهي من مصاديق ﴿تَجَارَةً لَّنْ بُؤْرًا﴾ (١)

الثانية : إنه من النصيب الذي يترشح على الكسب، وهذا المعنى لا يتعارض مع كون ذكر الله ذاته من الكسب أيضاً والمائز هو أن دخول الإسلام والإقرار بالنبوة والتنزيل والمعاد كسب يهدي إلى ذكر الله .

قال تعالى ﴿الْمَ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٢) فمع التقوى يأتي الهدى والذكر والتكبير والتهليل والتسييح .

الثالثة : ذكر الله توفيق وجزاء عاجل من عند الله على الإيمان والعمل الصالح، وهدية يترشح عنها جزاء آخر ، فكل جزاء وتوفيق إلى عمل صالح يهدي إلى باب من أبواب الخير والصالح بالتسلسل والتعاقب الذي ينقطع بالموت .

الرابعة : من مضامين آية البحث مثل الذكر والتقوى ما يكون من كل أفراد آية السياق الثلاثة وهي :

الأول : كسب الحسنة في الدنيا .

الثاني : الفوز بالحسنة في الآخرة .

الثالث : التقوى واقية من النار .

الخامسة : يدل الجمع بين الآيتين على لزوم الجمع بين العمل الصالح والدعاء لأموال الدنيا والآخرة .

وهل من موضوعية لتقديم آية البحث في ترتيب آيات القرآن بحيث جاءت بالدعاء والمسألة، لتأتي البحث بما فيه مصداق لمضامينها الجواب

(١) سورة . فاطر ٢٩

(٢) سورة . البقرة ٢

نعم، وهو من مصاديق قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١)

الْحِسَابِ﴾^(١)

بتقريب وهو أن الله عز وجل يهدي إلى الدعاء وسؤال العمل الصالح ثم يأمر بالعمل الصالح بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾^(٢).

الرابعة : اختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٣).

وفيه حث على نبذ الدعاء لأمر ومباهج الدنيا وحدها ولذاتها، ودعوة لسؤال الحسنة في الدنيا والآخرة كما جاءت آية به آية السياق ليكون من إعجاز القرآن أن آية السياق جاءت متقدمة في ترتيب القرآن لتهيئة الأذهان للعمل الصالح والتحري عنه وبعث الشرف لإتيانه والمواظبة عليه، وجاءت آية البحث لفعل مصداق الحسنة والجامع لأفرادها الدنيوية والأخروية .

الخامسة : لقد جعل الله عز وجل الدنيا دار إبتلاء وإمتحان وإختبار ، ولكن الله لم يترك الإنسان يواجه فتن وإغراء الدنيا بنفسه فقد تغلب عليه النفس الشهوية والغضبية،

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنْتَ تُرْكُ سُدًى﴾^(١) فضل الله وبعث الأنبياء وأنزل الكتب السماوية وخاتمها والمهيمن عليها القرآن

(١) سورة البقرة ٢٠٢

(٢) سورة البقرة ٢٠٣

(٣) سورة البقرة ٢٨١

الذي تضمن آية السياق بارشاد المسلمين بصيغة الجملة الخبرية إلى كيفية الدعاء وبيان منافعه وآية البحث التي تهدي إلى ذكر الله والشوق إلى أداء مناسك الحج وتعاهدها في أوقاتها المخصصة إلا لمن محمد برخصة التأخير أو التقديم فان الثواب يناله مع أمنه من الإثم والعقاب بسبب هذا الاختلاف في أوان الذكر والنفر .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ (٢)

وفيها مسائل :

الأولى : تكرار الأمر ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في آية البحث والسياق .

الثانية : تضمنت آية البحث تقييد ذكر الله بأنه في أيام معدودات، بينما أخبرت آية السياق بان أوان ذكر الله بعد إقتضاء المناسك، ويحتمل وجوها :

الأول : إرادة ذات الذكر في الآيتين .

الثاني : التباين في أمر وموضوع الذكر بين الآيتين .

الثالث : نسبة اليوم والخصوص من وجه بين زمان الذكر المأمور به في الآيتين، فهناك زمان يخص الذكرين، مع إختصاص زمان معين بكل فرد من الذكرين .

(١) سورة . القيامة ٣٦

(٢) سورة البقرة ٢٠٠.

الرابع : زمان أحد الذكرين المذكور في آية البحث والسياق أعم وأوسع من الآخر .

والصحيح هو الأخير ، فالأيام المعدودات هي الأعم ، والذكر حسن بذاته وخير محض .

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية، وفيه وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الجملة الإنشائية ولغة الأمر، بينما وردت آية السياق بصيغة الجملة الخبرية .

الثانية : التباين في موضوع القول المذكور في الآتين، ففي آية البحث ذكر لله عز وجل وهو خير محض، بينما القول الذي ذكرته آية السياق يتعلق بالدنيا وزخرفها .

الثالثة : ذكر الله الذي حرب على النفاق الذي أشارت إليه آية السياق، ليكون من إعجاز الجمع بين آيات القرآن تهذيب النفوس وإصلاح الألسنة الذي أشارت إليه آية السياق، ليكون من إعجاز الجمع بين آيات القرآن تهذيب النفوس وإصلاح الألسنة، فان قلت إن ذكر الله في آية البحث خاص بأيام معدودة من أيام السنة وقد يغلب النفاق غيرها، والجواب من وجوه :

الأول : يقتزن ذكر الله في هذه الآية بأداء المناسك مما يدل على لباس التقوى الذي يترشح عند الذكر، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١)

الثاني : ذكر الله تنمية للملكة الذكر والمواظبة عليها .

الثالث : ذكر الله حرز من النفاق، وهذا الحرز أعمم من أن ينحصر بأوان الذكر .

الرابعة : آية السياق حرب على النفاق وفضح لأهله بالدلالة المطابقة والتصريح، وكذا آية البحث فهي أيضاً حرب على النفاق ولكن بالدلات التضمنية ولإلزامية .

تضمنت آية البحث لأمر بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهو دعوة للتنزه من دون النفاق وهذا الخطاب ليس خاصاً بالمؤمنين بل هو شامل للناس جميعاً قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾^(٢)

ليدل الجمع بين الآيتين على عدم وقوف القرآن عند فضح زيف القول والنفاق بل يشمل أمرهم بالتقوى والصلاح والخشية من الله عز وجل في السر والعلانية .

الخامسة : أختتمت آية البحث بالإخبار والقطع عن حشر الناس جميعاً يوم القيامة، ليكون نية بلحاظ آية السياق أمور :

الأول : الأقوال التي يتفوه بها الناس في الدنيا تكون حاضرة يوم القيامة .

(١) سورة الحج ٣٢

(٢) سورة الحج ١

الثاني : مجئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاهداً يوم القيامة، قال تعالى ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(١)

الثالث : إنذار أهل الزخرف من القول بيوم البعث والحساب .

الرابع : مع أن الأمور تنكشف يوم القيامة على حقيقتها وأن الذي يشهد الله على ما في قلبه من الود وهو عدو مبين يفتضح يوم القيامة كما هو مدلول آية البحث، فانه آية السياق اسم فضحته في الدنيا .

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين التباين بين ذكر الله وبين النفاق وأن عبادة الله قول وذكر وفعل بدليل التقدم ولتأخر يومين في النفر من منى .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٢) وفيها مسائل :

الأولى : إبتدأت آية البحث بصيغة الأمر الموجه إلى المسلمين على نحو العموم الإستقرائي، من حضر الموسم وأدى المناسك ومن كان حاضراً في بلدة أو مسافراً إلى جهة أخرى (واذكرو الله) ولإبتدأت آية السياق بصيغة الجملة الشرطية ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾

الثانية : ذكر الله في أيام معلومات واقية من السعي بالفساد في الأرض وباب للتوبة والإنابة والصلاح .

الثالثة : بيان التضاد بين ذكر الله ولإفساد في الأرض، مما يدل على تنزه المسلمين عن الفساد في الأرض وإتلاف الزرع والنسل .

(١) سورة .النساء ٤١

(٢) سورة .البقرة ٢٠٥

الرابعة : تضمنت آية البحث ما هو أعمم من الذكر في أيام مخصوصة وهو التقوى والخشية من عند الله سواء كان المسلم في منازل الولاية والسلطنة أو لا، بينما أخبرت آية السياق عن تعدي المنافق إذا تولى بما يضرب بالناس في معاشهم وحياتهم مطلقاً .

الخامسة : تضمنت آية البحث الأمر بتقوى الله لتكون التقوى حرزاً من الفساد في الأرض.

السادسة : يفيد الجمع بين خاتمتي الآيتين الوعيد والتخويف للقوم الظالمين الذين يفسدون في الأرض وإن أظهروا التزلق بالقول، إذ أختتمت آية البحث عن بحشر الناس جميعاً إلى الله يوم القيامة .

وأختتمت آية السياق بذكر قانون منبسط على الدنيا والآخرة وهو أن الله عز وجل (لا يحب الفساد) .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١) وفيها مسائل :

الأولى : يفيد الجمع بين الآيتين الثناء على المسلمين بأنهم أمة مشغولون بذكر الله، وأما هذا الذكر نوع طريق إلى الشهادة والتضحية في سبيل الله .

الثانية : أداء مناسك الحج من عموومات شراء النفس إبتغاء مرضاة الله . وهو جهاد الضعفاء الذين لا يحملون السلاح ويخرجون في السرايا.

الثالثة : أمرت آية البحث بتقوى الله، وفيه دعوة للمسلمين للإلتقاط إلى الذكر والبذل في سبيل الله .

الرابعة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى (والله رؤوف رحيم) ليبيان الثواب العظيم بأداء المناسك والإقبال على ذكر الله في أيام التشريق ومن رافة الله بخصوص آية البحث جواز التقدم والتأخر في أيام النفر المباركة .

الخامسة : تكرر اسم الجلالة في كل من آية البحث وآية السياق .

إعجاز الآية

التوكيد على ذكر الله تعالى دليل على أهميته وباب تنفتح منه آفاق إيمانية وموضوع يستحق الدراسة والتحقيق، بالإضافة الى ما في الآية من التخفيف وامكان التدارك والتنبيه والحث على حسن اللقاء يوم القيامة.

بعد أن أختتمت الآية السابقة بقوله تعالى (والله سريع الحساب) إبتدأت هذه الآية بالأمر العام للمسلمين والمسلمات بذكر الله عز وجل في أيام معدودات وظاهر نظم الآيات أنها خاصة بوفد الحاج لما تقدم قبل ثلاث آيات (فاذا قضيت مناسككم) ولكنها عامة لكل المسلمين من جهات :

الأولى : إبتداء الآية بذكر الله .

الثانية : وإستحباب الذكر والتكبير والتهليل على كل حال .

الثالثة : ورود السنة بذكر الله والتكبير عقيب الصلوات اليومية في أيام التشريق .

الرابعة : إرادة الخصوصية لأيام التشريق بأن يقترن بها ذكر المسلمين جميعاً لله عز وجل وفق صيغ متواترة .

وفي الآية تنظيم الحياة المسلمين بجذبهم إلى منازل الذكر في أيام مخصوصة، وقد ذكر الصيام أيضاً بذات لغة العدد القليل في الأيام، قال تعالى ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ^(١)

ويلاحظ في آية البحث خلو الأمر بالذكر من الإستثناء فكل مسلم ومسلمة قادران على الذكر والتهليل عقيب الصلوات اليومية .

وآية البحث مصداق شاهد على كون المسلمين ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ^(٢) من وجوه :

الأول : تلقي الأمر السماوي بالمواظبة على ذكر الله .

الثاني : حسن الإمثال بمبادرة المسلمين إلى ذكر الله مجتمعين ومتفرقين، وهل التلييات الأربعة (لييك اللهم لييك. لييك لا شريك لك لييك) من ذكر الله المأمور به في آية البحث ، أم أن القدر المتيقن من الآية هو التكبير عقب الصلوات، الجواب هو الأول ولا يضر بهذا المعنى إنقطاع التلية عند رؤية بيوت مكة أو عقبة المدينين في عمرة التمتع .

ويمكن تسمية هذه الآية آية ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

وتكرر لفظ (الكاف) في هذه الآية ثمان مرات، منها ثلاثة في ﴿كذكركم﴾

الآية سلاح

(١) سورة البقرة ١٨٤ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

تساعد الآية في تكامل اسباب التوفيق النوعي والشخصي لأداء مناسك الحج وتبين جانباً من احكامه بلغة التيسير ووفق قاعدة نفى الحرج في الدين.

لقد خلق الله عز وجل الناس لعبادته والثناء عليه ، قال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(١)

ووردت هذه الآية بالأمر بذكر الله بخصوص أيام الحج ليكون الذكر مصاحباً للعبادة أي للحج، فلا يقال أن المسلمين يأتون بالطواف والسعي ونحوهما من الأفعال فقط بل إن هذه الأفعال مقترنة بأمر من الله عز وجل بالذكر والتكبير والتهليل وفيه سلاح من الغفلة وإتباع الأهواء .

ولما جاء القرآن بالنهي عن إفعال مخصوصة في الحج كما في قوله تعالى ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِيهِ الْحَجَّ﴾^(٢)

جاء الأمر بذكر الله في هذه الآية ليكون برزخاً عن الرفث والفسوق والجidal مجتمعة ومتفرقة، وتلك آية في إصلاح العباد لأمر دينهم وديناهم، وصيرورة الأوامر الإلهية مدداً لإجتنب المناهي ، وكذا العكس بأن تكون النواهي مدداً وعوناً لإتيان ما أمر عز وجل به ، وتضمنت آية البحث الأمر بتقوى الله، ليكون من مصداقه ذكر الله الوارد في أول الآية، وهو من إعجاز القرآن بان تأتي الآية الواحدة بامر

(١) سورة. الذاريات ٥٦

(٢) سورة. البقرة ١٩٧

عام وأمر خاص يكون مصداقاً وتحقيقاً للأمر العام وبما فيه الأجر والثواب، ومن وظائف خاتمة الآية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾^(١) تأكيد لزوم ذكر الله والحاجة إليه، ولزوم تعاهده وتركه تركه للأجيال اللاحقة فهو سلاح في الدنيا والآخرة .

مفهوم الآية

تظهر الآية التخفيف والسعة في أحكام الحج، ولكن هذا التخفيف نفسه نوع ضبط واحتراز من الإفراط والتفريط ، وتوضيح يتجلى بذكر حدود وشرائط التخفيف فهو لا يتعدى التقدم او التأخر لمدة يومين لا اكثر، وفيه نوع اعجاز وهو ان التقديم والتأخير في منى ، لا يضر بآداء المناسك والذكر الذي يترن بها ، وعدم خروجه عن تقوى الله وخشيته فالمدار على نية اداء العبادات والمناسك وفق الكتاب والسنة.

ولا احد يعلم منافع هذه الآية المستقبلية لأنها تمنع من التضاحم والتدافع وسقوط مئات او آلاف القتلى كما انها تساهم في زيادة عدد الحجاج في زمان النقل السريع وإقبال عشرات الملايين على اداء فريضة الحج في كل عام.

ومن مفاهيم خاتمة الآية انها تحذر من ترك الحج او التسامح في اداء مناسكه، ومن اعجاز القرآن ان الآية القرآنية ترد بصيغة الخبر الا انها تنحل الى بشارة وانذار لبشارة للمسلمين وانذار للكافرين.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : تتقوم الحياة بذكر الله عز وجل.

الثانية : هداية المسلمين لما فيه صلاحهم وفلاحهم وبعث السكينة في

نفوسهم، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

الثالثة : بيان موضوعية أيام مخصوصة من السنة، فكما جعل الله

قدسية خاصة لمواطن الحج كما في البيت وآياته وبركاته قال تعالى ﴿فِيهِ آيَاتٌ

بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢)، وكما في ذات جبل الصفا والمروة قال تعالى ﴿إِنَّ

الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٣)، فكذا جعل الله عز وجل أيام الحج

مباركة، وخصها بالتشريف بذكر المسلمين جميعاً لله فيها، ففي كل

موسم للحج يشارك المسلمون جميعاً وهم في أمصارهم وفد الحاج بذكر

الله وتقديس أيامه، وقد ذكرت آيات القرآن أن موسم الحج أشهر بقوله

تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾^(٤)، وبين هذه أشهر الحج والأيام التي ذكرتها

آية البحث عموم وخصوص مطلق، فتلك الأيام جزء من أشهر الحج،

ولكن موضوعها أعم إذ يشمل الأمر بذكر الله على نحو مخصوص فيها

المسلمين والمسلمات جميعاً وإن لم يحضروا موسم الحج.

الرابعة : تفقه المسلمين والمسلمات في أمور الدين، ومعرفة خصوصية

شطر من أيام السنة بما لها من صبغة عبادية، وتعيين هذه الأيام من عند

الله عز وجل ترى لماذا لم تذكر الآية تلك الأيام على نحو التعيين الجواب

جاء تعيينها بالسنة النبوية إلى جانب التقييد في ذات الآية بقوله

(١) سورة الرعد ٢٨.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

(٣) سورة البقرة ١٥٨.

(٤) سورة البقرة ١٩٧.

تعالى ﴿فَنَشْهَدُ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُنُّهُ﴾^(١)، وقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته^(٢).

الخامسة : تنمية ملكة التقوى عند المسلمين بالتهمى لذكر الله في أيام مخصوصة، وترتب الأثر على هذا الذكر في القول والفعل ولو على نحو الموجبة الجزئية ومن الآيات أن كل كلمة من ذكر الله لها دلالات عقائدية وتفيد معنى تربوياً وتأديبياً فقول (لييك) أي أني مقيم على طاعتك وفي تثنيته (لييك اللهم لييك) وجوه:

الأولى : التأكيد أي الباباً بعد إلباب، وإقامة بعد إقامة.

الثانية : إختصاص التلبية بأن تكون لله عز وجل، ومنع الجهالة والغرر.

الثالثة : تجديد الإقرار بالعبودية لله، والتكبير المستحب في أيام التشريق هو: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر على ما هدانا والحمد لله.

الرابعة : تعاهد مواعيد وسنن الأنبياء.

الخامسة : التلبية عهد للبقاء في طاعة الله، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: لم سميت التلبية تلبية ؟ قال: إجابة أجاب موسى عليه السلام ربه^(٣)، وهناك أدعية مخصوصة في مواطن الحج فمثلاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بين الركن اليماني وركن الحجر الأسود عند الطواف: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، كما تقدم في تفسير الآية قبل السابقة.

(١) سورة البقرة ١٨٥.

(٢) الدر المشور ١/٣٨٨.

(٣) بحار الأنوار ١٣/١٠.

السادسة : تعاهد المسلمين لحج بيت الله الحرام في ذاته ومناسكه والذكر وهو من مصاديق وراثتهم الأرض وخلافتهم للأنبياء، فليس من نبي إلا وقد حج بيت الله الحرام.

السابعة : المندوحة والسعة في أعمال الحج، ومنع الزحام وتجلي قاعدة نفي الحرج في الدين في جواز التقدم والتأخر في النفر وتقديم الطواف والسعي لكبار السن والمعدور، وهذه المندوحة لا تتعارض مع وجوب التقيد بأحكام الحج الأخرى مثل تروك الإحرام، فيلزم مثلاً إجتناب الصيد ولبس المخيط، والطيب ووطئ الزوجة مدة الإحرام للحج.

الثامنة : أداء المناسك وذكر الله في أيام مخصوصة لا يعني التفريط بالواجبات العبادية والذكر في أيام السنة الأخرى لذا جاء بعد الذكر والترخيص في الآية متعقباً قوله تعالى ﴿وَأَقُوا اللَّهَ﴾ لتكون التقوى سلاح المسلمين في الدنيا والآخرة ولا يصدرون في أفعالهم إلا عن الخشية من الله وطلب مرضاته، قال تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(١).

التاسعة : تدل خاتمة الآية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢)، على حقيقة وهي أن الحج ومناسكه وذكر الله متاع مبارك يوم الحشر، وذخيرة كريمة من عالم الحسنات ليوم الجزاء.

العاشرة : خاتمة الآية ترغيب بذكر الله، وبيان للحاجة إليه، ودعوة لتعاهده في كل يوم من أيام الحج، وصيرورة الذكر سياحة في عالم الملكوت وواقية من عذاب النار، فلما أختتمت الآية قبل السابقة بسؤال الصالحين ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ جاءت هذه الآية للإحتراز من النار، والتوقي

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

منها، ولا يعني هذا البرزخية بين الجنة والنار، بل إن مفهوم سؤال الوقاية من النار هو إرادة دخول الجنة إذ يكون ذكر العبد لله في حياته الدنيا صراطاً مستقيماً ، وعبوراً على الصراط في الآخرة وطريقاً للإقامة الدائمة في الجنة.

إفادات الآية

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين أن تمتلأ نفوسهم بالبهجة والغبطة أيام التشريق فهي حقاً عيد عبادي ، وتجلّى هذا العيد لأهل التقوى بذكر الله عز وجل ، لذا جاءت الآية بصيغة الجمع وهو إنحلالي يشمل المسلمين والمسلمات جميعاً والتقدير وإذكر الله في أيام معدودات، فالإتحاد يصح في المكلفين ولكنه لا يصح في الأيام . فلا يختصر في الذكر على يوم واحد منها .

ومن أسرار صيغة الجمع إظهار المسلمين وحدثهم في أيام الحج برداء التقوى، ويكون الذكر هو الجامع المشترك بينهم فيعرفون به عند أهل الأرض وأهل السماء ، إن ذكر المسلمين لله في موسم الحج ومصاحبة هذا الذكر لأداء المناسك دعوة سنوية متجددة للناس للتدبر في ما هية الحج وأسرار الحياة الدنيا وتقومها بالعبادة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)

ومن خصائص هذا الذكر أمور :

الأول : تغشي رحمة الله للناس في أيام الحج.

الثاني : دفع البلاء عن المسلمين والناس بلحاظ تحقق مصداق العلة التي خلق الله عز وجل من أجلها الناس .

الثالث : تنمية ملكة التقوى والمواظبة على الذكر عند المسلمين .

الرابع : إقامة الحجة على الناس لأن ذكر المسلمين لله تذكير للناس بوظائفهم العبادية ، خصوصاً وأن الذكر أمر سهل يجري على اللسان ولكن ثوابه عظيم في النشاطين .

لقد أراد الله للمسلمين أن تكون ألسنتهم رطبة بذكره وتسبيحه، وذكر الله طرد للشرك وحرب على الأوثان التي كانت موضوعة عند البيت وعلى جبل الصفا والمروة إذ أزاحها الإسلام والى الأبد .

الخامس : ذكر الله عمل عبادي وقهر للنفس الشهوية والغضبية، قال تعالى ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(١) ليجدد المسلمون إرتدائهم للباس التقوى كل عام ، ويكون إعلاناً وصبغة يعرفون بها بين أهل السماء والأرض وعلاقتها وعنوانها الذكر والتلبية والتلهيل .

الآية لطف

لما إحتجت الملائكة على جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ^(٢) رد الله عز وجل عليهم بأمور منها ما هو حال ﴿قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٣) وتعليم آدم الأسماء وقيامه بتعليمها للملائكة، ومنها لهج السنة المسلمين بالتلبية وذكر الله في أيام مخصوصة فيسمعهم الملائكة تصدح حناجرهم رجالاً ونساءً بالتكبير والتلهيل فيستغفرون لهم الله عز وجل ومن مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) بقاء ذكر المسلمين لله والتلبية كل

(١) سورة .التوبة ١٠٥

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

سنة وإلى يوم القيامة وفي ذات الأيام من السنة وهي أيام الحج وهو من مفاهيم قوله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(١).

لتكون الآية أعلاه زاجراً عن تبديل وتغيير أوان الحج، فيتطلع الملائكة لتلك الأيام من كل عام ليسمعوا تكبير المسلمين الذين نزلوا مدداً لنبيهم والأوائل والرواد منهم يوم بدر وأحد والخنديق . فبعد أن احتج الملائكة على جعل خليفة في الأرض نزلوا مدداً للمسلمين وصاروا عوناً لهم في أداء عباداتهم اليومية ومناسكهم، ويتباهون بذكرهم لله ورداء التقوى الذي يتحلون به ، ومن اللطف الإلهي في الآية مجئ مادة التقوى مرتين على نحو التعاقب لقوله تعالى ﴿لَمَنْ أَتَقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٢) ليكون فيه وجوه :

الأول : تأكيد التقيد بسنن التقوى .

الثاني : إتيان الفعل الذي يدل على التقوى لا يعني الحصر به، فلا بد من التحلي بسنن التقوى يحتمل وجوهاً

الأول : إرادة أيام التشريق .

الثاني : المراد تقوى الله في أيام الحج .

الثالث : تقوى الله عند التلبس بأداء مناسك الحج والإحرام .

الرابع : تقوى الله حال التقدم أو التأخر في النفر في الحج والعمل بالرخصة حيثئذ .

الخامس : مصاحبة التقوى للذكر .

السادس : مصاحبة التقوى والتقيد بأحكامها طيلة أيام السنة لمن أدى مناسك الحج وجوباً أو تطوعاً .

السابع : معنى (إتقى) أي إجتنب الصيد .

(١) سورة البقرة ٣٧.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

الثامن : المراد تقوى والخشية منه كل أيام العمر وحتى مغادرة الحياة الدنيا، ولا تعارض بين هذه الوجوه ، لأصالة الإطلاق، ولأن التقوى حاجة للإنسان ووظيفته العبادية، ولورود آيات تدل على لزوم التقيد بالتقوى في أيام الإنسان مطلقاً بلحاظ أنها تكليف وسبيل صلاح وحرز من الغفلة والجهالة .

ومن أسرار الأمر الإلهي في آية البحث ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الحث اليومي المتجدد لإتيان الحج والترغيب فيه، فيوتى به في أيام قليلة ولكن الدعوة السماوية له تتجدد كل يوم وبما يبعث الشوق في النفوس لإتيانه وللإقبال على الذكر والتكبير أيام الحج.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالأمر بذكر الله وبصيغة الجمع ويراد منه المسلمون والمسلمات جميعاً وإلى يوم القيامة، ولا يختص الأمر بوفد الحاج، وقيدت الآية الذكر بأنه في أيام معدودة ومخصوصة، ولكن إثبات شئ لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، فالذكر في أيام الحج لا يقيد أمر ذكر المسلمين لله في كل يوم من أيام السنة، خصوصاً وأن الصلاة ذكر لله وتتقوم بالذكر ، قال تعالى ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١)

ليفيد الجمع بين الآية أعلاه وآية البحث على وجوه :
الأول : تأكيد لأداء الصلاة .

الثاني : الإتيان بذكر إضافي مخصوص .

الثالث : الإجتهد بالذكر أيام الحج، لتكون ذات خصوصية ، وتنفرد باجتماع أمور.

الأول : أداء الصلاة .

الثاني : أداء مناسك الحج .

الثالث : الإتيان بذكر مخصوص يعم أرجاء الأرض .

الرابع : إلتقاء أهل الأمصار مع وفد الحاج بالذكر في أيام التشريق، وتلك آية تكامل التشريع الإسلامي ، فمن لم يؤد الحج يشارك وفد الحاج ثوابهم وأجرهم بالذكر المخصوص في أيام الحج، وإصلاح الذات واللسان للذكر والإلتقاط إلى الله في أيام مباركات ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)

وقيدت الآية الذكر بأنه خاص بالله عز وجل وفيه مسائل:

الأولى : تعظيم المسلمين لمقام الربوبية وإعلانهم العبودية لله عز وجل.

الثانية : منع الغلو بالأنبياء، فخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام في ذكره لله، وتقدير الآية : واذكر يا محمد أنت وأمتك الله في أيام معدودات .

الثالثة : منع الجهالة والخصومة ، فلا تصح التلبية أيام الحج فلا تصح التلبية أيام الحج إلا لله عز وجل، ولما أمرت الآية بذكر الله فهل من ثواب عاجل له ، الجواب نعم بدليل إختتام الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢) وهو بلحاظ آية البحث وعد كريم .

وبعد الأمر بذكر الله جاءت الآية بالتقييد في أوان وزمان الذكر ، وأنه خاص بأيام معدودات ولا بد أنها معلومة عند المسلمين بالسنة

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة البقرة ٢٠٢.

النبوية، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لتأخذوا عني مناسككم^(١).

ومن مصاديق تفقه المسلمين في الدين وتنزههم عن الخلاف والخصومة بينهم تمييزهم بين أيام الصيام وأيام الذكر مع ورود كل منهما بذات اللفظ، ترى لماذا صار الذكر في أيام الحج على نحو التعيين وليس في أيام الصيام، كل منهما عبادة بدنية في أيام مخصوصة وأن كان الحج عبادة مالية أيضاً، والجواب من جهات :

الأولى : في الصيام مشقة زائدة بالصبر عن الأكل والشرب طيلة النهار ولعل في المواظبة على الإجهار بالذكر ضعفاً للصائم .

الثانية : الحج إجتماع عبادي وينطق وافد الحاج بالذكر مرة واحدة فيكون في ذاته خشوعاً وباعثاً للخشوع عند الرائي والسامع ويتجلى بيانه في هذا الزمان وما فيه من وسائل الإعلام.

الثالثة : ذكر الله في الحج عون على أداء المناسك وتحمل الأذى مع جواز الأكل والشرب بل إنهما مستحبان عندما يتم الحاج طوافه .

الرابعة : الذكر في الحج تجديد لإظهار العبودية لله عز وجل .

الخامسة : الوقاية من الجدال والفسق ودرن الغيبة .

بعد الأمر بذكر الله إنتقلت الآية لبيان إحدى رخص الحج في التقدم والتأخر في النفر، وهل تشمل الرخصة التقدم والتأخر في ذكر الله بلحاظ السياق .

الجواب لا، لان الآية قيدت الذكر بأنه في أيام معلومات وهذا القيد إحترازي ، وبرزخ دون التفريط بالذكر ببعض تلك الأيام، وتبين الآية موضوعية التقوى أيام الحج بقوله تعالى ﴿لَمَنْ أَتَى﴾^(٢) وكان

(١) تفسير ابن كثير ٤٧١/١.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

الرخصة رحمة وتخفيف لا يستحقها إلا المتقون الذين لم يتعجلوا أو يتأخروا تفريطاً أو غفلة لبيان حقيقة وهي أن الرخصة في طول العزيمة والأمر بالواجب ولا ينتقل لها إلا مع السبب وإن كان صرف الطبيعة وأدنى المسمى، ولكن الصدور من منازل التقوى أن الآية في مفهومها زجر عن التفريط في أي من المناسك، وعن التقديم والتأخير من غير علة أو حاجة أو مسوغ.

وتضمنت آية البحث ثلاثة أوامر وهي:

الأول : إبتدأت الآية بالأمر بذكر الله وإذ أطلقت الأمر فجاء شاملاً للمسلمين والمسلمات فانها قيدت زمانه بقوله تعالى ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ وفيه دلالة على قيام المسلمين بالذكر والتوفيق للإمتثال لأمر الله، وفي التنزيل ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١)، والأمر بذكر الله نعمة وكنز نازل من من السماء ينهل منه المسلمون في أيام الحج، وذخيرة لهم يوم الحشر لذا أختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَاغْلُظْ إِلَيْهِ تَحْشُرُونَ﴾ أي تجمعون يوم الحشر، وقد صار لكم الذكر في أيام الحج واقية من النار.

الثاني : الأمر بتقوى الله والخوف منه والحرص على إتيان ما أمر به واجتناب ما نهى عنه .

الثالث : الأمر للمسلمين بالإقرار بالحشر، ويفيد العلم اليقين وهو خلاف الجهل، لتطرد الآية الغفلة والنسيان عن المسلمين بخصوص عالم الآخرة.

وتقدير الجمع بين مضامين الآية على وجوه:

الأول : حشر المسلمين يوم القيامة برداء ذكرهم لله.

الثاني : ذكر المسلمين لله أيام الحج واقية لهم يوم الحشر.

الثالث : دعوة المسلمين لإستثمار الأيام في ذكر الله، وعدم التفريط ببعضها.

الرابع : ذكر الله كنز وذخيرة يوم الحشر.

الخامس : حث المسلمين للتآزر والتعاون في ذكر الله، وتذكير بعضهم بعضاً بوجوب الذكر في أيام الحج.

السادس : تشريف المسلمين بإخبارهم عن خصوصية وبركة أيام الحج، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

السابع : يحشر المسلمون وقد عملوا بالرخصة في أداء المناسك، ولم يعملوا بها إلا بعد نزولها في القرآن.

الثامن : تحلي المسلمين بأداء الفرائض والمناسك، وتلبسهم بالتقوى في عباداتهم ومعاملاتهم، قال تعالى ﴿تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(٢).

التاسع : يعيش المسلم أيامه في الحياة الدنيا وه يعلم بأنه ملاق الله، ومن خصائص هذا اللقاء أنه بين الخالق والمخلوق، بين الرب والمربوب، لأن الآية جاءت بلفظ (تحشرون) وفيه دلالة على ضعف ووهن الناس وأنهم لم يأتوا للحشر بمحض إختيارهم ولا كونهم مأمورين بالحشر، بل ليس لهم شأن وأمر بالحشر إذ تجمعهم الملائكة بأمر من الله بعد نفخ الصور وخروجهم من القبور، قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَاهُمْ يَوْمَ لَارِئِبَ فِيهِ﴾^(٣).

ثم أخبرت الآية عن نفي الإثم عن الذي يعمل بالرخصة في النعت أو التأخر لبعث السكينة في نفوس المسلمين عند أداء المناسك وقبله وبعده

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

(٣) سورة آل عمران ٢٥.

أيضاً ثم تضمنت الآية الأمر للمسلمين بتقوى الله عز وجل لإتيان المناسك والأفعال العبادية من منازل الهداية والإيمان وفي قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ترغيب وتأکید بذكر الله، وذات الذكر من تقوى الله إلا أن الآية تبين لزوم تغشي صبغة التقوى للمسلمين في أفعالهم وأقوالهم. ومن التقوى في المقام المناجاة بذكر الله وإتيان التلبية والتكبير بصوت جهوري مجتمعين ومتفرقين.

ثم أختتمت الآية بالأمر للمسلمين بالعلم بقانون ثابت وهو حشر الناس جميعاً لله عز وجل وفي إختصاص المسلمين بالإخبار عن حشرهم نكتة وهي أنهم يحشرون بلباس الإحرام وبالتلبية وذكرهم الله في أمصارهم في تلك الأيام المحدودة لتكون خاتمة الآية وعداً لهم وبشارة وبعثاً لعقائد الذكر الخاص في أيام التشريق والترغيب بذكر الله مطلقاً.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تنوقوا في الأكفان فإنكم تبعثون بها^(١)، والإحرام كالکفن، ويمكن تسميته بالکفن العبادي ويتصف بأن المسلم يلبسه وهو في حال إختيار ورضا وليس على نحو قهري كما في الكفن عند الموت.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾

ورد ذكر (معدودات) في القرآن ثلاث مرات كلها صفة للأيام في إشارة الى قلتها، ومرة بلفظ (معدودة) في الآية وقد تقدمت دراسة مقارنة في موارد هذا اللفظ من القرآن من سورة البقرة من القرآن من اللفظ^(٢).

(١) البحار ٤٣/٧.

(٢) انظر معالم ٧/.

وقد جاءت مرتين في احكام عبادات المسلمين الأولى تقدمت في فريضة الصيام، اما الثانية فجاءت في ذم فريق من اهل الكتاب بقوله تعالى ﴿ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾^(١).

والأيام جمع واقله ثلاثة فاجتمع اقل عدد للجمع مع ما يدل عليه لفظ معدودات، من القلة، والمراد منها في الآية محل البحث هي ايام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر وهي اليوم الحادي عشر، الثاني عشر، الثالث عشر من شهر ذي الحجة .

وورد لفظ ﴿ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ بخصوص اداء فريضة الصيام، فهل من ملازمة بينها وبين هذه الآية الجواب نعم لأن العبادة هي العلة الغائية لخلق الإنسان ولأن المسلمين يتعاهدون العبادة في الأرض ويحفظون سنن الأنبياء فجاء الأمر الإلهي لهم بالمواظبة على الذكر والعبادة والخشوع في الدعاء ، وهل هناك نوع تخفيف وفضل منه تعالى بان الذكر في هذه الآية مناسبة لنيل ثواب كثواب صيام شهر رمضان لا يبعد ذلك لو ثبت الدليل وفي الذكر الوارد في الآية ذكرت مصاديق ووجوه.

منها القول عقيب خمس عشرة صلاة ابتداء من صلاة الظهر يوم النحر وهو العاشر من ذي الحجة، الله اكبر، الله اكبر، لا اله الا الله، والله اكبر الله اكبر، والله الحمد، الله اكبر على هداانا والحمد لله على ما اولانا، والله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، وآخر التكبير يؤتى به عقيب صلاة الفجر من اليوم الثالث عشر من ذي الحجة لمن كان حاجاً وفي منى، كما ورد في صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام وهو قول ابن عباس وابن عمر ومالك، والشافعي في احد اقوال

ثلاثة له في المقام.

ونسب الى الإمام علي عليه السلام والى عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس ان التكبيرات تبدأ من صلاة الفجر يوم عرفة، وتنتهي بعد صلاة العصر من آخر ايام التشريق فيكون عدد التكبيرات ثلاث وعشرين تكبيرة وبه قال ايضاً احمد وجمهور الحنفية، وقال ابو حنيفة انه بعد ثمان صلوات تبدأ من صلاة الفجر يوم عرفة وتنتهي بعد صلاة العصر من يوم النحر اما اهل الأمصار ممن لم يؤدوا فريضة الحج فيكبروا بعد عشر صلوات اولها صلاة الظهر من يوم النحر ايضاً وسميت الأيام الثلاثة بعد يوم النحر بايام التشريق.

وذكر أن صيغة التكبير هي الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد .

ويبدأ التكبير في الأمصار من فجر يوم عرفة، أما بالنسبة للحاج فيبدأ التكبير عند زوال يوم النحر.

ويكبر الحاج مع كل حصاة بالإضافة الى الذكر عقيب الصلوات كما تقدم وقد روي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكبر مع كل حصاة.

وقسم بعضهم التكبير إلى قسمين :

الأول : التكبير المطلق، أي الذي ليس له وقت وزمان مخصوص، ومنه التكبير من هلال ذي الحجة إلى صلاة العيد، وهو مستقرأ وتفسير لقوله تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾^(١)، ولكن بين الذكر والتكبير عموم وخصوص مطلق، فكل تكبير هو ذكر وليس العكس.

الثاني : التكبير المقيد، وهو التكبير المخصوص والذي يكون عقب صلوات معدودة وأستدل بآية البحث ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾.

ومع هذا فان الآية اعم في موضوعها لأن ذكره تعالى حسن على كل حال وفيها تأكيد على موضوعيته في اداء مناسك الحج.

وسميت ايام التشريق لوجوه:

الأولى : من تشريق اللحم وهو تقديره وبسطه في الشمس ليجف.

الثانية : سميت به لقوله اشرق بشر.

الثالثة : لأن الهدي والضحايا تنحر حتى تشرق الشمس أي تطلع.

الرابعة : التشريق بمعنى الجمال أي ان تلك الأيام ذات بهاء خاص وتنفرد بقدسية عبادية لا تعود الا بعد سنة وقد لا يوفق العبد للعودة اليها حينئذ.

يتوالى الأمر بالذكر في هذه الآيات ولكنه ليس من التكرار وان كان التكرار من وجوه الفصاحة، وفيه فوائد عديدة منها التقرير والتنبيه والتعظيم والتهويل والتوكيد ايضاً ولكن الذكر هنا متباين في موضعه واوانه، فكل ذكر غير الذكر الآخر وهذا التوكيد بالأمر بالذكر يدل على موضوعيته في اداء الحج واجباً كان او مستحباً.

بحث أصولي

أختلف في افادة صيغة الأمر "افعل" "اذكر" هل تدل على المرة او التكرار على اقوال:

الأول : انها تفيد التكرار الى الأبد.

الثاني : افادة التكرار بالتعدد القليل الذي يعني اكثر من مرة كما في المرتين او الثلاث أي بصدق مسمى التعدد.

الثالث : ان صيغة الأمر لا تفيد الا المرة الواحدة وبها يحصل الإمتثال والإجزاء وما عداها يحتاج الى دليل وامر جديد.

الرابع : اشتراك الصيغة بين المرة والتكرار.

الخامس : التوقف وعدم الميل الى احد القولين.

السادس : عدم افادة الصيغة لأحدهما، وهو المختار لأن هيئة الطلب موضوعة لإفادة نسبة الطلب الى المخاطب اما مادتها فموضوعة لا بشرط، وليس بشرط لا.

والمدار في معرفة ارادة المرة او التكرار على القرائن والأدلة الخارجية الأخرى.

والمراد من المادة هي المصدر المجرد عن اللام والتنوين "صل صلاة" ولا تدل الا على الماهية المجردة من أية خصائص ولا تتعدى ذاتها وما وقع من الخلاف بين مدرسة الكوفة والبصرة النحويتين اذ قالت الأولى بان الأصل هو الفعل ثم اشتقت منه سائر المشتقات، وقالت الثانية ان المصدر هو الأصل فلا صلة له بمبحث افادته للمرة والتكرار خصوصاً وانها منتزعة ايضاً من صيغة افعل.

فقوله تعالى "اذكروا" ورد على نحو الإطلاق الا انه قيد بقيد زماني زائد وهو الأيام المعدودات وكان الآية دعوة للرجوع الى السنة لمعرفة تلك الأيام وموضوع الذكر وعدده وقد جاءت السنة ببيانه وان الأمر في الآية يفيد التكرار في الذكر والتكبير وعلى نحو معروف في السنة كما مبين في النصوص على القول الأرجح بان الذكر هو التكبيرات عقب الصلوات يوم النحر وایام التشريق.

نفسير قوله تعالى ﴿فَنَزَّلْنَا مُزِيلًا لِّلُكُوفِ فِيهِ يَمِينٌ فَلَا أُنْثَىٰ عَلَيْهِ مِن دُونِ

تَاخَّرَ فَلَا أُنْثَىٰ عَلَيْهِ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : بيان رخصة في احكام الحج.

الثانية : تدل الآية بالدلالة الإلزامية على تثبيت اصل الحكم واوان

الإنصراف الأصلي.

وتدل الآية بالدلالة التضمنية على حسن سمت المسلمين وأنهم لم

يعملوا بالرخصة إلا باذن الله، ليكون هذا العمل على وجوه:

الأول : الدلالة على عدم تعدي المسلمين في الرخصة عن موارد

الإذن الإلهي فيها.

الثاني : الرخصة في المقام من مصاديق قوله تعالى بعد أربع

آيات ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

الثالث : وجود الرخصة في المقام من إعجاز الشريعة الإسلامية وأمر

يتجلى في هذا الزمان والأزمة اللاحقة ببلوغ أعداد الحجاج الملايين

ولزوم تيسير طوافهم وإفاضتهم ورميهم وذبحهم ونفرتهم بكيفية ورخص

تجوز وفق الكتاب والسنة.

الرابع : تقييد العمل بالرخصة بالتقوى وأنه قربة إلى الله وليس

تفريطاً في كيفية أداء المناسك.

الخامس : تقييد الذي يعمل بالرخصة في النفر بوجوب ذكره الله في

أيام التشريق، فليس من رخصة في موضوع أول الآية ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي

أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾.

وفيد قوله تعالى (فمن تعجل) التبعض والجزئية، أن أفراداً وطائفة قليلة من الحجاج قد تقوم بتقديم أو تأخير النفر، وتقدير الآية: فإذا تعجل بعضكم في يومين فلا إثم عليه) ومن أسرار هذا التبعض دعوة المسلمين لتعاهد النفر ف يأوانه، وان عمل بعضهم بالرخصة في التقدم أو التأخر، ومن إعجاز الآية ورود الرخصة في التقدم والتأخر مطلقة من غير علة أو تقييد وفيه وجوه:

الأول : النظر في درود التقييد في السنة النبوية.

الثاني : التقييد بعمومات التخفيف منها قاعدة نفي الحرج في الدين، وقاعدة لا ضرر ولا ضرار.

الثالث : بقاء إطلاق الرخصة للكبير والصغير والرجل والمرأة.

الرابع : جاء التقييد في ذات الآية وهو قوله تعالى (لمن اتقى)، فما دام التقدم والتأخر مع الإقامة على التقوى والخشية من الله ومن قبل طائفة وجماعات من المسلمين فهو جائز.

ويحتمل قوله تعالى ﴿فَلَاإِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أمرين:

الأول : إنتفاء الإثم في أصل الحكم، لأن التقدم أو التأخر جزء تعبدي من مناسك الحج.

الثاني : بهذه الآية رفع الإثم عن التعدم والتأخر، وهي رخصة فاز بها المسلمون، كما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: كان بنو إسرائيل بالمقراض.

والصحيح هو الثاني ، وهو من فضل الله على المسلمين، وقد ورد الإطلاق وعدم الرخصة في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١).

ومن أسرار الرخصة في التقدم والتأخر في النفر يوم الحج هو التأكيد على التقيد في أداء مناسك الحج، وبيان حقيقة وهي أن مناسك الحج تقبل الرخصة في أوانها ولكن هذه الرخصة على نحو متباين، ففي الوقوف في عرفة يجوز الوقوف الإضراري ليلة يوم النحر لمن فاتته الوقوف بين زوال الشمس ومغيبها، وكذا بالنسبة لتقديم الذبح على الرمي، أو الخلق على الذبح للناسي والجاهل بالحكم والموضوع.

صحيح أن التباين كبير وجلي أعداد وفد الحاج في سني التنزيل وبين وفدهم هذه السنوات وأيام العولة وتقارب البلدان وسرعة وسائل النقل وكثرة الأموال عند الناس ولكنه لا يرقى إلى تبدل الموضوع ولزوم تغير الحكم تبعاً له، فذات موضوع ومضامين الحج باقية على حالها وتفضل الله عز وجل وجعل الرخصة في أداء المناسك مندوحة وهو من رافة الله التي في قوله تعالى بعد ثلاث آيات ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

ولو دار الأمر بين العمل بالرخصة في الحج وتقليص وفد الحاج يتعين الأول مع التقيد بالتقوى التي تتجلى في المقام تبرك وفد الحاج لأهلهم وأوطانهم، وتعطيهم لتجاراتهم ومكاسبهم وأعمالهم، وتحملهم لو عناء ومخاطر السفر، والأذى الذي يأتي من الاجتماع والمبيت في موضع واحد مع عدد وجماعة من الحاج بينما إعتاد في السكن في دار واسعة ومكيفة لتكون هذه المعاني من مصاديق التقوى.

وهل يتعلق موضوع الآية بما هو أعم مثل التوسعة في أوان الوقوف في عرفات، وجعله واجباً موسعاً وليس مضيقاً، ليستمر خمسة أيام، يومين قبل عرفة، ويوم عرفة، ويومين بعده للإطلاق في مضمون الرخصة في الآية أعلاه مع بلوغ وفد الحاج الملايين من المسلمين والمسلمات كل عام، الجواب لا.

تفسير قوله تعالى ﴿لَنْ أَتَقَى﴾.

إذا اراد التعجيل او التأخير فانه يعلم ويدرك بانه يعمل بالرخصة.
الأولى : منع توجيه اللوم لمن اراد التعجيل من منى او التأخر عندها.

الثانية : من منافع الآية واعجازها ما لم يأت زمانه بعد، من جهة الزحام وبروز الحاجة الى التنسيق ومنع الإرتباك واحكام الضرورة وتيسير اداء المسلمين للحج على نحو الإختيار ومن غير تقييد بعدد محدود بالإنتفاع من الرخصة في مناسكه واوقاتها.

الثالثة : في الآية دلالة على الإقامة بمنى بعد الإفاضة من المزدلفة.
الرابعة : حرف الجر (في) يفيد الظرفية، فمن اعجاز الآية ان اطلقت التعجيل على آتات اليومين جميعها وليس الساعة الأخيرة منهما، أي ان التعجيل يصدق على اليوم الواحد وبعض اليوم الثاني، وعلى الجزء من اليوم الأول منهما ايضاً فالتعجيل هنا من الكلي المشكك في مدته اقله ساعة واحدة واكثره يومان.

وفي خبر ابي ايوب قلت للإمام الصادق عليه السلام انا نريد ان نتعجل السير وكانت ليلة النفر حين سئلته فاي ساعة نفر؟ قال لي اما اليوم الثاني فلا تنفر حتى تزول الشمس وكانت ليلة النفر، واما اليوم الثالث فاذا ابيضت الشمس فانفر على بركة الله فان الله جل ثناؤه يقول ﴿ فَمنْ تَعَجَّلَ فِيْ يَوْمَيْنِ ﴾ فلو سكت لم يبق احد الا تعجل ولكنه قال (ومن تأخر فلا اثم عليه).

وعنه عليه السلام: في قول الله عز وجل ﴿ فَمنْ تَعَجَّلَ فِيْ يَوْمَيْنِ ﴾ فَلَا اِثْمَ عَلَيْهِ يعني في احرامه، فان اصابه لم يكن له ان ينفر في النفر

الأول) أي ان مدة التأخر ليس معطوفة على التعجل ومدته وهي يومان.

يسمى يوم الأضحى وایام التشريق الثلاثة ایام النحر، وبإضافة يوم عرفة لها تسمى ایام التكبير وان كانت تبدأ بعده على المشهور عند عامة المسلمين فيكون بين أيام التكبير والتشريق عموم وخصوص مطلق فكل يوم من ایام التشريق هو من ایام التكبير وليس العكس، ويسمى اليوم العاشر من ذي الحجة: يوم النحر.

ويسمى يوم الحادي عشر من ذي الحجة: يوم القرّ، سمي به لأن وفد الحاج يقرون ويستريحون فيه بمنى بعد تعب يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر، بل وحتى اهل الامصار فانهم بعد يوم النحر وهو يوم العيد يقرون ويسكنون في منازلهم يوم الحادي عشر منه في آية اعجازية للتشابه وترشح مناسك الموسم وثوابها على اهل الامصار. وعن عبد الله بن قرط قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "افضل الايام عند الله يوم النحر ثم يوم القرّ"^(١).

يسمى اليوم الثاني عشر من ذي الحجة: يوم النفر الأول.

يسمى اليوم الثالث عشر من ذي الحجة: يوم النفر الثاني.

ليلة الثاني عشر: ليلة النفر، وهي التي تكون بين اليوم الحادي عشر وهو يوم القرّ واليوم الثاني عشر.

إن نفي الإثم عن تقدم أو تأخر في أداء المناسك بقيد التقوى وإتقاء الصيد وتروك الإحراك يدل في مفهومه على الإثم في التفريط في أداء مناسك الحج من غير عذر وضرورة، مما يدل على أمور:

الأول : لزوم أداء المناسك بعناية وحرص.

الثاني : إرادة الثواب للمسلمين بحسن إتيان المناسك.

الثالث : دعوة المسلمين وعلى نحو العموم الإستغراقي للتقيد بسنن وأحكام الحج، ومن خصائص هذا التقيد منع إنشغال المسلمين بالجدال والخلاف وأمور الدنيا أيام الحج.

الرابع : تفقه المسلمين في مناسك وأحكام الحج.

تفسير قوله تعالى ﴿لَمَّا أَتَى﴾ فيه وجوه:

الأول : اللام فيه لام التعليل، أي ان الرخصة والإذن في التقديم والتأخير لأهل التقوى ومن اراد القربة وقد ادى المناسك وتقيد بأحكام الحج.

الثاني : من الشكر لله على هذه الرخصة ارتداء لباس التقوى عند الإفاضة من منى.

الثالث : مدة الرخصة والحال البديلة عن منى تكون بالتقوى والصلاح، فالرخصة فقط بالموضع والإفاضة وليس بالإعراض عن احكام الحج وما فيه من عدم الرفث والفسوق والجدال.

الرابع : حث على التقوى في الحج بالإجتهد بالذكر والتكبير.

الخامس : التكبير والذكر من مصاديق التقوى.

السادس : بشارة نيل المراتب الرفيعة في منازل الإيمان والصلاح.

السابع : بشارة المغفرة ونزول الرحمة وان الحاج يرجع الى اهله مغفوراً له.

الثامن : الآية دعوة قرآنية وعبادية للإلتزام صيغ التقوى.

ولعل في الآية اشارة لما تقدم من الدعاء للدنيا والآخرة وعدم

ومن وجوه التقوى في المقام قال الرازي: (ان هذه المغفرة انما تحصل لمن كان متقياً قبل حجه)^(١)، وهو تقييد من غير مقيد فالظاهر كفاية ادنى تلبس بالتقوى واحكامها من جهة الموضوع والزمان فتكفي التقوى وخشية الله اثناء الحج ، والآية تشريف للحاج واخبار عن اهليتهم للتقوى.

من الإعجاز في كيفية العبادات انها تجعل الإنسان بادائها يرتقي في مراتب الكمال والتقوى فصيورة التقوى سببا للرخصة والتخفيف عند انتهاء المناسك فضل من الله تعالى ورحمة.

في الآية اخبار عن تحقق التقوى عند وفد الحاج لأن الرخصة في التعجل او التأخر مطلقة لجميع الحاج.

في الآية تشريع لقاعدة كلية وهي ان المتقين ينالون الرخصة والتخفيف فلذا ترى من احكام التقصير في صلاة المسافر انه لا يشمل سفر المعصية لأنه نوع امتنان لا يستحقه العاصي الذي عليه ان يتم في صلاته لأنه يسافر من اجل ارتكاب المعصية.

وتؤكد الآية على الملازمة بين العبادة البدنية والتزام التقوى مطلقاً باتيان الواجبات والإمتناع عن المحرمات، ففيها تأديب وارشاد الى المحافظة على قدسية وجلالة ايام الحج، ومنع من التعدي على حرماته بذريعة الإكتفاء بواجباته وما فيه من المناسك.

والآية وثيقة شرف وافتخار للمسلمين في اداء مناسكهم لأن التخفيف والرخصة فيها جاءت على نحو الإطلاق الشمولي مما يعني انحلال التقوى بعدد الذين يشملهم هذا الإطلاق.

ومناسك الحج مناسبة للإبتعاد القهري عن مشاغل الدنيا وما يترشح عنها من الغفلة كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١) فهذه الآية وإن تعلقت بالنشأة الآخرة إلا أن مناسك الحج سبيل كريم للتقوى والهداية وكأنه عالم مثالي وعنوان تتجلى فيه على نحو رمزي بعض دروس الآخرة، فيعرض الإنسان أثناء الحج عن المادة وأسباب الشقاوة ويحس بالطمأنينة ويشم رائحة الجنة.

وفي أداء مناسك الحج يشعر الإنسان بالسعادة تغمر جوارحه وهي التي تسمى السعادة الجسمية أو البدنية، وتنعكس على الروح بالتقوى والصلاح ليتنعم أيضاً بالسعادة الروحية، وبذا تتحقق غايات لم تستقرأ بعد من فلسفة الحج، ولكن وفود الحاج تتذوق طعمها وتدرکها.

وورد وجوب مييت ليلة الثالث عشر لمن يتقي في إحرامه الصيد ووطئ النساء، أي أنه يشترط في جواز النفر في اليوم الثاني عشر إمران:

الأول: أن لا يدرك الماء وهو في منى.

الثاني: اتقاء الصيد والنساء .

والحج حياة جديدة للروح بالذكر الذي أمرت به الآيات ، وبه تنال مراتب التقوى ، قال تعالى ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ﴾^(٢)، أي أنه وصل إلى طور وراء طور الإيمان ومصاديقه في الجوارح، إذ ظهرت آثار الحج على نحو الملكة النفسية وفق منهج القرآن وأحكامه وأوامره ونواهيه، أنها السعادة الدنيوية التي ينتقل منها المسلم

(١) سورة الحجرات ٢٢.

(٢) سورة الانعام ١٢٢.

الى السعادة الأخروية مع الفارق بينهما بالسنية، الأولى من عالم الأعمال والإبتلاء والثانية من عالم الجزاء.

والآية بشارة ووثيقة سماوية لما تتضمنه من اخفاء صفة التقوى على من يؤدي الحج، وفق القياس الإقتراحي، فالكبرى هي بميسور كل حاج الإنتفاع من رخصة التقدم او التأخر في الذكر او النفر والصغرى ان المنتفع منها من اهل التقوى والنتيجة ان كل حاج من المتقين.

بحث عرفاني

إن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم، فهل الإذن بالتعجيل او التأخر خاص باهل التقوى من الحجاج دون غيرهم وكيف السبيل الى معرفتهم وهل يستلزم الأمر تحديد المتقين من قبل الحاكم الشرعي والفقهاء او انه مفوض لنفس الحاج اذا كان يعرف نفسه انه اهل التقوى فينتفع من هذا الترخيص.

الجواب انه لا موضوعية لمثل هذه التساؤلات بحسب النقل والعقل وان السنة النبوية والسيرة خالية من التعرض لهذا التفصيل مع انه ظاهر في مفهوم الآية فلا بد من بيانه وتأويله وفق قواعد اللطف الإلهي وواسع رحمته سبحانه واکرامه للمؤمنين الذين يقومون بتأدية الفرائض والمناسك .

فصفة التقوى تتغشى في المقام كل مسلم اثناء تأديته لمناسك الحج بدليل شمول حكم الرخصة من التقديم والتأخير الواردة في الآية لكل من يؤدي الحج من المسلمين ذكراً كان او انثى وعلى هذا تكون الآية بشارة قبول الحج ومنح رتبة التقوى لكل من يؤدي الفريضة بنية العبادة والقربة الى الله عز وجل ، ولا تعني تقسيم الحاج الى متقٍ وغير متقٍ، فمثلاً ترى الرحمة والتخفيف عن المكلف بالصلاة قصراً في السفر لا

تشمل سفر المعصية، بينما جاء التخفيف والترخيص في الحج ليشمل كل مسلم يقوم بادائه من غير شرط الا قصد القرية في الحج، ان تحمل وعشاء السفر والعناء والأخطار وبذل المال وقطع المسافة لأداء الحج، لها جزاء عظيم وهذا الجزاء لا ينحصر بالآخرة بل يشمل الدنيا ومنه وصف الحاج بالمتقٍ .

وهذا الوصف سلاح ونور في النشاطين فالآية لها ظاهر وحكم وهو الترخيص في التعجل أو التأخر اما تأويلها والمعنى القدسي منها فهو منح صفة شرف وعلو منزلة ورفعة لكل حاج وهو حث للمسلمين على المبادرة الى الحج، أي انه تعالى مع فرضه للحج تفضل بالترغيب بالحج والحث عليه ومنها وجوه الترغيب منح صفة (متقٍ) للحاج.

ان العبد يجتهد في العبادات عسى ان يبلغ مراتب التقوى ويعمل على تهذيب نفسه ويسعى للتخلص من الحجب الظلمانية ويقلل من زاده وانشغاله بالدنيا كي يتفرغ الى ذكره تعالى، ويبقى متيقظاً ليترد الغفلة، ويمنع من غلبة النفس الشهوية والغضبية، ومع هذا فقد يدرك منازل التقوى وقد لا يدركها .

وتأتي هذه الآية الكريمة لتضع هذا العنوان القدسي المبارك في متناول الملايين من المسلمين في يوم وموضع واحد وليبيان عظيم منزلة البيت الحرام عند الله عز وجل واهمية فريضة الحج، نعم تدعو الآية الى التقوى بالتحديد التام بمناسك الحج واحكام الشريعة مطلقاً خصوصاً وان الحج مناسبة للتوبة والإنابة بابهي صورها القلبية والبدنية.

بحث تاريخي

يحكي موضوع الحج أشرف تاريخ في حياة البشرية، لما فيه من توثيق لمعانٍ قدسية وآيات عبادية واتصال طولي في وحدة النهج بين الأنبياء

والمسلمين وهو شاهد سنوي متجدد على ان المسلمين ورثة الأنبياء ويحاكون الملائكة في طوافها بالبيت قبل ان يخلق آدم ويتعاهدون البيت الذي استعبد الله عز وجل الناس به وهو من افضل الوسائل العقلية والروحية والعملية لوحدة المسلمين واطفاء نار الفتنة وازاحة الغل ودفع الضغائن وتبديد النفرة وسوء ظن بعض المسلمين ببعض الآخر سواء على اساس المذهب او البلد او الجنس او الحالة المعاشية او التباين في السجاي والطباع.

ونعت المسلمين بالتقوى بلحاظ التلبس بالحج دعوة لهم ليؤدوا الحج الواجب والمستحب ويزحفوا الى البيت الحرام لينالوا شهادة سماوية بالتقوى لا يعادلها شيء من المنح والإلقاب، ومع هذه الدعوة جاء التخفيف في مناسك الحج عموماً كواجبات مؤقتة ولكنها موسعة بمعنى ان اداءها يستلزم وقتاً اقل من الوقت المخصص لها بخلاف الصوم مثلاً الذي يستلزم وقتاً اقل من الوقت المخصص له مثلاً فانه موقت مضيق لأن الصوم يستوعب النهار كله وهو الوقت المعين له.

فجاءت الرخصة ليكون هناك متسع لأداء اكبر عدد من المسلمين لفريضة الحج وفق قواعد التخفيف والدقة في التنظيم وسنن التقوى، فهناك ملازمة بين وصف التقوى الذي يناله المسلم بالحج وبين التوسعة في اداء المناسك بالإضافة الى لزوم بذل القائمين على شؤون الحج أقصى الجهود واستخدام احدث الأجهزة التقنية وبرنامج التنظيم والتنسيق والترتيب والتوعية لتيسير الأداء الأمثل للحج وعدم حصول الزحام، أي ان موارد التخفيف في اداء مناسك وسيلة لإتساع الحرم والديار المقدسة واستيعابها لأكبر عدد يبلغه وفد الحاج مع الإستعدادات المناسبة.

تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : فعل امر للملازمة التقوى في مستقبل الأيام.

الثانية : التقوى هي الهبة الإلهية والشهادة التي يرجع بها المسلم من ادائه لفريضة الحج.

الثالثة : الآية بشارة اهلية للمسلمين للتقوى وان مناسك الحج مدخل للتقوى.

الرابعة : اداء الحج يتجسد بنور ايماني يصاحب الحاج عند رجوعه الى بلده واهله ويحسه من يراه ظاهراً على سيمائه وافعاله.

الخامسة : ان اداءكم لفريضة الحج درس عملي يساهم في ادراك القوانين الكلية للمعرفة الإلهية.

السادسة : تكرر التقوى في الآية لا يعني تعددها الا انها في قوله تعالى ﴿لَنْ أَتَّقِيَ﴾ تتعلق بأيام الحج ، أما قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيحمل على الإطلاق.

السابعة : الآية حث على بقاء الإسلام وظهور معاملة على السلوك وفي المجتمعات.

الثامنة : مع ان مناسك الحج تؤدي من قبل من كان حاضراً الموسم ، فان هذه الآية وما فيها من الأمر بالتقوى تحمل صفة العموم ورجاء احراز المسلمين جميعاً مراتب التقوى ، قال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا

تَوْتَنُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ وهذا لا يمنع من خصوصية للحاج في مراتب التقوى بلحاظ ذكر القرآن لتقوى الحاج ابتداء واستدامة ولأنهم رواد التقوى بعد ظهورها على الجوارح في مناسك الحج.

التاسعة : لعل في الآية اضواء علمية على تأثير افعال الجوارح على خلق الإنسان وسجاياء النفسية أي كما يبرز الاعتقاد على انماط السلوك وافعال الإنسان، فان اسباب الإيمان والصلاح تتداخل بفضلته تعالى وتصبح ملكة راسخة.

العاشرة : الآية تنزيه للمسلمين وحث لهم على اجتناب المعاصي ودعوة للحاج للاستمرار على آداب الحج وسنن التقوى فيه.

ومع أن ذكر الله في أيام الحج من أبهى مصاديق التقوى قال تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَنَزَّ فِيهِمُ الْحَجُّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِيهِ الْحَجُّ﴾ (٢)، فان الآية تضمنت الأمر للمسلمين بالخشية من الله في السر والعلانية ، وفي هذا الأمر وجوه:

الأول : إنه حث للمسلمين على العمل بمضامين آية البحث، ومبادرتهم إلى ذكر الله في أيام الحج، وتعاهد هذا الذكر.

الثاني : إرادة توارث المسلمين للذكر، لأنه خطاب متجدد في كل عام عندما تحل أيام الحج.

الثالث : لما إختصت الرخصة بتقديم أو تأخير النفر يومين لمن اتقى الصيد ، تعقبها الأمر بتقوى الله لتكون نوع طريق وإجازة للعمل بالرخصة.

(١) سورة آل عمران ١٠٢.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

الرابع : مع قيام المسلمين لذكر الله فانهم مأمورون بتقوى الله لإفادة إرادة حصة زائدة من خشية الله كما لو تجلت بتعاهدهم للصلاة طيلة أيام السنة.

الخامس : لقد جاء القرآن بدعوة المسلمين لذكر الله بعد أداء المناسك وعدم السكون والميل للدنيا والركون للدعة والراحة بعد أوانها، قال تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾^(١)، وجاءت آية البحث لتختص بحال الحاج بعد الذكر وهو تقوى الله في كل الأمور، ليفيد الجمع بين الآية أعلاه وآية البحث لإتيان المناسك ثم ذكر الله ثم التقوى.

السادس : عدم الإكتفاء بالذكر وحده في أيام الحج فلا بد من إقترانه بالخشية من الله، ويدل عليه أيضاً أن الرخصة بالتقديم والتأخير جاءت خاصة (لمن اتقى).

السابع : التقوى طريق ومقدمة لإتيان المناسك وذكر الله عز وجل في أيام الحج.

تفسير قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

ظاهر الآية التخويف والتنبيه بصيغة التوكيد والأخبار والتذكير بحقيقة حتمية اللقاء والحساب الاخروي،

والحشر اسم جامع من حين البعث من القبور الى انتهاء الحساب، ولكن الآية في ماهيتها بشارة ووعد كريم وتدل عليه امور:

الأول : تفسير القرآن بالقرآن، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى

الرَّحْمَنُ وَفَدَا^(١) ويطلق على اهل الموسم وفد الحاج لأنهم يقدمون على الله عز وجل، وفي الدعاء: "أنا عبدك الوافد عليك".

الثاني : جاءت الآية عقب مناسك الحج واطمامها وختمها بذكر الله مصاحباً للحاج عند عودته وإيامه من الحج.

الثالث : الآية هي الغنيمة التي يرجع بها الحاج من مكة المكرمة كسكينة مدخرة ليوم اللقاء.

الرابع : الضمير في (إليه) يعود الى الله تعالى فلا ملك يومئذ الا الله ولا ملجأ ومنجا منه الا إليه.

الخامس : الحشر يوم القيامة فهري لذا ورد على نحو الفعل المبني للمجهول، بينما يكون اداء فريضة الحج اختيارياً وامثالاً لأمر الهي فهذا الأداء الإختياري طريق امان مبارك ليوم الحشر الذي لا بد منه ولا يستثنى منه احد، فهو حشر صغير في دنيا العمل من غير حساب تظهر منافعه العظمى والتي لا تدركها عقول البشر يوم الحشر الأكبر.

قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ الآية ٢٠٤

الإعراب واللغة

ومن الناس: الواو: عاطفة، من الناس: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم.

من يعجبك: من: اسم موصول مبتدأ مؤخر، يعجبك: فعل مضارع ومفعول به مقدم.

قوله: قول: فاعل مؤخر مرفوع وهو مضاف، والهاء: ضمير مستتر في محل مضاف إليه.

في الحياة: جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لـ(قوله)، الدنيا: صفة للحياة مجرور، وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف.

ويشهد الله: يشهد: فعل مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو)، واسم الجلالة مفعول بع منصوب، على ما: على حرف جر، ما: اسم موصول في محل جر متعلق بـ(يشهد).

في قلبه: جار ومجرور متعلق بمحذوف، صلة ما، وقلب مضاف، والضمير(الهاء) مضاف إليه.

وهو: الواو: حالية، هو: مبتدأ، ألد: خبر مضاف، الخصام: مضاف إليه.

واعجبه الأمر: اسره وكذا اعجب به، والعجب: انكار ما يرد

عليك لقلة اعتياده، والمراد في الآية هو المعنى الأول كما ورد في قوله تعالى ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾^(١)، أما الآخر وهو الإنكار فقد ورد في آيات عديدة منها قوله تعالى ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾^(٢).

ولددته الدّه لدّا: خصمته وجادلته، وهو مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق دون الإذنين وكأن الخصم يحاول ان يأخذه من كل جانب، والد الخصام: أي شديد الخصومة والعداوة.

وفي مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس قال اخبرني عن قوله تعالى ﴿ أَلَا الْخِصَامُ ﴾ قال الجدل: المخاصم في الباطل اما سمعت قول مهلهل:

إن تحت الأحجار حزماً وخصيماً الدّ ذا معلاق^(٣)

في سياق الآيات

بعد آيات الحج وبيان احكامه والأخبار الضمني عما اعده الله لزائري وعمار بيته الحرام، والحث على الذكر والتكبير والتسبيح، جاءت هذه الآية تبين صفات فريق من المنافقين، ترى ما هي النسبة بين المذكورين في هذه الآية والذين ذكروا في الآية التي تقدمت ﴿ فَنَزِلْ

(١) سورة الفتح ٢٩.

(٢) سورة هود ٧٣.

(٣) الدر المنثور ١/٤٧٧.

النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿١﴾.

الأقوى ان النسبة بينهما عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء الإنشغال بالدنيا وعدم الإيمان باليوم الآخر، ومادة الإفتراق سؤال حاجات الدنيا في الأول، والتظاهر بالصلاح واخفاء العداوة في الثاني اما من حيث المصاديق والأفراد فقد يجتمع الأمران في فرد واحد.

صلة آية البحث بالآيات التالية ، وفيها مسائل:

الأولى : إبتدأت الآية التالية بحرف العطف الواو، ويدل على وحدة الموضوع بين الآيتين بلحاظ مضامين الآيتين، ترى لماذا لم يكونا آية واحدة ، الجواب من وجوه:

الأول : وجود تضاد ظاهري في الخصال وإن إتحد الموضوع وذات الأشخاص، ففي هذه الآية تتجلى سمات الحسن وما يجلب الرضا والطمأنينة والمدح.

الثاني : بيان المسألة بلغة الجدل والبرهان.

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ...﴾^(٢)، وفيها مسائل :

الأولى : بيان التضاد بين أهل الإيمان والنفاق، فالمؤمنون منقطعون إلى الله، مشغولون بالذكر والتكبير والتهليل، أما المنافقون فيظهرون خلاف الكفر الذي يخفون.

(١) سورة البقرة ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين إظهار التباين بين كثرة المسلمين المستجيبين إلى الله بذكره ودعائه، وبين المنافقين الذين هم قلة بلحاظ ذكرهم بصيغة التبعيض والتكثير ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾.

الثالثة : من منافع الجمع بين الآيتين الحرب على النفاق، ودعوة المنافقين للتخلي عنه بذكر الله في أيام مخصوصة وتلك آية في إعجاز القرآن، فالمنافقون ليسوا كفاراً بل نطقوا بالشهادتين، وتبين الآية أنهم يظهرون الكلام الحسن وقصد الإيمان ولكنهم في الحقيقة أشد الأعداء والخصوم، فجاءت آية السياق لجذبهم إلى منازل الهداية والإيمان بالذكر والتكبير والتدبر في بديع صنع الله عز وجل.

الرابعة : دعوة المسلمين للحيطة والحذر وعدم الإكثفاء بالذكر والتكبير وأداء الفرائض والمناسك، فمن حولهم أعداء لهم ، ومنهم من يخفي عداوته ولا يكاد يعرف لأنه يتفوه بما فيه المودة للمؤمنين.

الخامسة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١)، وأختتمت آية البحث في نعت المنافق بأنه (ألد الخصام) لبيان الوعيد والتخويف للمنافقين والكفار، وإنذارهم من العداوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وأن المنافقين سوف يقفون بين يدي الله للحساب، وهل ينحصر وعيدهم وحسابهم بالآخرة، الجواب لا، لما ورد في خاتمة الآية قبل السابقة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢)، وقد تجلت مصاديق سرعة الحساب للمنافقين بخزيهم ، من وجوه:

(١) سورة البقرة ٢٠٣.

(٢) سورة البقرة ٢٠٢.

الأول : خزي منافقي مكة بهجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه واستقبال أهل يثرب لهم بالتأييد والنصرة.

الثاني : هزيمة كفار قريش في معركة بدر.

الثالث : عودة ورجوع رأس النفاق أبي بن عبد الله بن أبي سلول بأصحابه في الطريق إلى معركة أحد.

الرابع : مجئ آية البحث بدم المنافقين وكشف ما يخفون.

السادسة : ذكر المسلمين لله في أيام مخصوصة حرب على النفاق ووقاية منه ، وإن كان الحذر من لوازمه.

السابعة : تضمنت آية السياق الأمر للمسلمين بتقوى الله، وفيه بلحاظ آية البحث أمور:

الأول : من التقوى المطابقة بين الظاهر والختفي في القول والفعل.

الثاني : تقوى الله سلامة وبرزخ من ديب النفاق إلى النفس.

الثالث : التقوى عون في مواجهة عداوة المنافقين، وشرور النفاق.

الرابع : تحلي المسلمين بسنن التقوى حجة على المنافقين، ودعوة لهم لنبد النفاق.

الثامنة : تبين آية السياق إنتفاع المسلمين من الرخصة في أوان العبادات مع قيد التقوى، مما يدل على حرمان الذي يفتقر إليها من الإنتفاع من هذه الرخصة التي لا تختص بأداء المناسك.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : إبتدأت كل من آية البحث والسياق بصيغة التنكير واردة فريق من الناس، وتحتل النسبة بينهما وجوهاً:

الأول : نسبة التساوي بين الفريقين.

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق، وهو على شعبتين:

الأولى : الذين ذكرتهم آية السياق شطر من الذين ذكرتهم آية البحث، وهو خلاف ولا يصح.

الثانية : أهل آية البحث شطر من أهل آية السياق.

الثالث : نسبة التباين بين الفريقين.

الرابع : نسبة العموم والخصوص من وجه، فهناك مادة للألتقاء وأخرى للإفتراق بين الفريقين.

والصحيح هو الثالث، وهو الذي يدل عليه نظم الآيات إذ تكرر في أربع آيات متتالية مرتين لفظ (ومن الناس) ومرة بلغة الإضافة لضمير الجمع الغائب (ومنهم) وهذا التعدد مناسبة لتفقه المسلمين في الدين، ومعرفتهم بأحوال الأمم، وسخية الناس.

فان قلت قد يدعو المنافق الله عز وجل ويسأله الحسنة في الدنيا والأخرة، وهو يتلو آية السياق وما فيها من الدعاء الجواب هذا صحيح وهو سعي للتخلف من برائن النفاق.

الثانية : تبين آية السياق دعاء المسلمين للتوقي من عذاب النار، أما المنافقون الذين يخفون الكفر والعداوة للمسلمين فهم ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١).

الثالثة : كل فرد من مضامين آية السياق ترغيب بالإيمان وبرزخ دون النفاق وإزاحة له عن النفوس، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، بهداية المنافقين إلى سلاح الدعاء وما فيه من تهذيب النفوس وإصلاح المجتمعات، لذا جاءت آية السياق بصيغة الجمع في المسألة (ربنا) وما فيه من التعاون في المسألة واللجوء النوعي العام لله عز وجل، وإغتنام نعمة الدعاء للفوز في الدارين .

الرابعة : من معاني خاتمة آية البحث ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ بلحاظ آية السياق وجوهاً:

الأول : التنافي بين الحسنة في الدنيا والنفاق، لأنه قبيح ذاتاً وعرضاً.

الثاني : تضمنت آية السياق سؤال الحسنة في الآخرة، وعاقبة النفاق العذاب الأليم.

الثالث : تتجلى الوقاية من النار يوم القيامة بالنتزه من النفاق وما يترتب عليه من الإثم.

(١) سورة النساء ١٤٥.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا

اللَّهَ...﴾^(١)، وفيها مسائل :

الأولى : جاءت آية البحث خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته إلى الأمة في أجيالها المتعاقبة، وجاءت آية السياق خطاباً لوفد الحاج كل عام والمسلمين والمسلمات ، فهل يختص التجدد السنوي في الخطاب بآية السياق أم يشمل آية البحث أيضاً، الجواب هو الثاني ، فالخطاب والتحذير في آية البحث يتجدد كل يوم.

الثانية : نسبت آية البحث المناسك إلى المسلمين ، وفيه شاهد سماوي على إقتران أوانها بالمسلمين، ومصاحبتهما لهم في أيام الحياة الدنيا.

الثالثة : بيان مصداق للعز وحسن السمات الذي يتصف به المسلمون، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

الرابعة : ذكر الله والمواظبة عليه ولو لأيام معدودات حرب على زخرف القول والعداوة للإسلام، فهو الدين الذي إختاره الله عز وجل لعباده وتتصف مبادئه بالتسليم والإنقياد لأمر الله ، قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣).

الخامسة : تأكيد التباين بين ذكر الله وإضممار العداوة للمسلمين ، فمن يواظب على الذكر يظهر قلبه من النفاق، ويتنزه من أدران الكدورة ومحاربة الإسلام.

(١) سورة البقرة ٢٠٠.

(٢) سورة المنافقون ٨.

(٣) سورة آل عمران ١٩.

السادسة : دعوة المسلمين لعدم الإصغاء لأهل النفاق وعدم الإنشغال بمجدالهم عن ذكر الله.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وهي على وجوه منها:

الأول : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا...﴾^(١)، وفيها مسائل :

الأولى : إتحاد موضوع الآيتين في وصف المنافق وذمه والتحذير من النفاق.

الثانية : ذكرت آية البحث خصالا يتصف بها المنافق، وهي:

الأول : حسن القول في الدنيا.

الثاني : قيام المنافق بأشهاد الله على ما في قلبه مما يدعيه من الإخلاص.

الثالث : فضح عداوة المنافق لأهل الإيمان، وذكرت آية السياق خصالا أخرى للمنافق حينما يتولى ويكون له شأن وقدرة على الفعل من غير خوف من سلطان المسلمين وهي:

الأول : الإفساد في الأرض.

الثاني : هلاك الحرث والزرع.

الثالث : العداوة والحرب وإزهاق الأرواح.

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين تفقه المسلمين في الدين بمعرفة قبح النفاق وأضراره على الناس، وأنه لا ينحصر بالإيهام بالقول وإدعاء

خلاف ما يكتمون من العداوة للمسلمين فضررهم بالغ إذا تولوا، وأصبحوا ﴿فِي طَغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾^(١).

الرابعة : يحتمل متعلق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ لمضامين آية البحث بلحاظ أن عداوة المسلمين وإظهار البغض لهم من الفساد أو أنه خاص بمضامين آية السياق، الصحيح هو الأول.

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين ما كان يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى وصنوف العداوة من الكفار والمنافقين، وجاءت كل من آية السياق والبحث للتخفيف عنه.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٢)، وفيه مسائل :

الأولى : جاءت كل من آية البحث والسياق في ذات الموضوع، وهو وصف المنافق وبصيغة الذم.

الثانية : كل من الآيتين تحذير للمسلمين من ترشح النفاق إلى الخارج وفي عالم الأفعال.

الثالثة : دعوة المسلمين لأخذ الحائطة والحذر من المنافقين، وهل في الجمع بين الآيتين دعوة للمسلمين لمنع تولي المنافقين ، الجواب نعم، وفيه باب آخر من أبواب الجهاد للزوم دفع المفسدة التي تتأتى من تولي المنافقين زمام الأمور.

الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

(١) سورة البقرة ١٥.

(٢) سورة البقرة ٢٠٦.

الأول : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم.

الثاني : ومن الناس من يعجبك قوله في الدنيا فحسبه جهنم.

الثالث : وهو أله الخصام وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم.

الرابع : وهو ألد الخصام فحسبه جهنم ولبس المهاد.

الخامسة : مع حسن قول المنافق في الدنيا، فانه إذا دعي إلى تقوى الله والخشية منه فانه يعتد بفعله الذي هو إثم وذنب.

السادسة : تضمنت آية البحث قول المنافق في الدنيا، أما آية السياق فاخبرت عن تلقيه للموعظة والدعوة إلى الخشية من الله.

السابعة : جاءت آية البحث ببيان خصال المنافق أما آية السياق فاخبرت عن سوء عاقبته ، قال تعالى ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

الثالث : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(٢)، وفيها مسائل :

الأولى : إبتدأت كل من الآيتين بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وهو آية أخرى في نظم القرآن بهذا اللفظ.

الثانية : التباين الموضوعي والحكمي بين الذين ذكرتهم آية البحث والذين ذكرتهم آية السياق.

(١) سورة الأعراف ٨٤.

(٢) سورة البقرة ٢٠٧.

الثالثة : جاءت آية البحث بصيغة الذم للمنافقين، وتضمنت آية السياق الثناء على فريق من المؤمنين.

الرابعة : من إعجاز القرآن البيان ووضوح المعاني والمقاصد الحميدة فيه للناس جميعاً، قال تعالى في وصف القرآن ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾^(١)، ومن البيان في المقام ذكر خصال المنافق في آية البحث والآيتين التاليتين لها، ثم مجئ آية البحث ببيان خصال المتقين، لتكون الدراسة المقارنة بين الصفات المتقاربة والمتضادة موعظة وهداية للناس.

الخامسة : أختتمت آية السياق بدم المنافق وتحذير المسلمين منه بقوله تعالى ﴿وَمَوْلَاذُ الْخِصَامِ﴾ وأختتمت آية السياق بالثناء على الله وبيان عظيم إحسانه ولطفه ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وفيه وعد كريم وبشارة للمسلمين في الدنيا والآخرة، وهل من رافة الله المذكورة في آية السياق فضح للمنافق والتحذير منه كما في آية البحث ، الجواب نعم من وجوه:

الأول : دعوة الناس للتنزه من النفاق.

الثاني : بيان القبح الذاتي للنفاق والتباين بين القول والفعل، وبين الظاهر وما يخفى في النفس..

الثالث : فضح المنافقين وإخبارهم بأن الله عز وجل يعلم ما في صدورهم ، قال تعالى في الثناء على نفسه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٢).

الرابع : معرفة المسلمين بخصال المنافقين، والحذر منهم.

(١) سورة آل عمران ١٣٨.

(٢) سورة طه ٧.

الخامس : وقاية المسلمين من آفة النفاق، إذ أن الإنسان يتبادل المعارف مع غيره، ويكتسب منه مثلما يعطيه، ومن رافة الله أن المسلم يكتسب الأخلاق الحميدة والسنن الرشيدة ويعرض عن الأخلاق المذمومة ومنها النفاق، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

إعجاز الآية

تكشف الآية حقائق تتعلق بخفايا النفوس وما يضمهر الأعداء للإسلام وزيف ادعاءاتهم، وهذا الكشف سلاح يبعث الفرع في نفوسهم ويدعوهم للتوبة، والآية شاهد حاضر وميزان لمعرفة اسرار الرجال من خلال التناسب او التنافي بين اقوالهم وافعالهم، فالمؤمن يطابق فعله قوله، فلا يفعل ما لا يقول، ولا يقول ما لا يفعل بمعنى انه لا تناقض وتضاد بين قوله وفعله فاذا وعد وفى واذا قال صدق، واذا اؤتمن حفظ ويعكسه المنافق.

بعد مجئ الآية السابقة في باب العبادات وأداء مناسك الحج وذكر الله في أيام التشريق من قبل عموم المسلمين سواء وفد الحاج أو أهل الأمصار في أمصارهم، إبتدأت هذه الآية بحرف العطف الواو للدلالة على الترابط بين موضوعي الآيتين مع أن آية البحث في باب العقائد، وتتعلق بالمنافق، ومن وجوه الإعجاز في هذا النظم والسياق أمور:

الأول : التداخل وعدم الفصل بين العقائد والعبادات.

الثاني : إنذار المسلمين من المنافق عون لهم في أداء وظائفهم العبادية.

الثالث : ذكر المسلمين لله في أيام مخصوصة حرب على النفاق، وطرو له من النفوس.

الرابع : إجهار المسلمين بالذكر والتكبير والمسألة فضح للنفاق ودعوة للمنافق للتوبة والإنابة، ولو أجريت إحصائية عن المنافقين في بداية الإسلام لتجلى النقص في عددهم وإنحسار النفاق في النفوس مع تقادم الأيام وتوالي نزول آيات القرآن وتجلي معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العقلية والحسية، وحتى الذي يبقى في منازل النفاق فإن الإيمان يغزو قلبه كل يوم ويزيح النفاق عنه ولو على نحو الموجبة الجزئية.

الخامس : دعوة المسلمين للتفقه في الدين، ومعرفة قانون ثابت ومستديم إلى يوم القيامة، وهو أن أداء المسلمين للعبادات والمناسك وذكرهم لله يجب ألا يمنعهم من التوقي من النفاق وأهله .

السادس : أختتمت الآية السابقة بالإخبار عن حشر الناس جميعاً إلى الله وأن الموت ليس أمراً عديمياً بل هو أمر وجودي وانتقال إلى عالم وحياة أخرى يكون فيها الوقوف بين يدي الله للحساب فيلقى المنافق الذي يظهر الإيمان كذباً وزوراً ، قال تعالى في وصف يوم القيامة ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(١).

السابع : فضح آية البحث للنفاق عون للمسلمين في ذكرهم لله في أيام التشريق وأدائهم الفرائض والعبادات في أيام السنة كلها.

وتبين الآية علم الله عز وجل بما في الصدور وتفضله تعالى باظهار ما يخفي المنافقون من الضد لما يدعون من الإيمان، ليكون الإخبار في آية

البحث عن حال المنافق من مصاديق قوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(١).

ومن إعجاز الآية إبتدائها بلغة التنكير (ومن الناس) ليكون المسلم في حال يقظة وفطنة من المنافقين، ولا يركن إليهم في حال سماع الكلام الحسن وإظهار أو المواساة.

ومن الإعجاز في هذه الآية والآيتين والتاليتين عدم ذكر اسم المنافق والنفاق في أي واحدة منها، مع أن موضوعها خاص بالمنافقين لأن الملاك هو تأديب المسلمين وإصلاحهم للتوقي من المرائين وأهل النفاق، وإن تباينت مراتب النفاق، وإختلفت التسمية والنعت وصيغ العداوة الخفية في قادم الأحقاب.

وجاءت الآية بلغة التنكير فلم تذكر اسم ونسبة الشخص الذي يعجب قوله النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في الوقت الذي ذكر أبو لهب بالاسم والصفة في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْمَى لَهُبٍ وَتَبَّ﴾^(٢)، لأن المراد على وجوه:

الأول : بيان الموضوع وتهيئة أذهان المسلمين لمقامات الرياسة.

الثاني : سلامة المسلمين من الإفتتان بالمنافق.

الثالث : جذب المنافق لمنازل التوبة، وبعثه على ترك النفاق.

ترى ما هي النسبة بين الإيمان والنفاق، فيه وجهان:

الأول : التباين ، وأن النفاق ضد الإيمان.

(١) سورة آل عمران ٤٤.

(٢) سورة المسد ١.

الثاني : نسبة العموم والخصوص من وجه فمادة الإلتقاء هي الإيمان الظاهري، ومادة الإفتراق، أن الإيمان ثابت في نفس المؤمن، أما المنافق فانه يطن الكفر والشقاق.

والصحيح هو الأول لأن المراد من الإيمان هو الإقرار بالجنان، وفي التنزيل ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١)، فالمدار في المقارنة والنسبة ليس على التفصيل بين ظاهر وباطن الإنسان في عقيدته، إنما الإيمان كل متداخل لا يقبل التجزئة، وهو قول وفعل وإعتقاد في القلب ، ويحتمل حال المنافق وسبل التوبة وجوهاً:

الأول : عدم قبول النفاق والتلبس به التوبة والإنابة.

الثاني : توبة المنافق وإنتقاله إلى مقامات الإيمان والصلاح.

الثالث : إحتمال نكوص بعض المؤمنين وتحوله إلى أخلاق وسنن النفاق.

الرابع : إرتداد الذي ترك النفاق ورجوعه إليه.

والصحيح هو الثاني، وآية البحث دعوة للتوبة من النفاق وفيها إصلاح الظاهر والباطن وإخلاص الإيمان، وأما الثاني فان النفاق موضوع يقبل التوبة قال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٢).

(١) سورة الحجرات ١٤.

(٢) سورة الزمر ٥٣.

وأما الثالث فهو ممتنع لأن الذي يذوق حلاوة الإيمان ويخالط دمه وعروقه لا يفارقه، ولأن الله يتفضل على المؤمنين بزيادة الإيمان في نفوسهم، قال تعالى في الأسوة أهل الكهف ﴿نَحْنُ نُقْصِرُ عَلَيْكَ يَا هُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(١).

وأما الرابع فالذي ينتقل إلى منازل الإيمان يشكر الله عز وجل على النجاة من درن وآفات النفاق وما يعنيه من مرض النفس، ويشعر بنقاء الإيمان وإشراقه ضيائه على القلب والجوانح وتكون له سنن الإيمان غذاءً وحاجة يومية تتجلى بأداء الفرائض وإصلاح السريرة.

وهل توبة المنافق من مصاديق قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَقًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، بلحاظ أن توبته إضعاف لأهل الكفر والضلالة، الجواب نعم، لإنتفاء التباين الموضوعي فيكون قطع الكفار بالقتل والأسر والإعاقة في ساحة المعركة عقوبة لهم وعلى نحو القهر، وتوبة المنافق أمر إختياري، وفيه عز للمؤمنين ومنعة للإسلام، ومن يتوب من المنافقين هل يشملهم قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

أم أن الآية أعلاه لا تشملها لأنها نزلت في الإحتجاج على المنافقين ورأس النفاق أبي بن أبي سلول.

الجواب هو الأول، فحالما يتوب المنافق يفوز بمرتبة العزة ويكون من أهلها، وإذا تغير الموضوع تبدل الحكم.

(١) سورة الكهف ١٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) سورة المنافقون ٨.

ومن إعجاز الآية أنها لم تقل (ومن الناس من يعجبك قوله في الدنيا) بل قيدت الآية القول بأنه (في الحياة الدنيا) لبيان موضوع قول المنافق وأنه خاص بأسباب البهجة والسعادة في الدنيا وطول العمر فيها، وطيب المأكل والمشرب وسعة المسكن فيها، وما يترشح عنه من التسويف والتأجيل في الجهاد وتحمل المشاق في طاعة الله.

وجاءت هذه الآية والآيتان التاليتان ببيان خصال المنافق، ويفيد تداخلها بلغة العطف إجتماعها وأنها صفات ظاهرة وجلية عند المنافق، ولو كان عند بعضهم شطر منها فهل يصدق عليه أنه منافق أم أنه مرء أو منزلة بين المنزلتين أي أنه برزخ بين الإيمان والنفاق، الجواب ذكرت آية البحث صفة أصلية في المنافق وهي كونه (ألد الخصام) فإن جاء بأفعال يرائي بها أو يخفي بها نفاقه فإن شدة خصومته ملكة راسخة في نفسه وتظهر على عالم الأفعال بحسب الحال والمقال.

وجاءت الآيتان التاليتان بصيغة الشرط (وإذا تولى سعى) (وإذا قيل له اتق الله) مما يدل على حقيقة وهي وإن لم يتول، وإن لم يقال له اتق الله، فإنه لا يخرج عن صبغة النفاق، وأن الله هبئ للمسلمين معرفته بلحن وزخرف القول، نعم النفاق من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً فمنهم من لا يظهر نفاقه إلا مع وجود إمام سوء له، فعندما كان المسلمون متوجهين للقتال في معركة أحد كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾^(١)، قام أبي بن أبي سلول بتحريض طائفة من جيش المسلمين على العودة والرجوع إلى المدينة (وقال: علام نقتل أنفسنا^(٢))، فأطاعه نحو ثلاثمائة من

(١) سورة آل عمران ١٢١.

(٢) الدر المنثور ٤٨٠/٢.

أفراد الجيش ورجعوا معه وهو مصداق لقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّامُ﴾ فما فعله أبي بن أبي سلول يومئذ إستحق به صفة رأس النفاق، ولعله كان أشد على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجيش المسلمين وبناء صرح الدولة الإسلامية من زحف قريش وغطفان لولا رحمة الله ونزول الملائكة لنصرة المسلمين.

ويمكن تسمية هذه الآية آية (يعجبك قوله) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

الآية وثيقة سماوية زودت المسلمين بملاك لتقييم الناس وتشخيص المنافقين والإحتراز منهم، وعدم السماح بارتقائهم في سلم المراتب الإجتماعية وغيرها، كما انها تنمي ملكة التوسم ومعرفة بعض خفايا النفوس وما يضمرة الأعداء بما يظهر على اللسان او من خلال التجربة والصحة.

جاءت الآية بصيغة الخطاب الموجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي تصف حال المنافق وتبين العسر والمشقة في تعيينه ومعرفته لأمر:

الأول : إظهار المنافق الإيمان.

الثاني : حرص المنافق على القول الحسن الذي يرضي المؤمنين، فعبد الله بن أبي سلول رأس النفاق لم يكتف بالقول الحسن بل خرج مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى معركة أحد، ولكنه إنخزل بثلاث الجيش وهو في الطريق إلى المعركة وفيه تشييط للهمم، وإرادة

ديب القنوط بين صفوف المسلمين لولا رحمة الله وتفضله بالمدد المملوكوتي قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُكْفِئُكُمْ أَنْ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ﴾^(١)، وهل من صلة بين إنسحاب المنافقين في الطريق إلى المعركة وبين حال الخوف والجبن الذي كاد أن يظهر على عدد من المسلمين كما في قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾^(٢)، الجواب لا من جهات:

الأولى : عدم حصول حال الخوف والجبن على أي طائفة من المسلمين يوم أحد.

الثانية : تأكيد الآية أعلاه لولاية ونصرة الله للمسلمين، وهذه الولاية واقية من الجبن والإنهزام.

الثالثة : نسبة وإضافة وجزئية الطائفتين من المسلمين بقوله تعالى ﴿طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ وقد ثبت كتاباً وسنة وسيرة أن المسلمات لم ينهزوا يوم أحد.

الرابعة : الهم هو القصد وأول الفعل لذا لم يحدث الفشل والجبن.

الخامسة : من مصاديق ولاية الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والطائفتين أعلاه وعموم الصحابة المقاتلين نزول الملائكة لنصرتهم، ومن مصاديق النصرة في المقام الوقاية من الفشل والخزي والإنكسار والهزيمة.

(١) سورة آل عمران ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران ١٢٢.

وتدعو الآية المسلمين إلى التعاون والتآخي فيما بينهم لمواجهة أعدائهم ومنهم أناس يخفون عداوتهم ولا يعلنون إلا الود ورجاء النصرة والغلبة للمسلمين.

أسباب النزول

فيها قولان:

الأول: روي عن ابن عباس والضحاك ان كفار قريش بعثوا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم انا قد اسلمنا فابعث الينا نفرأ من علماء اصحابك، فبعث اليهم جماعة فنزلوا بيطن الرجيع، ووصل الخبر الى الكفار فركب منهم سبعون راكبأ واحاطوا بهم وقتلوهم وصلبوهم، ففيهم نزلت هذه الآية.

الثاني: انها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي وهو حليف لبني زهرة اقبل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم واطهر الإسلام، واطهر الود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وحلف بالله انه يحبه وهو المراد بقوله تعالى ﴿يُجِبِّكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولكنه كان يخفي غير الذي يعلنه ولما خرج من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بزراع لقوم من المسلمين فاحرق الزرع وقتل الحمر، وهو المراد بقوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^(١).

والحق ان اسباب النزول سواء كانت موافقة لموضوع نزول الآية او لا، فانها تتعلق الآية الكريمة على نحو البيان أي انها قيد توضيحي، فكل آية حية وباقية الى يوم القيامة وتنطبق على مصاديقها وافرادها في كل زمان ومكان ومنها هذه الآية الكريمة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب فهي جارية في كل زمان، فكل من انطبقت عليه هذه الصفات يشمله موضوع الآية وحكمها.

مفهوم الآية

الاية مدرسة في التحليل النفسي والغور في اعماق النفس الإنسانية بلحاظ الإيمان او عدمه، وهي تنمية للملكة معرفة النوايا والمقاصد وتنبية للمسلمين بلزوم عدم الإكتفاء بظاهر القول، وفيها منع من الخيبة والإنكسار عندما يفاجئ المنافق المسلمين ويكشف عن وجهه الحقيقي.

ومن مفاهيم الآية الوعيد والتخويف للمنافقين في كذبهم وادعائهم الزور والبهتان والإفتراء على الله، وتبين الآية وجهاً من وجوه الحرب على الإسلام وصيغة لمحاربته لم تعتمد السيف والقتال بل المكر واللسان، فبعد ان تقدمت الآيات بالأمر بقتال الذين يقاتلون المسلمين ودرء الفتنة والدفاع ولو في الشهر الحرام، جاءت هذه الآية لتحذر من خطر الإعلام والدهاء، واختراق المنافق صفوف المسلمين ووصوله بلسانه وما يعلنه من الولاء والإخلاص الى مراتب رفيعة في سلم المناصب والزلفى ويولونه الثقة ويطمثون اليه فيخذلهم في ساعة الحاجة ويغدر بهم في الشدة مما قد يسبب الإنكسار والخسارة الكبيرة، لذا جاء التنبيه والتحذير في الآية ، ويدل في مفهومه على قوة المسلمين وتوجههم لبناء هياكل الدولة وعدم خشيتهم من العدد الظاهر المكشوف الذي يشهر السيف، فمع النصر والثبات وظهور الإسلام يظهر اعداء جدد وبصيغ واشكال متباينة مع اعتماد الحيلة والخبث في الإساءة الى الإسلام وايداء المسلمين في دلالة على ضعفهم وعجزهم عن الأضرار المباشر بالإسلام، فلجأوا الى محاربته بالخفاء وبالواسطة فجاء الإعجاز القرآني ليفضح هذه الطرق من العداء، وهذا الفضح له عدة منافع منها امتناع

المنافقين عن مزاولة هذا النوع من الحرب لإتكشاف امرهم وبذا يكون القرآن سلاحاً وعوناً وحاجباً دون ظهور العداوة ابتداء أي انه سلاح وقائي الى جانب ما فيه من التنبيه والتحذير ومعالجة النفاق واصلاح النفوس ودعوة الناس اصلاح السرائر واخلاص النية ونبد النفاق واجتناب التناقض بين القول والفعل، والظاهر والباطن، ولكن هذا لا يعني انعدام النفاق ووجود مصداق خارجي للوصف الوارد في الآية الكريمة بمعنى ان الآية تخفف وتقلل من حالات النفاق هذه كما وكيفاً واثراً وتأثيراً ولا يبقى يظهر حلاوة اللسان ويكيد بالإسلام الا من استحوذ عليه الشيطان وغلبت عنده الكدورة واختار التعرض للفضح وتجعل الآية المسلمين يقظين بفطنة ونباهة في رصد نوايا السوء من بين صفوفهم .

لقد أرادت الآية للمسلمين ان لا يقفوا عند الألفاظ ومعانيها الظاهرة بل عليهم ان يفهموا اللوازم والإبعاد والمعاني والمقاصد والربط بينها وبين الأفعال مع تحليل الإشارات بعمق واستدلال.

إفادات الآية

إبتدأت الآية بلغة التبويض تدل على الاختلاف في مشارب وأفعال الناس وتدل الآية بالدلالة التضمنية على قلة عدد المنافقين بالنسبة لمجموع الناس.

والنسبة بين الذين يعجبك قولهم وبين المنافقين عموم وخصوص مطلق، فليس كل من يعجبك قوله هو منافق مما يستلزم عدم الإكتفار بالقول فلا بد من الفعل الذي يدل على صدق القول، لذا يتلي الله عز وجل الناس في عالم الأقوال والأفعال لتبدو سنخيته، وتتكشف نيته وسريرته.

وتبين الآية أن القول الحسن بخصوص الحياة الدنيا وحده غير كان فلا بد للإنسان من إظهار والإيمان باليوم الآخر، لتبين الآية حقيقة وهي أن الكلام الحسن للمنافق لا يعدو الحياة الدنيا ، ولا ينخدع المؤمنون بقول المنافق وإن كان حسناً في ظاهره لأنه خاص بالدنيا وزينتها والعمل فيها.

الآية لطف

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين وراثة الأرض بقيد عمارتها بالإيمان وأداء الفرائض، فتفضل وحذرهم في هذه الآية من الذي يدخل في صفوفهم ويحسبونه منهم وهو عدو لهم، يضم البغضاء والكراهية لهم، ليتمنى مجئ الكفار ليغزوا المسلمين ويتطلع إلى أنباء تخبر عن هزيمة سرية للمسلمين.

فكانت هزيمة قريش يوم بدر، ورجوعهم خائبين يوم أحد بعد تكبدهم لخسائر، خزيًا للمنافقين، قال تعالى ﴿لَيَقَطَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

وآية البحث من آيات الإنذار المركب والمتعدد من جهات:

الأولى : تنبيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لخصال المنافقين والتحذير منهم، وهو من مصاديق قوله: أدبني ربي فأحسن تأديبي^(٢).

الثانية : إنذار وتخويف المسلمين من المنافقين.

الثالثة : إنذار المنافقين مما يخفون من العداوة والبغضاء للمسلمين.

(١) انظر الجزء ٧٧ من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

(٢) مفاتيح الغيب ١٤/٣٩٦.

الرابعة : إنذار الناس وتحذيرهم من النفاق وأهله.

ومن منافع آية البحث جعل الإنسان يلحظ التوافق أو التباين بين قوله وما يضمّره في سريره بقصد التخلص من النفاق وأخلاقه المذمومة.

الصلة بين أول وآخر الآية

بعد حرف العطف الواو ابتدأت الآية بذكر طائفة من الناس بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وفيه نكتة وهي أن النفاق أمر محصور بعدد محدود من الناس، ويحدد على المحدودية في المقام لغة البيان والتبويض في الآية.

ومن خصائص آية البحث جعل النفاق ينحسر في الأرض، وعدد المنافقين يتناقص، فكل مرة يتلو فيها المسلمون هذه الآية لهما حرب على النفاق ودفع للناس عن منازلهم، وبعث للنفرة في النفوس منه.

وتبين آية البحث في مفهومها أن المنافق لا يتكلم عن الآخرة، ولا يذكرها بكلام حسن لأن ذكرها طرد للنفاق من النفس، فمن يخشى يوم القيامة والوقوف بين يدي الله فيه للحرب يتجنب إخفاء الكفر، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١).

وتبين الآية حقيقة وهي حصول المنافقين إلى حضرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والكلام معه وإستماعه لقولهم، لينزل القرآن بفضحهم وقولهم الزائف وإدعائهم الإيمان ولم يوبخهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يخصهم لإختيار بكشف نفاقهم، قال تعالى ﴿وَأَنَّكَ لَـعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

(١) سورة غافر ١٩.

(٢) سورة ن٤.

ومن خصائص مجئ الآية بالتذكير (ومن الناس) أمور:

الأول : ستر الناس وعدم فضح الذي يتصف بأمر مذموم في قوله وخلقه، والتفاق أشد الخصال قبحاً.

الثاني : الإنذار على ذات النفاق كخصلة وفعل، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١).

الثالث : دعوة المنافق للتوبة من النفاق، وإصلاح الذات، وإظهار القول الحسن في الدنيا والآخرة، وموافقة ما في قلبه لما يعلنه من الإسلام والنطق بالشهادتين.

الرابع : عدم إختصاص النفاق بالقول الحسن في الدنيا، فقد يقول المؤمن ذات القول ويعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فمن إعجاز الآية أنها والآيتان التاليتان تبين صفات وخصال المنافقين وهي:

الأولى : إصرار المنافق على أنه في قرارة نفسه يحب الإسلام والمسلمين، ويجعل الله شاهداً على ما يقول.

الثانية : شدة عداوة المنافق للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولسالته وللمؤمنين.

وفيه حرز للمسلمين من ديبب الشك في نفوسهم بالنفاق.

الثالثة : حالما تسنح الفرصة للمنافق يظهر عداوته للإسلام.

الرابعة : إضرار المنافق بمعايش الناس عامة لأن إهلاكه الحرث والنسل لا يختص بالمسلمين وزراعتهم ودوابهم.

الخامسة : إصرار المنافق على الفساد والإفساد في الأرض، وهل البقاء على النفاق من الفساد الجواب نعم، فانه فساد بالذات والأثر لذا جاءت هذه الآيات لفضحه والإنذار منه ومن أهله.

السادسة : عندما تتوجه الدعوة للمنافق بتقوى الله يصبر على فعله وتلبسه بالنفاق.

فذكر هذه الصفات يجعل المؤمن يدرك سلامته من النفاق في القول والفعل والحالة النفسية، لتكون هذه الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، من وجوه:

الأول : بعث السكينة في نفس المسلم بسلامته من النفاق والشقاق، لخلو قلبه من الخصومة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : تنمية ملكة الأخوة بين المسلمين برداء السلامة والإحترار من النفاق، لذا وردت آية الأخوة بلفظ الإيمان وليس الإسلام، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

الثالث : تفقه المسلمين في الدين بمعرفة خصال النفاق.

الرابع : حرمة رمي المسلم بالنفاق إلا باجتماع الشرائط ومنها إضمماره العداوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورغبته في حقوق الضرر بالمسلمين والإصرار على الإثم خاصة، والدعوة في بدايتها والمشركون أقوى شوكة وأكثر عدداً وعدة.

الخامس : لزوم فطنة المسلمين وحذرهم من النفاق والمنافقين بما يمنع من سيادة النفاق في أمصار المسلمين وثغور الإسلام.

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

السادس : تسليح المسلمين بالعلم بأمور:

الأول : وجود منافقين بين ظهرانيهم.

الثاني : آية البحث عون للمسلمين في حربهم على النفاق.

الثالث : تعيين أظهر خصال المنافقين.

الرابع : وهن وضعف المنافقين وعجزهم عن الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، لقوله تعالى في الآية التالية وبصيغة الشرط ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(١) الفساد^(٢) فان قلت إن الأخنس بن شريق حينما إنصرف من النبي سعى في الأرض فساداً.

فإن تولي أبي بن أبي سلول وإنخزله بثلاث جيش المسلمين بقوله علام تقتل أنفسنا^(٢)، فساد وضلالة وغدر لم يحصد منه إلا الخزي وإضرار بنفسه والذين عادوا معه، أما المسلمون فانهم لم يخذلوا ولم ينكسروا في معركة أحد وإن أصابتهم خسائر في الأرواح من وجوه:

الأول : الذين قتلوا منهم فازوا بالجنة أما قتلى الكفار ففي النار خالدون فيها.

الثاني : حمل أبي بن أبي سلول إثمهم وإثم الذين رجعوا معه لأنه إمامهم والمحرض على الرجوع من غير أن ينقص من إثم هؤلاء الذين أنصتوا له ورجعوا معه.

(١) سورة البقرة ٢٠٥.

(٢) الدر المنثور ٢/٤٨٠.

الثالث : في تحريض رأس النفاق فريقاً من جيش المسلمين على الرجوع في الطريق إلى أحد بلحاظ آية البحث أمور:

الأول : إنكشاف زيف قول أبي وإظهاره النصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : ظهور عداوة أبي الصريحة للإسلام، خصوصاً وإن صيغ ومقدمات تنصيه ملكاً على يثرب قبل مجئ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغت مراحلها الأخيرة.

الثالث : أراد أبي بن أبي سلول الإفساد في الأرض من جهات:

الأولى : إظهاره النفاق والخذلان للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

الثانية : محاولته بعث الفرع والخوف في نفوس المؤمنين من جيش المشركين.

الثالثة : سلطانه على فريق من جيش المسلمين، ورجوعهم معه.

الرابعة : محاولة بعث الفرع والخوف في نفوس أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد زحفت قريش وغطفان بجيش هو ثلاثة أضعاف المسلمين وعدتهم ومؤونهم أكثر أضعافاً، ثم ينسحب ثلث جيش المسلمين وهم بحاجة إلى المقاتل والفرد الواحد الذي يزيد سوادهم، ومع هذا لم يضعفوا ولم يهنوا وقاتلوا جيش المشركين وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى رجع إليه أصحابه.

الخامسة : كأن رأس النفاق هيئ لمحاربة صرح الإسلام بفتح ثغرة في جيش المسلمين من جهة العدد والعدة لولا رحمة الله بهم قال تعالى ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا آتٍ يُمِزُّ نورهٖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

وما خشي منه أبي بن أبي سلول بقوله: علام تقتل أنفسنا، لم يحصل ، فقد نزل الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين وإنهزم المشركون، ويدل على خيبة أهل النفاق قوله تعالى بخصوص معركة أحد ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢)، ولابد من إعادة كتابة التاريخ بخصوص معركة أحد بقراءة قرآنية بأن المسلمين حققوا في معركة أحد النصر أيضاً مثلما إنتصروا في معركة بدر، ولم ينهزموا ولم ينكسروا ولكن خسائرهم كانت في أحد أكثر والمدار ليس على الخسائر وحدها، قال تعالى ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾^(٣).

لقد كانت معركة أحد الحرب الفاصلة للقضاء على النفاق، فيها انحسر النفاق وبان وهنه، وعجز أربابه عن التأثير في الوقائع والأحداث وإلى يوم القيامة، فرأس النفاق أبي بن أبي سلول في الحقيقة لم يحذر أصحابه من القتل، بل حذر من إنتصار المسلمين وثباتهم في المعركة وهزيمة المشركين، وهو الأمر الذي حصل فعلاً فقد انسحب المشركون خائبين لم يستطيعوا قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه

(١) سورة التوبة ٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) سورة النساء ١٠٤.

بل إنهزموا يجرّون أذيال الخزي والعجز عن زحزة سلطان نواة الدولة الإسلامية، وهذا الخزي أعم من أن يختص بمعركة أحد فقد شهدت الأيام التي تلتها دخول قبائل وجماعات كثيرة في الإسلام، لأن معركة أحد أظهرت للناس معجزة حسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميادين الدفاع من وجوه:

الأول : سلامة بيضة الإسلام.

الثاني : ثبات المسلمين مع قلة عددهم ، وفيه دلالة على صدق الدعوة وإخلاص الولاء وحرب على النفاق وطرده من النفوس والمجتمعات.

الثالث : مع التأريخ العريق لقريش وهيتها بين القبائل، ومعرفة أركان الدولة الرومانية والفارسية لرجالاتها فانها لم تستطع قهر دولة الإسلام التي لم تمض عليها ثلاث سنوات، وهذا العجز هزيمة أخرى لقريش، وبعث للفرع والخوف في قلوب أعداء المسلمين .

وإعراض الدول العظمى آنذاك عن نصرة قريش والذين ذهبوا إلى هرقل وطلبوا النصرة والعون والمدد ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين فان قلت إن جيش المشركين يوم أحد جاء من الخلف لجيش المسلمين وإستطاع قتل عبد الله بن جبير ومن بقى معه من أفراد سريته مما أدى إلى إنكسار جيش المسلمين وإستدارت الرحى وصارت الريح دبوراً أنا ما ، والجواب هذا صحيح ولكنه لم يؤد إلى هزيمة المسلمين في المعركة ولا إلى خسارتهم إنما كانت موعظة وعبرة وسبب قوة للمسلمين، فالجيش القليل الذي لم ينكسر مع مجئ العدو بخيله وخيلائه من الجهات المختلفة لن ينهزم بعدها، وهو الذي أقرت به قريش فامتعت عن إقتحام وعبور الخندق الذي حفره النبي محمد صلى الله

عليه وآله وسلم والمسلمون في أطراف المدينة ولا بد من دراسة موضوعية معركة أحد في أمور:

الأول : رجوع قريش من معركة الخندق خائبين.

الثاني : عدم إعداد جيش لغزو المسلمين بعد معركة الخندق.

الثالث : ميل قريش للصلح، وفعلاً تم صلح الحديبية الذي هو معجزة أخرى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشاهد على إنتصار المسلمين في معركة أحد، خيبة أبي بن أبي سلول في رجوعه وأصحابه ليخلف الندم في نفوسهم والإثم إلا من أدركته التوبة وأحسن إسلامه.

وبعد أن ذكرت الآية الإعجاز الإبتدائي بقول المنافق في الدنيا ذكرت الآية الكريمة إعلان المنافق لسلامة ما في قلبه، وخلوه من الغدر والخيانة والغش للمسلمين، ومن إعجاز لغة القرآن أنها لم تترك كلام المنافق والكافر بمفرده من غير رد وفضح كما في قوله تعالى في ذم المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(١).

وجاءت آية البحث بالرد على المنافقين بقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَصَّامُ﴾ ترى لماذا هذا الكشف والفضح ، الجواب من وجوه:

الأول : إشهاد المنافق لله عز وجل على ما في قلبه وفيه إبهام وتغريب بالمسلمين، فدفع الله عز وجل هذا الإيهام ورفع عنهم الجهالة والغفلة في خصوص المنافقين.

الثاني : بيان علم الله بما في قلوب الناس.

الثالث : بعث الفرع والخوف في قلوب المنافقين ودعوتهم للتوبة والإنابة، لأن الآية إخبار سماوي عن حقيقتهم وكشف نيتهم الإضرار بالإسلام.

الرابع : صد الناس عن منازل النفاق لما فيه من الفضح والخزي في النشاطين.

وهو مصداق عملي لقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَمَ﴾ بتقريب أن المنافق يظهر من القول والفعل ما يدل على عداوته، الجواب نعم قال تعالى ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(١)، وجاءت الآيات والأخبار باظهار رأس النفاق أبي بن أبي سلول عداوته للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في مواطن عديدة، قال تعالى ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، بالإضافة إلى الآيات المكية التي تحكي حال المنافقين والكافرين من قريش وصيغ عداؤهم للإسلام.

ومن السنة النبوية التي تفسر آية البحث قول النبي صلى الله عليه وآله: ما أودى نبي مثل ما أوديت^(٣)، فالمنافق يأتي بزخرف القول ثم يظهر عداؤه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من منازل الغدر وبصيغ الخيانة الخفية.

من غايات الآية

(١) سورة محمد ٣٠.

(٢) سورة المنافقون ٨.

(٣) مفاتيح الغيب ٢/٤٥٤.

الأولى : بيان خصال المنافقين.

الثانية : تحذير المسلمين من المنافقين.

الثالثة : دعوة المسلمين لعدم الإكتفاء بظاهر القول الخاص بالدنيا.

الرابعة : إجتنب إتخاذ المنافقين بطانة وعضداً لرجحان صدور الخذلان منهم في حال الشدة والخرج، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾^(١).

الخامسة : شهادة المنافق على نفسه بالزور والإيهام وكذبه وإفترائه على الله عز وجل بأنه سبحانه يشهد بصدق نيته وصدق إيمانه.

السادسة : تكذيب الله للمنافق والإخبار عن إمتلاء قلبه عداوة للمسلمين.

السابعة : إصلاح المسلمين لإمامة الناس باطلاعهم على أحوال جماعة المنافقين.

الثامنة : عدم إغترار المسلمين بزخرف القول الذي يأتي بع المنافق.

التاسعة : دعوة المنافقين للتوبة والإنابة، فإخبار الإنسان بعلم الله بما في قلبه، يجعله في حال من الحذر والسعي للتنزه مما ييغضه الله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك^(٢).

(١) سورة آل عمران ١١٨.

(٢) الدر المنثور ١٠٢/٢.

العاشرة : إخبار المسلمين عن وجود أعداء لهم بين ظهرائهم مما يستلزم الحذر والحيلة منهم مجتمعين ومتفرقين.

الحادية عشرة : الآية حرب على أخلاق وعادات النفاق، وبيان قبح النفاق.

الثانية عشرة : لاخير بالإعجاب والبهجة عند الإستماع لقول المنافق في الدنيا وإظهاره المحبة والمودة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، ويتفضل الله عز وجل بكشف نفاقه وفضحه وخزيه.

الثالثة عشرة : ورد وصف المنافق بأنه (ألد الخصام) وهو أفعل تفضيل بمعنى أنه أشد أعداء المسلمين، ولا يعني هذا أنه أكثر عداوة من الكافر على نحو الدوام فكل واحد منهم ألد الخصام وليس من تعارض في المقام .

الرابعة عشرة : آية البحث مدد سماوي يومي للمسلمين والناس جميعاً في قصر حبل النفاق وطرده من النفوس ومنع تأثير المنافقين في ميادين الدفاع والعبادات لأنها تجعلهم يشغلون بأنفسهم، وتدعوهم للتوبة، ولو كان المنافقون عدداً محدوداً فهل الذين ماتوا على النفاق هم أكثر أم الذين تابوا وأصلحوا أمرهم، الجواب هو الثاني، ولآية البحث موضوعية في توبتهم.

الخامسة عشرة : من أسرار القراءة في الصلاة اليومية محاربة النفاق والهجوم على خصاله الظاهرة والخفية فحينما يقرأ المسلمون آية البحث في الصلاة فانها إحتراز متجدد من النفاق.

السادسة عشرة : بقاء المسلمين في حال يقظة وحذر من الكفار والمنافقين إلى يوم القيامة، وهذه اليقظة سبب لإستدامة وحدتهم

وأخوتهم وقوتهم وتأهلهم للدفاع عن الإسلام، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾

بعد بيان احكام الحج والإرشاد الى كيفية الدعاء ومسالك التقوى، جاءت الآية للتحذير والتنبية من المنافقين وكشف سماتهم وما يتصفون به من الخداع وصيغ الإخفاء، ومحاولة كتمان حقيقة ما يظنون والتضليل على المسلمين مما يكون سبباً بالإضرار بالدين واربك مناهج المسلمين في الفتح والبناء، فجاءت هذه الآية لدرء اسباب المنع وما يسببه هؤلاء من متاعب ومشاق.

وبذلك يمكن معرفة نصرة القرآن للمسلمين ودفاعه عنهم وان كانت هذه المعرفة اجمالية ومحدودة، وتبين الآية حب المنافقين للدنيا واهتمامهم بها والإعتناء بموضوعها واصرارهم على الإعراض عن الآخرة وهي دار المقام.

والآية خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الا انها عامة وموجهة لكل المسلمين خصوصاً اهل الحل والعقد منهم كي لا يغتروا بالمنافقين من المخادعين والذين يريدون ان يتسللوا الى مصادر القرار، ويحوزوا على المنافع والمصالح الخاصة من غير خشية من الله تعالى

(١) سورة آل عمران ١١٠.

اولئك الذين لم يلتفتوا الى ذكره تعالى وتكبيره، لقد جاءت الآية بعد بيان شطر من صفات المتقين وحثت على التحلي بها بفضح المنافقين وما يتوددون به الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بكلام يروق لهم ويسرهم سماعه.

لذلك ترى الآية جاءت بلفظ (من الناس) في ارادة الجنس البشري واشارة لتنزيه المسلمين وان هذا القول ليس منهم.

وقيد ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يتعلق حسب الظاهر بموضوع كلامهم، أي انهم يتكلمون كلاماً ساراً ومتضمناً التفاضل في احوال الدنيا وتنظيم شؤونها، وهذا وحده لا يدل على الدم المحض لأنه لو كان علة تامة للذم لما اعجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لا يرضى الا بالحق وما لا يتعارض معه وان كان بخصوص الأمور الدنيوية.

جاءت الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحتمل وجوهاً:

الأول : إرادة المسلمين لأن القرآن نزل بلغة إياك اعني واسمعي (ياجارة).

الثاني : المراد المسلمون والمسلمات إلى يوم القيامة.

الثالث : يحمل معنى الآية على ظاهر اللفظ، والمراد خصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالآية من مختصاته ويدل عليه سبب النزول.

الرابع : الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد هو وأجيال الأمة المتعاقبة.

والصحيح هو الرابع، لوجوه:

الثاني : من إعجاز القرآن توجه الخطابات للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولحق الأمة به.

الثالث : عموم إبتلاء المسلمين بالمنافقين الذين يعيشون بين ظهرانيهم.

الرابع : لزوم بذل الأمة الوسع لمحاربة النفاق ودفع أضراره.

فان قلت كيف يعجب قول المنافق بخصوص الدنيا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١)، والأصل أنه يعلم بالعلم اللدني والوحي كذب إدعاء المنافق، والجواب من وجوه:

الأول : أن الإعجاب بالقول غير النطق والحكم.

الثاني : يعلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأمر بالوحي وإخبار جبرئيل والتنزيل.

الثالث : آية البحث من مصاديق الوحي في المقام، ففي ذات الوقت الذي أخبرت فيه عن إعجاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقول المنافق فانها أخبرت عن أمور:

الأول : إفتراء المنافق على الله.

الثاني : إشهاد الله على أمر لا أصل له في قراره نفسه.

الثالث : إخبار الآية عن عداوة المنافق للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

الرابع : عدم إكتفاء الآية بذكر عداوة المنافق بل وصفته بأنه ألد وأشد الأعداء.

ليكون من خصائص الوحي والتنزيل أمور:

الأول : إتخاذ الواقعة مناسبة لبيان موضوع وما يترتب عليه من حكم.

الثاني : الآيتان موعظة ومثال لشواهد متجددة مع تقادم الأيام.

الثالث : دوران المعنى والتأويل على عموم اللفظ وليس سبب النزول ، وفي الآية مصداق لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، من وجوه :

الأول : عدم وجود حواجز وموانع دون وصول الناس إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو لم يختص بصلاته على خاصة أصحابه أو أهل بيته فحتى المنافق والكافر يستطيع الوصول إليه.

الثاني : كلام الناس في حضرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على تجلي معاني النبوة في أخلاقه.

الثالث : عدم خشية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل النفاق والكفر على نفسه.

الرابع : في الآية شاهد على إطمئنان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه، ووثاقته من إيمانهم، وأن المنافق حينما يتقرب إليه بالكلام الحسن في الدنيا لاينخدع به، لأن هذه الآية واقية وحرز.

وجاءت آية البحث لعصمة المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة من الإفتتان بالمنافق وقوله الحسن في الدنيا.

ومن معاني مجئ الآية بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو التعيين منع الغرور وطرد الغفلة والكسل عن المسلمين في أجيالهم اللاحقة، فلا يأتي بعضهم فيما بعد أيام التنزيل ليقول أن المسلمين صاروا أقوياء وكثر عددهم وانتشروا في مشارق ومغارب الأرض.

فلا نلتفت لكيد المنافقين لأنه لا يضر المسلمين بعد أن قامت دولتهم وأصبح أداؤهم للفرائض، وتقيدهم بأحكام الحلال والحرام في المعاملات ملكة وتركة كريمة يعمل بها الوارث في زمان المورث وبعده.

تفسير قوله تعالى ﴿وَشَهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِي﴾

ذم وتوبيخ للمخادع والمنافق الذي يتجراً على الله عز وجل بادعاء ما ليس بصحيح وفيه حجة عليه لأنه يقر ويعترف بان الله عز وجل مطلع على الأفتدة فباء بغضب من الله عز وجل، والآية تحذير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين ولزوم عدم التصديق بدعوى المرائي والمنافق وبهذا لم يحصل المرائي من دعواه الا على الخزي في الدنيا بالإضافة الى العذاب الأليم في الآخرة.

وقرأ ابن محيصة (ويشهد الله على ما في قلبه) بفتح الياء أي انه لا يشهد الله على ما في قلبه ولكن الله يعلم انه كاذب، والقراءة المرسومة في المصاحف هي الأصح ولا عبرة بالقراءة الشاذة والنادرة خصوصاً اذا لم ترفع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ان فضح الآية للمنافق وقيامه باشهاد الله عز وجل على ما في قلبه وحقيقة ما يخفيه من العداوة للإسلام عون للمسلمين في حال الحضر

والدفاع واخذ الحائطة منهم، واذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعرف المنافق والمخادع بالوحي والعلم الحضورى فكيف يعرفه المؤمنون من بعده؟

الجواب: ان الآية تخبر عن كلامه الحسن في مصالح الدنيا وتدل في مفهومها بان المنافق والمخادع يتجنب الحديث عن الآخرة ويخشاه، بينما المؤمن يتكلم عن شؤون الآخرة ايضاً وهو يخاف مما فيها من البلاء كما ورد في الدعاء: (لأنه بلاء تطول مدته ويدوم مقامه ولا يخفف عن اهله)، والآية الكريمة تبين جانباً خطيراً من الرياء وترفع الأضرار الناجمة عنه بعد فضحه وتحذير المسلمين منه، كما ان الآية تصفه بشدة الخصومة مما يعني ان شدة الخصومة لا بد ان تبرز على لسانه في لحن القول.

ومن الأصول اللفظية التي تقتضي استبانة الحكم عند الشك في قصد المتكلم اصالة الظهور والبناء على ان مراده الجدي هو ما يفهمه السامع من كلامه وانه لم يتعمد اخفاء قصد آخر الا مع القرينة الصارفة، فهذه الآية جاءت للتنبيه على الإستثناء من هذه القاعدة، وان المنافق يخفي مراده الجدي وان الحكم الشرعي الخاص مقدم على البناء العقلاني العام.

ولابد من دراسة صفات المنافق وكيفية معرفته بما ورد في السنة النبوية الشريفة، وفي الصحيحين عن ابي الدرداء ان حذيفة صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، وكان عمر يسأله عن المنافقين وينظر اليه عند موت من مات منهم فان لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدا عمر، وقيد (منهم) في من مات منهم يفيد ان المنافقين معروفون عند الصحابة على نحو الإجمال.

وسئل حذيفة أي الفتن اشد، قال: ان يعرض عليك الخير والشر فلا

تدري ايهما تركب وقال: لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها.
يحتمل هذا الشطر من الآية وجوهاً:

الأول : إنه تنمة لأول الآية وتفيد(الواو) الجمع وتقديرها: يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله لك يا محمد على ما في قلبه.

الثاني : تعقب إشهاد الله على ما في قلبه لحسن كلامه في الدنيا أم التعدد والتباين في المجلس والمخاطبين، كما لو كان يتزلف إلى الصحابة ويحاول إيهامهم وجعلهم يطمثون إليه، ويحسنون الظن به.

الثالث : من سجايا وصفات المنافق خداعه لنفسه بأن يشهد الله على ما في قلبه، أي يدعي أن قلبه مملوء بالإيمان، ورجاء الخير للمسلمين.

الرابع : إشهاد المنافق لله على ما في قلبه موضوع مستقل قائم بذاته، ومنفصل عن زخرف قوله.

الخامس : تقسيم الآية إلى شطرين :

الأول : الإخبار عن إعجاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحسن قول المنافق في الدنيا.

الثاني : إدعاء المنافق الإيمان، وجعله الله عز وجل شاهداً عليه، فجاء التكذيب لهذا الإشهاد بأنه أشد الأعداء، وأكثرهم خصومة ولجاجة وتحدياً للمسلمين، فتكون الواو في (ويشهد الله) للإستئناف أيضاً على المبنى الذي ذكرناه في تفسيرنا هو جواز مجئ الواو للعطف والإستئناف مع قابلية المقام.

تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَمَ﴾

أخبار الهي عن حال المنافق والمرائي الحقيقية وما يحمله من كدورات ظلمانية تتمثل بالخصومة الشديدة والعداوة للإسلام،

والخصام مصدر بمعنى المخاصمة كالقتال والطعام، فهو كثير الجدل والعناد ومصدر للفتنة والنزاع، ولكن هذه الصفات لا تبرز على سلوكه في الحالات الإعتيادية لأنه يتجنب الحديث عن الآخرة ويحرص على الإهتمام بالدنيا والمعنى مركب وهو ان شدة الخصومة صفة وسجية راسخة عنده، كما انها تبرز على لسانه وفعله اذا تعرض المسلمون لإبتلاء او داهمهم خطر.

فموضوع الآية اعم من ذكر صفات المنافق انها مدرسة القرآن التي تؤهل المسلمين للخلافة في الأرض وتشحذ همهم وتكشف لهم احوال عدوهم الظاهرة والخفية، ومنهم المنافق الذي يكون احياناً اشد واكثر ضرراً من العدو الكافر، يظهر الإسلام والقبول والتسليم ويخفي الضغينة والحسد والغدر.

تحتل جهة الخصومة في المقام وجوهاً:

الأول : خصومة وعداوة المنافق للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن الآية وردت بصيغة الخطاب له، وتقدير الآية: وهو ألد الخصام لك.

الثاني : عداوة المنافق للمسلمين في دينهم وحسده لهم على إيمانهم وتحقق الإنتصارات المتعاقبة للمسلمين.

الثالث : بغض المنافق للناس.

الرابع : عداوة المنافق للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والناس جميعاً والحق والعدل.

والصحيح هو الرابع، لأن النفاق تباين بخصوص موضوع الإيمان والكفر وإجتماعهما عند المنافق مع أنهما من المتضادين، ولكن هذا الإجتماع شبهة بدوية تزول بأدنى تأمل، فهما مفترقان في المحل، فالإيمان

هو الظاهر، بينما يكمن الكفر في القلب، فجاءت آية البحث لتخترق شغاف القلب وتتوجه سهامها إلى النفاق وندبته السوداء في القلب من أجل إحيائه بالإيمان والبصيرة.

وفي الآية دعوة للمسلمين للحيلة والحذر من المنافقين، ومنه توليتهم مقاليد أمور ورياسات وتصرف في بيت المال، لأن المنافق يظهر عداوته عندما تطلق يده في عالم الفعل والأمر، قال تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَالٍ﴾^(١).

ومن إعجاز الآية إخبارها الناس بأن سوء فعل المنافق لا ينسب إلى الإسلام وأصحاب وأهل بيت وأتباع رسول الله، ولا تصح مؤاخذه المسلمين على فعل المنافق ولا جعله مادة في الجدل والاحتجاج، إذ أن آية البحث تتبرأ منه وتخبر بأنه عدو للمسلمين، وتحتل مراتب العداوة وجوهاً:

الأول : عداوة المنافق للمسلمين أشد من عداوته لأهل الكتاب والملل الأخرى.

الثاني : التساوي في مراتب عداوة المنافق للمسلمين ولغيرهم من الناس.

الثالث : بغض وخصومة المنافق لغير المسلمين أشد من بغضه وعداوته للمسلمين.

الرابع : إنحصار خصومة وداوة المنافق بالمسلمين، وهو يجب أهل الكتاب والملل الأخرى.

(١) سورة آل عمران ١١٨.

والصحيح هو الأول ، وهو من أسرار توجه الخطاب في الآية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولأن خصومة المنافق تترشح من طبي قلبه على الكفر وعدم إستجابته للنبوة ومعجزاتها، وإمتناعه عن إختيار وقصد من التدبر في آيات القرآن، وهل الجدال بالباطل من خصومة المنافق للإسلام ، الجواب نعم.

ويكون الخصام والعداوة للمسلمين على وجوه:

الأول : الخصومة والعداوة الظاهرة وهي على شعبتين:

الأولى : ما يظهر بالقول واللسان والجدال واللجاج ، والمنافق يحرص على عدم إظهار عداوته باللسان بل يتكلم عن الدنيا بما يعجب السامع.

الثانية : العداوة بالفعل وليس له حصر فهو على مراتب متعددة ومتباينة أشدها السيف.

الثاني : العداوة بالقلب، وإضممار الكراهية.

الثالث : الفرد الجامع للعداوة والخصومة بالقلب والقول واليد.

الرابع : إختصاص العداوة بالقلب والقول، وعدم بلوغها مرتبة التعدي والظلم باليد والسلاح.

وجاءت آية البحث لتنزيه القلوب من درن الكره للإيمان وأهله، وبعث النفرة من النفاق، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾^(١).

وتبين الآية أن عداوة المنافق للمؤمنين مطلقة وشاملة للوجوه أعلاه ولكنه لا يظهر منها إلا ما يقدر عليه بحسب الحال والمقام والخشية من المؤمنين، ومن خصائص المنافق أنه يتخذ القول الجميل والمراعاة طريقاً ومقدمة لإظهار عداوته فجاءت آية البحث لقبر هذه العداوة في قلبه ومنعها من الخروج إلى عالم الفعل.

ولم تذكر الآية على نحو التعيين الجهة التي يذمر لها المنافق العداوة، وفيه وجوه:

الأول : المنافق ألد الخصام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برسالته.

الثاني : خصومة المنافق للقرآن والتنزيل، وقيامه بالجدال والمغالطة.

الثالث : بغض المنافق للعدل والإنصاف والحق.

الرابع : عداوة المنافق للمسلمين، وعدم رضاه على إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدق إيمانهم، وفي التنزيل ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(١).

الخامس : كره المنافق للناس وإرادته الإضرار بهم مع إدعائه الإيمان ليمنعهم من دخول الإسلام، ويجعلهم يؤذون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

السادس : المنافق أشد الخصام لظهور دولة الإسلام والإجهار بأداء الفرائض والعبادات.

ولا تتعارض هذه المعاني من إرادة الإحتجاج على المنافق في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْصَحَكُمْ﴾ وتكذيب إدعاء إخلاصه الإيمان وطهارة قلبه.

قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ الآية ٢٠٥.

الإعراب واللغة

واذا: الواو: عاطفة، اذا: ظرف لما يستقبل من الزمن يتضمن معنى الشرط، تولى: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والجملة الفعلية في محل جر بالإضافة.

سعى: فعل ماض، في الأرض: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل سعى.

ليفسد فيها: اللام للتعليل، يفسد: فعل مضارع منصوب بان مضمرة بعد لام التعليل والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو)، والجار والمجرور متعلقان بيفسد.

ويهلك الحرث والنسل: الواو: عاطفة، يهلك: فعل مضارع منصوب لعطفه على سعى ، الحرث: مفعول به منصوب، والنسل : معطوف على الحرث بحرف العطف الواو.

والله: الواو: استئنافية، اسم الجلالة: مبتدأ مرفوع بالضممة ، لا: نافية، يجب: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله عز وجل.

الفساد: مفعول به منصوب والجملة الفعلية في محل رفع خبر.

الولاية: بكسر الواو: الإمارة والسلطنة واخذ مقاليد الأمور وزمام الحكم، وفي حديث الغدير المشهور بالتواتر اللفظي عند جميع المسلمين(من كنت مولاه فعلي مولاه)^(١).

والسعي له عدة معان أهمها:

الأولى : العدو والجري.

الثانية : المشي.

الثالثة : العمل.

الرابعة : القصد.

الخامسة: الذهاب.

السادسة : الكسب.

السابعة : قال الزجاج: اصل السعي في كلام العرب التصرف في كل عمل.

والمراد من السعي في المقام هو المواظبة على فعل ما فيه الفساد

والضرر والأذى.

والحرث: المتاع والمال وما فيه الكسب واسباب الزراعة ومنها حراثة الأرض، والنسل: الخلف والولد والذرية، يقال: تناسل بنو فلان اذا كثر اولادهم.

في سياق الآيات

بعد بيان حال التناقض والتباين بين ظاهر المنافق المخادع وبين ما يكنه في نفسه، جاءت هذه الآية برهاناً خارجياً على ما يخفيه في نفسه من الشر والمكر واظهار سوء السريرة.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين :

الأولى : صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾^(١)، وفيها مسائل :

الأولى : إبتدأت كل من الآيتين بحرف العطف (الواو) مع التباين

الرتبي في موضوع العطف، فأية السياق تختلف في موضوعها مع الآية السابقة، أما آية البحث فانها تتحد في موضوعها مع آية السياق.

لتبين هذه الآيات حقيقة وهي أن العطف بالواو على مراتب قوة وضعفاً، وإتحاداً وتعددأ في الموضوع، فكل من آية السياق والبحث تتعلقان بالمنافق في سنخيته ونواياه الخبيثة وفعله.

الثانية : جاءت آية السياق بصيغة الجملة الخبرية من جهة قول المنافق وإضماره العداوة للمسلمين، أما آية البحث فجاءت بلغة الشرط ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ وهي خصلة ذم أخرى.

الثالثة : حينما يتكلم المنافق عن نفسه وعن الدنيا لا يذكر أبداً عزمه على الفساد والإفساد فهل هذا العزم متنف حيثئذ، ولا يتولد إلا عند توليه الجواب لا، ولكن من خصائص النفاق أمور:

الأول : إخفاء الكفر، وإظهار الإيمان.

الثاني : التغطية بزخرف القول على ما يبغى من العداوة للمسلمين.

الثالث : الإجهاد في عدم إظهار نية الإضرار بالمسلمين والناس عندما تنهياً له مقدماته.

الرابع : مواطئة الكفار، والإخبار عن ثغرات بلاد المسلمين وثغورهم.

الثالثة : لما أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ جاءت آية البحث لبيان مصاديق شدة خصومة وداوة المنافق للمسلمين وفيه أمور:

الأول : إحتراز المسلمين من المنافق.

الثاني : توارث المسلمين للإيمان، وحرصهم على حصانة ذرائعهم من النفاق.

الثالث : محاربة المسلمين للنفاق، وبذلهم الوسع لمنع ديبه في النفوس والمجتمعات.

الرابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ومن مصاديق الفساد بلحاظ آية السياق أمور:

الأول : القول بالدنيا وزينتها مع قصدها بذاتها وليست بصفتها مزرعة للآخرة.

الثاني : كذب وإفتراء المنافق على الله باعلانه إشهاد الله على ما في قلبه وإدعائه حبه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

الثالث : إضمار المنافق عداوته الشديدة وبغضه للمسلمين.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١)، وفيه مسائل :

الأولى : التباين الموضوعي والحكمي بين متعلقي الآيتين، إذ تتعلق آية البحث بالمنافق ورغبته وعزمه التعدي والجور على المسلمين والناس أما آية السياق فتتعلق بالمسلمين وأدائهم لمناسك العبادة، وإقامتهم لشعائر الله.

الثانية : يحتمل النفاق وحاله في الأيام المعدادات التي يذكر بها المسلمون الله وجوهاً:

الأول : إنحسار وتضاؤل النفاق مدة إنقطاع المسلمين إلى الذكر.

الثاني : ذات التأثير والأثر للنفاق في أيام الذكر والحج خاصة، وهي لا تختلف عن أيام السنة الأخرى.

الثالث : إزدیاد ظهور النفاق في أيام الذكر، فكلما اجتهد المسلمون في طاعة سعى المنافقون في محاربة الإسلام، والصحيح هو الأول، وتلك آية في بعث الله للمسلمين لذكره في أيام مخصوصة بأن يكون من منافعها تنحية النفاق عن النفوس وإزاحة سلطانه عن القلوب ومنع تأثيره في المجتمعات لأن ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾^(١).

الثالثة : اختتمت كل من آية السياق والبحث بالوعيد للمنافقين فبقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢)، فيه وعد كريم للمؤمنين، ووعيد للكفار والمنافقين إذ تعرض أعمالهم وعزمهم على الإفساد في الأرض في ميزان الحساب، كما يدل إختتام آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٣)، على الوعيد للمنافقين.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٤)، وفيها مسائل :

الأولى : يتعلق موضوع كل من الآيتين بشر من الناس، مع التباين بين الفريقين.

الثانية : جاءت آية السياق في الثناء على المؤمنين لتوجههم بالدعاء إلى الله عز وجل في أمور الدنيا والآخرة، أما آية البحث فتتضمن الذم للمنافقين.

(١) سورة التوبة ٤٠.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣.

(٣) سورة البقرة ٢٠٥.

(٤) سورة البقرة ٢٠١.

الثالثة : ينوي المنافق الإفساد في الأرض إن تولى، أما المؤمن فانه منقطع إلى الدعاء في حال الرخاء والشدة ولأموال الدين والدنيا، وهل مواظبة المؤمن على الدعاء برزخ دون تولي المنافق وإشاعته الفساد في الأرض، الجواب نعم، ومن أسرار تقدم آية السياق ومضامينها القدسية في إنقطاع المؤمن للدعاء أمور:

الأول : الإخبار عن حال المنافق بعد الإخبار عن حال المؤمن كيلا يفتتن الناس بالمنافق.

الثاني : إستجابة الله لدعاء المؤمن، فيكون من مصاديق إتيان المسلمين الحسنة في الدنيا منع المنافق من الإفساد في الأرض.

الثالث : ترغيب الناس بالدعاء والمسألة، وجعل نفوسهم تنفر من النفاق وأهله.

الرابع : دعوة المسلمين لأخذ الحائطة في الدين والحيلولة دون حدوث وإتساع الفساد في الأرض سواء كان صادراً من المنافق أو من غيره.

الخامس : حدوث النقص في عدد المنافقين، وبث الوهن والضعف فيمن أقام على النفاق، لأن آية السياق تجذب الناس إلى منازل الإيمان، وتبين ضرورة الدعاء والإستعانة بالله عز وجل لحاجات الدنيا والآخرة، وفي التنزيل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

السادس : إقامة الحجة على المنافق في الدنيا والآخرة بأنه يعلم بوجود شطر من الناس يجتهدون في الدعاء، ويرجون الخير من عند الله، بينما يسعى المنافق إلى الفساد في الأرض ولو رجع المنافق إلى عالم

الدعاء وسأل ما ورد في آية السياق من رجاء الحسنة والفلاح في الدنيا. والحسنة والثواب في الآخرة فهل يصح منه.

الجواب يفيد الجمع والتفريق بين الآيتين التباين والتضاد بين الدعاء للدنيا والآخرة وبين النفاق، فالدعاء للدنيا والآخرة تنزه عن النفاق وإعلان للبراءة منه أي لا يجتمع الدعاء للدنيا والآخرة وسؤال النجاة من النار مع النفاق في قلب العبد.

الرابعة : كل من آية البحث والسياق إنذار وحث للمنافق لهجران النفاق ودعوة له لولوج مدرسة الدعاء وما فيها من مفاتيح الكنوز في أفراد الزمان الطولية، وهل ينفع الدعاء لقادم الأيام في محو أثر النفاق في الأيام السالفة الجواب نعم، فهو من موارد توبة الله عز وجل على العبد.

الخامسة : اختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ وفيه بلحاظ آية السياق أمور:

الأول : الإنقطاع إلى ذكر الله أمن من الفساد.

الثاني : سلامة المؤمن من الفساد الذي لا يحبه الله.

الثالث : تدل خاتمة آية البحث في مفهومها على أن الله يحب فعل الخير، والسعي في طلب مرضاته بالإصلاح وإجتنب الفساد.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ

بِإِثْمِهِ^(١)، وفيها مسائل :

الأولى : إتحاد موضوع الآيتين في بيان خصال المنافق، ويدل مجئ ثلاث آيات متتاليات وهي آية البحث والآيتان السابقتان واللاحقة لها في بيان خصال المنافق المذمومة على أمور:

الأول : تأكيد توبيخ المنافق.

الثاني : بيان القبح الذاتي والعرضي للنفاق.

الثالث : طرد الغفلة والجهالة عن المسلمين والناس جميعاً بخصوص النفاق، فقد يتهاون بعض المسلمين في الصلة مع المنافقين ولا يجعل موضوعية ولا يرتب أثراً على إخفائهم الكفر، فجاءت الآية تحذيراً.

الثانية : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : وإذا تولى قيل له اتق الله.

الثاني : وإذا قيل له اتق الله سعى في الأرض ليفسد فيها.

الثالث : وإذا تولى أخذته العزة بالإثم.

الرابع : وإذا تولى حسبه جهنم.

الخامس : وإذا قيل له اتق الله يهلك الحرث والنسل.

السادس : وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها فحسبه جهنم ولبئس المهاد.

الثالثة : إبتدأت كل من الآيتين بأداة الشرط (إذا) وعلى إرادة معنى الولاية في قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ فقد لا يتولى المنافق السلطان والحكم، ولكن توجهت له الدعوة بتقوى الله لوجوبها، ولزوم خشية الناس من الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ

إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(١)، ومن إعجاز آية السياق أنها لم تذكر النهي عن النفاق بصيغة الأمر بل بصيغة القول ليشمل وجوهاً:

الأول : قول المسلمين للمنافقين بلزوم تقوى الله.

الثاني : تلاوة المسلم لآيات التقوى والحث عليها، وإستماع المنافق لها وإن سمعها بالعرض، وتلك آية في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فيقرأ المسلم الآية القرآنية مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٣)، فتكون حجة على المنافق ودعوة له للخشية من وتجلي هذه الخشية بالتوبة والإنابة والإقرار بقبح النفاق ولزوم سلامة السريرة وعدم الغل والحسد للمؤمنين.

الرابعة : من أسرار العطف بين آية البحث والسياق إتحاد الموضوع بمجئ كل من الآيتين بذكر خصال وصفات يعرف بها المنافق ليفيد الجمع بين الآيتين أموراً:

الأول : محاولة المنافق الفساد في الأرض.

الثاني : إتصاف المنافق بخصلة قبيحة وهي إهلاكه للزرع والدواب إذا تولى الحكم أو إنفرد بالزرع والماشية وتهيئت له مقدمات الفرار من المسلمين وحكم الحق.

الثالث : إصرار المنافق على الإثم والذنب عندما يدعى إلى الهدى.

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة النساء ١.

الرابع : حرمان المنافق نفسه من تقوى الله وهي أبهى حلة يتزين بها الإنسان في الدنيا وتكون له مصباحاً ونوراً في الآخرة، قال تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...﴾^(١).

الخامسة : أختتمت آية السياق بما يفيد ذم المنافق ووعيده بالنار على خصاله المذمومة وعداوته للإسلام، وإرادته إشاعة الفساد، وما فيه من محاربة لمبادئ الصلاح التي جاء الأنبياء ونزلت الكتب السماوية بها، ومن الآيات أن الوعيد لم ينحصر بالإخبار عن سوء عاقبة المنافق ودخوله النار، بل جاءت بدم إضافي له إلى جانب عذابه بقوله تعالى ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَكَبُشَ الْمِهَادِ﴾^(٢)، أي لإصراره على النفاق والضلالة لتدعو آية السياق في خاتمها المسلمين إلى عدم الحزن على المنافق في مصيره إلى النار، لوجوه:

الأول : المنافق رأى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وسمع آيات القرآن، فلم يرعو ولم ينتفع من هذه النعمة العظمى، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، ان الناس يرون كيف ينزل عليه الوحي، وتصيبه عرقاً في اليوم الشديد البرودة، مع الإعجاز في الآيات النازلة ومضامينها القدسية فيدخل الإيمان في قلوبهم، فتقل وتنقص أعداد المنافقين وتضعف حيلتهم ويصبحوا عاجزين عن الإضرار بالإسلام إلا على نحو القضية الشخصية والوقائع القليلة كما ورد في أسباب النزول بخصوص الأخنس بن شريق .

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) سورة البقرة ٢٠٦.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

ومن مصاديق الرحمة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنقطاع وضعف النفاق إنكشاف قبحه، فجاءت ثلاث آيات متتاليات بخصوص المنافق ونواياه، وإقامة الحجة عليه، وما ينتظره من العذاب الأليم يوم القيامة.

الثاني : إضممار المنافق العداوة للمسلمين مع إدعائه أنه منهم وأنه يحبهم ومستعد لبذل الوسع في سبيل الله كذباً.

الثالث : إفتراء المنافق على الله، وإشهاد الله على أن قلبه سليم وأنه يرجو الخير للمسلمين والله يعلم أنه يكتُم كفره وعداوته للمسلمين لقوله تعالى ﴿وَمَوْلَاذُ الْخِصَامِ﴾ فلو كان المنافق يعلم أن الله عز وجل ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١)، لما تجرأ وإفتري على الله من أجل غش المسلمين والتغريب بهم وبعث الطمانينة في نفوسهم ليجهز عليهم وعلى أموالهم.

الرابع : مقابلة المنافق دعوته إلى الخير بالعناد والإستكبار والإصرار على فعل الباطل.

الخامس : من صفات الله العدل وأنه سبحانه يحكم بالحق، ودخول المنافق النار من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

(١) سورة غافر ١٩.

(٢) سورة الزخرف ٧٦.

الأولى : ذكرت كل من آية البحث والسياق نهج وطريقة فريق من الناس، مع التباين والتضاد بينهما في الاعتقاد والفعل، ليفيد الجمع بين آيات القرآن حقيقة وهي بيان التضاد بين فعل أهل الإيمان والمنافقين فالمؤمن مستعد لبذل نفسه في سبيل الله ومن أجل صلاح الناس وسيادة العدل والحق وضرورة ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾^(٢)، أما المنافق فانه يسعى لإيذاء الناس وبث روح الفتنة والخصومة بينهم الأمر الذي يضرهم في عباداتهم ويشغلهم عن وظائف الطاعة لله عز وجل، قال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣).

وجاءت كل من آية البحث والسياق مصداقاً وتفسيراً للآية أعلاه بتقريب أن الله عز وجل يثبت المؤمن على إيمانه ويرغب الناس كما في آية السياق، ويفضح المنافق ويجعل النفوس تنفر منه، ومع التباين بين كل من الذين ذكرتهم آية البحث والسياق، فهل يمكن إجتماعهما في مصداق واحد من الناس، الجواب لا إلا بالتوبة، بأن يسمع المنافق آية البحث فيتوب إلى الله فيكون من أهل آية السياق ومن الذين ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ٢٠٧.

(٢) سورة التوبة ٤٠.

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

(٤) سورة الزمر ١٨.

الثانية : إبتدأت آية السياق بلغة التبويض (ومن الناس) ^(١)، مع الإختلاف في الموضوع والأشخاص فكل آية من الآيتين ذكرت طائفة غير التي ذكرتها الآية الأخرى، وفي هذا الإختلاف والتباين وجوه:

الأول : إنه جزء من إبتلاء الناس في الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ^(٢).

الثاني : بيان وظيفة من وظائف التنزيل وتتجلى بلحاظ آيتي البحث والسياق من وجوه:

الأول : الثناء على المؤمنين الذين يجاهدون بأنفسهم في طاعة الله.

الثاني : تذكير المنافق بسوء فعله، وإنذاره من الإقامة عليه.

الثالث : جعل الناس على بصيرة من أمرهم في معرفة أحوال الناس ومنهم من يسعى للإضرار بالمسلمين وهو معهم، ويظنون أنه منهم، و(المنافق هو الذي يضمّر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً) ^(٣).

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين أموراً:

الأول : إنذار المنافق من المؤمنين بأنهم يجاهدون في دفع الفساد الذي يسعى إليه المنافق.

الثاني : بيان التباين بين المؤمن والمنافق بما يتضمن رجحان كفة الإيمان وغلبة ونصر الإسلام فالمؤمن مستعد للتضحية بنفسه في سبيل الله، أما المنافق فانه يسعى للإضرار بالناس.

(١) سورة البقرة ٢٠٤.

(٢) سورة الأنسان ٣.

(٣) التعريفات ٧٦/١.

الثالث : تدل آية البحث بالدلالة الإلزامية على عدم إستعداد المنافق للتضحية بنفسه وماله، مما يعني هزيمة المنافقين وإنحسار أخلاق المرء بين الناس ، قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١).

الرابع : بعث السكينة في نفوس المؤمنين بالسلامة من شرور المنافقين، فحينما أخبرت آية السياق والآيتان السابقة واللاحقة لها عن عزم المنافقين الإساءة للإسلام والسعي فيما يضر الناس في معاشاتهم فقد يصيب طائفة من المسلمين الفزع والخوف منهم، أو يجعل بعضهم يحارب النفاق بقسوة وشدة، ويجهز على من يظن أنه منافق فجاءت آية البحث للدلالة على رجحان كفة الإيمان وجعل المؤمنين يطمثون ليومهم وغدهم، ولا يخشون من النفاق وأهله وفيه آية باصلاح المسلمين لمرتبة السمو والرفعة التي تتجلى بقوله تعالى ﴿وَيَذَرُوزَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾^(٢)، فلا يبطش المسلمون بالمنافق بل تكون مواجعتهم له من وجوه:

الأول : تلاوة آيات القرآن والتدبر بالآيات التي تدم النفاق والمنافقين، ويمكن تسميتها مدرسة (محاربة النفاق والإجهاز عليه).

الثاني : دعوة المنافقين للتنزه من النفاق وإخفاء الكفر.

الثالث : إسماع المنافق لآية البحث والسياق، وجعله يدرك قبح النفاق وسوء عاقبته.

(١) سورة الأنعام ١١.

(٢) سورة الرعد ٢٢.

الرابع : نذب المسلمين لدعوة المنافق للخشية من الله، وفي الحديث: رأس الحكمة مخافة الله^(١).

الرابعة : الجمع بين الآيتين مصداق لقوله تعالى ﴿اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فلا يضر المنافق إلا نفسه، ويلحقه الضرر والبلاء والعذاب في الدنيا والآخرة، فان قلت تدل آية البحث على إضرار المنافق بالزراعات والدواب ، والجواب جاءت آية البحث على نحو الشرط والإحتمال، وعلى فرض توليه فان أذاه وإتلافه لأموال المسلمين وزر عظيم ييؤ به في الدنيا والآخرة.

الخامسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ﴾ وأختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣)، ويفيد الجمع بينهما وجوهاً:

الأول : من رأفة ورحمة الله بالناس إخباره عن بغضه للفساد.

الثاني : بعث النفرة في نفوس الناس من الفساد والمفسدين.

الثالث : تطلع المسلمين إلى نزول البلاء والعذاب بالمفسدين.

الرابع : من رأفة الله دفع الله الفساد وآثاره عن الناس وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، بأن يكون من ملكه للأرض ومن عليها الخيلولة دون إضرار المنافق بالناس وممتلكاتهم.

(١) الدر المنثور ٢/٢٥١ .

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

(٣) سورة آل عمران ٣٠.

(٤) سورة النور ٤٢.

الخامس : من رحمة الله عز وجل بالناس نزول آية البحث وما تتضمنه من الإخبار عن سوء فعل المنافق، ودعوة المسلمين للحذر منه.

السادس : كل من آية البحث والسياق من مصاديق قوله تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾^(١)، ودليل على أن هذا البيان رحمة بالناس جميعاً بوقايتهم من النفاق، وهذه الوقاية مركبة من وجوه:

الأول : طرد النفاق من النفوس.

الثاني : تحصين المسلمين من النفاق ليكون الانتقال بطريق واحد، فالمنافق ينتقل إلى رياض الإيمان وليس العكس، أي لا ينتقل المؤمن إلى مستقع النفاق، وهو من مصاديق وغايات كل من آية البحث والسياق، والذي يتوب من النفاق ويغادر منزله هل يرجع إليها الجواب لا، فحينما يذوق حلاوة الإيمان وعذوبة سلامة النفس ونقاء القلب يرتع في جنانها وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الثالث : من رافة الله ما تتضمنه خاتمة آية السياق من الوعد الكريم من الله عز وجل بحجب المنافق عن مقامات التولية والسلطان، ويتجلى هذا الوعد بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣)، لتشمل رافة الله الناس في الدنيا والآخرة.

السابع : بيان التضاد بين المؤمن الذي يتغي بأعز ما يملك مرضاة الله، وبين المنافق الذي يسعى لحلول غضب الله ونزول النعمة به.

(١) سورة آل عمران ١٣٨.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ٣٠.

الثامن : إذا كان المؤمن يشري نفسه لمرضاة الله فان المنافق يبيع نفسه بثمان بخس ويعرضها للبلاء والعذاب في الدارين من وجوه:

الأول : إخفاء المنافق الكفر مع إظهاره الإيمان.

الثاني : غدر المنافق بالمسلمين في ساعة الحرج والشدة.

الثالث : إصرار المنافق على الإقامة في موطن المكر والخبث والختل.

الرابع : إثم المنافق لحذر المسلمين منه، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١)، فيأخذ المسلمون الحائطة والحذر من المنافق فيكتب له الأجر والثواب على هذا الحذر بالثراث وما فيه من العناء والهم، أما منعهم للمنافق من تولي زمام الأمور ومن تركه يعبث في الأرض فساداً فهو أمر آخر في باب الأجر والثواب، وأيهما أكثر ثواباً الحذر من المنافقين، أم صدهم ومنعهم من التولية، الجواب هو الثاني لأنه أمر وجودي أكثر جلاءً، ومن عالم التصرف الحسن، وهو فعل مقدم على الهم والحذر النفسي وثوابه أعظم، ولا يمنع منه كون هذا الحذر مقدمة ومصدراً للفعل بالتصدي والصدود عن النفاق.

التاسع : يفيد الجمع بين الآيتين تفقه المسلمين في أمور الدين والدنيا فصاروا يعرفون خصال النفاق وعلامات المنافق، ويعلمون بالطريق المؤدية إلى الجنة والنعيم الدائم.

العاشر: هل يشمل الخطاب في آية السياق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

المنافقين أم لا، الجواب هو الأول فالمراد من الذين آمنوا هو كل من آمن ظاهراً بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونطق بالشهادتين، لذا

تتوجه الخطابات التكليفية إلى المنافق كما في الصيام، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾^(١).

ليتجلى إعجاز القرآن في الجمع بين مضامين ووظائف الآيتين بأن تكون آية السياق حرباً على النفاق وخصاله المذكورة في آية البحث ويكون تقدير الجمع بينها هو إذا تولى المنافق سعى في الأرض فساداً لولا آية البحث التي تدعوه لإبتغاء مرضاة الله، ويكون من معاني رافة الله بالعباد إصلاحهم وترغيبهم بسنن الإيمان والتقوى، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٢).

الحادي عشرة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ والتي تفيد أموراً:

الأول : الإطلاق في رافة الله موضوعاً وحكماً.

الثاني : شمول رافة الله للناس في أفراد الزمان الطولية المقدرة وغير المقدرة في الحياة الدنيا وعالم البرزخ ويوم القيامة.

الثالث : العموم في رافة الله، وتغشيتها الناس جميعاً فلم تقل الآية (والله رؤوف بالمؤمنين) بل قالت ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ والعباد جمع عبد وليس عابد، لتشمل رافة الله المنافق.

وكل من آية البحث والسياق من مصاديق رافة الله عز وجل به وبالمسلمين والناس جميعاً.

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(٢) سورة البقرة ١٦٥.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١)، وفيه مسائل :

الأولى : جاءت آية السياق بصيغة الجملة الإنشائية والأمر أما آية البحث فهي جملة خبرية.

الثانية : تتضمن آية السياق الثناء على المسلمين بأمر :

الأول : إكرامهم بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثاني : الشهادة للمسلمين بالإيمان.

الثالث : شكر الله للمسلمين على الإيمان بتحذيرهم وإنذارهم من الشيطان وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ شُكْرُكُمْ لَا يَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٢)، لينفتح باب للعلم بأن نبين إشراقه من مصاديق الزيادة والجزاء العاجل من الله بنيل المسلمين صفة وحلية الإيمان بلحاظ أنه في ذاته يتضمن الشكر لله على نعمة الهداية فتأتيهم الزيادة من جهات :

الأولى : الإخبار السماوي عن بلوغهم مراتب الإيمان.

الثانية : تحذيرهم كمؤمنين من الشيطان، وتعدد معاني قيد الإيمان وموضوعيته في هذا التحذير .

الثالثة : إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية، وإحاطتهم علماً بقبح وضرر إتباع الشيطان.

الرابعة : معرفة المسلمين بعداوة الشيطان لهم وإتصاف هذه العداوة بأنها شديدة وجليّة ظاهرة.

(١) سورة البقرة ٢٠٨.

(٢) سورة ابراهيم ٧.

الرابع : الإشارة إلى تنزه المسلمين من النفاق.

الخامس : إستعداد المسلم للجهاد في سبيل الله بنفسه وماله ليشتري الآخرة ونعيمها الدائم بالدنيا الزائلة، وهو موعظة للمنافق في لزوم إصلاح سريره وعلايته ونبد النفاق والضلالة.

إعجاز الآية

التداخل الموضوعي بين الآيات والتوكيد في باب الأعمال والأفعال على صدق الذم القرآني لأعداء الدين، وفيها تنبيه وانذار وفضح ووعيد لهم.

الجمع بين خاتمة الآية السابقة وبداية هذه الآية (وهو ألد الخصام إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها) وفيه دلالة على سعي المسلمين للإصلاح وعزم خصمهم وعدوهم على الإفساد فيها، قال الشاعر:
والضد يظهر حسنه.

لتبين آية البحث الجهاد المتعدد للمسلمين والعناء الذي يلاقونه في بناء صرح الإيمان، وتهذيب النفوس وجعل الناس ينقادون لأحكام السماء ومصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا تنحصر منافع ووظائف آية البحث بنزولها وتلاوتها بل هي مدرسة في الأخلاق والسياسة والإجتماع، ينبعث منها ضياء الهداية والصلاح كل يوم فيقل عدد المنافقين، وتضعف معاني ذات النفاق في قرارة نفس شطر من الذين ييقون في منازلهم وتتضاءل عداوته للمسلمين، وتفتر عنه الرغبة في الفساد، فإن قلت هل يتعارض هذا المعنى مع منطوق الآية الجواب لا، إنما هو من معاني هذه الآية وغاياتها الحميدة في إنحسار النفاق، ووهن أربابه، وجعلهم بلا أجنحة وأعوان يأتمرون بأمرهم.

ومن إعجاز الآية القرآنية التحدي في مصداقها الخارجي وحتمية تحققه في الواقع نعم جاءت الآية بلغة الشرط، ويحتمل قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَكَّأَ﴾ معنى (وحيثما يتولى) وهل يحتمل وسيتولى أو سوف يتولى فيسعى في الأرض فساداً) الجواب نعم، ولكن الآية جاءت بصيغة (سعى في الأرض فساداً) وهو من الكلبي المشكك الذي يكون متبايناً قوة وضعفاً وبأطرافه:

الأول : السعي للإفساد.

الثاني : ذات الإفساد.

الثالث : عدد المنافقين، لتكون آية البحث من أسباب الضعف والقلّة
كما وكيفاً في الأطراف الثلاثة أعلاه.

وعلى القول بأن المنافق مسلماً في الظاهر وهو المختار فان الآية الكريمة تعلن براءة الإسلام والمسلمين منه، وأن سعيه في مسالك الفساد مخالف لأحكام الإسلام قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

وتأمر الآية أعلاه بقيام أمة وطائفة من المسلمين بموارد الصلاح المذكورة فيها ليجهز المسلمون على خصال النفاق الموجودة عند أفراد وجماعات منهم وتنحيتهم عن مقامات الشأن والسلطان، ومنعهم من العبث في أموال الناس وتعريض أرواحهم للتلف.

وفي الآية مسائل:

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

الأولى : إنها شاهد على سعة إنتشار الإسلام، ودخول فريق من الناس الإسلام بالسنتهم ولم يبلغ الإيمان جوانحهم، وأخبرت الآية عن ظهور فسادهم وبعدهم عن مبادئ الإسلام بسوء نيتهم وما تفعله جوارحهم.

الثانية : عجز المنافق عن الفساد وهو بحضرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي أيام قوة دولة الإسلام لأن الآية السابقة تتضمن الإخبار عن إدعاء المنافق الإيمان وإجتهاده في إظهاره حبه له وتصديقه برسائله، إنما يسعى في الفساد إذا إبتعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلطان دولة الإسلام، لذا حذر القرآن من النفاق بعد إنتقاله إلى الرفيق الأعلى لقوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ لَتَلْبِثُنَّ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(١).

الثالثة : الوعيد للمنافق بأن الله لا يحب الفساد، وهذا الوعيد شامل للعالمين والآخرة، أي أن سطوة النفاق لاتستمر لقانون ثابت وهو : ما لا يحبه الله لا يدوم في الأرض، ويحتمل وجوهاً:

الأول : عدم إستدامة النفاق.

الثاني : هلاك من لم يتب من المنافقين عقوبة.

الثالث : إنتفاء الفساد في الأرض.

الرابع : البرزخ والمانع دون فساد المنافقين في الأرض.

الخامس : عدم إستدامة إفساد المنافقين في الأرض.

والصحيح هو الأخير، وتدل عليه خاتمة الآية لأن الأرض ملك لله عز وجل، وعندما إحتجت الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض كما ورد في التنزيل ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(١)، رد الله عز وجل عليهم باحتجاج ووعده وعهد وإثبات لأهلية الإنسان للخلافة في الأرض بقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

فجاءت آية البحث لتكون مصداقاً لكل من:

الأول : إحتجاج الملائكة لتحقيق مصداق الفساد من قبل المنافق وإهلاكه الحرث والنسل.

الثاني : إقامة الحجة من الله عز وجل بعلمه بهذا الفساد ورميه بالنقصان والقلّة وقبح أسبابه المتمثلة بالنفاق والضلالة والكفر.

الثالث : بغض الله عز وجل للفساد وأهله وأنه سبحانه لا يرضى بالفساد ولا يترك المنافقين والكفار يعيشون في الأرض فساداً.

الرابع : تفضل الله عز وجل بانزال آية البحث وما فيها من ذم للفساد في الأرض وأهله.

الخامس : منافع آية البحث في تنزه المسلمين من الفساد، وإدراكهم لحقيقة وهي أن الفساد فعل المنافق الذي يخفي الكفر، مما يدل في مفهومه على أن الذي يكون الإيمان لباسه وشغاف قلبه يتنزه عن الفساد.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

السادس : محاربة المسلمين للفساد، وإزاحته من الأرض بمعنى أنه من معاني قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، أي أنني أعلم بالفساد ولكن حبله قصير، ومدته قليلة، وأهله في نقصان، وسوء العاقبة ينتظرهم، وهل سوء عاقبة النفاق والفساد تختص بعالم الآخرة وما أعد الله لهم من العذاب، الجواب لا، بل هي شاملة للعالم البرزخ ويوم القيامة، قال تعالى ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

وبخصوص البرزخ وعالم القبر ورد قوله تعالى في آل فرعون عقوبة لهم على ظلمهم وجحدهم بالرسالة ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٤).

ومن إعجاز الآية أنها تلاحق المنافقين في متدياتهم وعملهم وبيوتهم وفي خلواتهم، وهذه الملاحقة من وجوه:

الأول : بيان قبح النفاق.

الثاني : إخبار الآية عن علم الله بخفايا النفوس وما تضره من الحب أو البغض، والنصرة أو العداوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وهو من الشواهد على قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٣٧.

(٣) انظر الجزء المائة من هذا التفسير الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية والحمد لله.

(٤) سورة غافر ٤٦.

لِلنَّاسِ^(١)، بأن يطلعهم الله عز وجل على أحوال الناس، وما يعلنون وما يخفون من النوايا إتيانهم ليكون هذا الإطلاع والإخبار على وجوه فيها.

الأول : إنه رحمة بالمسلمين، فليس من أمة يطلعها الله عز وجل على ما يخفيه الناس وطوائفهم المختلفة نحوهم، وقد أخبر الله عز وجل المسلمين بما يكنه النصارى لهم من الود بقوله تعالى ﴿وَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾^(٢)، مما يدل على أن إخبار المسلمين بنوايا الناس أزاءهم لا ينحصر بموارد الكره والبغض والعداوة بل يشمل معاني الود والمحبة وأن الذين يودون المسلمين ولا يضرهم لهم العداوة أضعافاً مضاعفة للمنافقين الذين يسعون في الفساد.

الثاني : بعث النفرة في نفوس الناس من النفاق وأهله وجعلهم يحذرون من المنافقين لأن فساد المنافق عام في الأرض وبالقدر الذي يستطيعه ولا يختص إضراره بالمسلمين وممتلكاتهم وحدها بدليل إبتداء الآية التالية بقوله تعالى في وصف المنافق ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾^(٣).

وكل مرة يتلو فيها المسلم آية البحث تتجدد معاني النفرة من النفاق عند الناس من إخفاء الكفر مع إعلان الإيمان ليتجدد مصداق ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٤)، بدعوة المسلمين الناس بالتلاوة وغيرها لنبد النفاق وتترشح من نهجهم وصدق إيمانهم أسباب الهداية للناس،

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة المائدة ٨٢.

(٣) سورة البقرة ٢٠٥.

(٤) سورة آل عمران ١١٠.

ويستتج من المقام قانون وهو أن أفضلية المسلمين في خروجهم للناس تتكرر وتتعاقب بجلاء مصاديقه في كل آن ولا يحصل في زمان ووقت دون آخر، وإن كان هذا الحصول شاهداً أيضاً على التفضيل، ولكن الله عز وجل إذا أعطى يعطي بالأوفى والأتم، ومن مصاديقه في المقام تتحقق مصاديق أفضلية المسلمين وخروجهم للناس بأبهى حلل الإيمان والدعوة إلى الله.

الثالث : تنقية قلوب المسلمين من النفاق، ودعوة كل مسلم ليلحظ نفسه ونواياه ومقاصده ، قال تعالى ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(١)، وقد قام أحد حوارى عيسى عليه السلام بإفشاء خبره إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً، فقال: احضروني الليلة، فإن لي إليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاها، وقام يخدمهم، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بشيابه، فتعاضموا ذلك وتكاهوه، فقال: ألا من رد علي شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه فأقروه، حتى إذا فرغ من ذلك، قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أنني خيركم، فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء أن يوفقني فلما نصبوا أنفسهم للدعاء، وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها؟ قالوا: والله ما ندري ما لنا، لقد كنا نسمر فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سمرا وما نريد

دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال: يذهب بالراعي وتفرق الغنم. وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه، ثم قال: الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرّات، وليبيعنني أحدكم بدراهم يسيرة، وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرّقوا^(١).

وجاءت الآية السابقة وهذه الآية بتحذير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المنافقين.

الرابع : لزوم تعاون الناس مع المؤمنين للخلاص من النفاق أو لا أقل منع إفساد المنافقين في الأرض، وهو من إعجاز آية البحث أي أن إخبارها عن فساد المنافق في الأرض دعوة للناس لإجتنب إعانة المنافق في مقدمات فسادته وعلى الصلح والتعاون مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لكف أذى المنافقين عن الناس، قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢)، لذا فمن معاني قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣)، جذب وحشر الناس للحلف والتعاون مع المسلمين لمحاربة النفاق.

الخامس : تتضمن آية البحث إعلان قانون وهو براءة الإسلام والمسلمين من رياء المنافقين وإن إدعوا الإسلام، وبلغوا مراتب وشأناً بالشهادتين ودخولهم الإسلام.

السادس : إمامة المسلمين للناس في ميادين العدل والإحسان والخلق الحميد ومحاربة الأخلاق المذمومة والظلم والتعدي.

(١) الدر المنثور ٣/ ٢٨٤ .

(٢) سورة المائدة ٢.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (واذا تولى) .

الآية سلاح

تساهم الآية في اعانة المؤمنين على معرفة احوال المنافقين وفضحهم وتمنع من المفاجئة بقيامهم بالغدر والخذلان عند الشدة او الحاجة اليهم، وفيها تحذير منهم ومن افسادهم واذاهم اذا تمكنوا منه، وهي تنبيه وتحذير من التخريب الذي يقومون به.

وإبتدأت الآية بحرف العطف (الواو) لبيان إتصالها بالآية السابقة التي أختتمت بذم المنافق ونعته بصفات القبح التي تلزم المسلمين أخذ الحائطة منه ولزوم عدم الخشية أو الخوف منه قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾^(١) ^(٢)، ويلحظ تفسير التولي بمعنى المغادرة والذهاب في الأرض فإن الآية تدعو المسلمين إلى عدم ترك المنافق والكافر وشأنه وفيه دعوة للمسلمين لبث العيون وحراسة الثغور وإظهار أسمى معاني الصبر على الناس لدعوتهم للإسلام من غير البطش بهم فالتحذير الوارد في الآية يمنع من إشاعة الفساد ويزجر المنافقين عن التعدي على الأموال والأرواح وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣)، بتقريب صيرورة المسلمين حفظة للمجتمعات والأموال من التلف والعبث ليفوزوا بالثواب.

مفهوم الآية

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) أنظر الجزء ١٠٢ الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

تبين الآية خطر النفاق وتسلكه الى مراكز القيادة والقرار ووصول رواده الى منازل السلطان وما يجلبه على الإسلام من الأضرار فيتعمد ارتكاب الأخطار ومخالفة الشريعة فيكون سبباً في بعث السأم والممل وعدم الرضا في قلوب الناس وما لهذا من الخطر الجسيم خصوصاً في زمان

الفتوحات وحداثة عهد الناس بالإسلام وعدم امكان التمييز في الأحكام الشرعية وبين السلوك الشخصي فالإسلام رحمة للناس جميعاً وهو دين العدل والإنصاف والمنافق يسعى في الإفساد والإضرار بالناس والممتلكات، وذكر هذه الأفراد ومن باب المثال الأهم وللإخبار عن اضرار التعدي في باب الإجتماع والمال على الإسلام وجوداً واستدامة واحكاماً وسلطنة، بمعنى ان نشر الفساد باسم الدين يضعف اثر الدين في تلك البلاد ويسبب المتاعب لقادة المسلمين ويعرقل تنفيذ الأحكام ويشير الشك والريب واسباب الفوضى ومقدمات الفتن، لذا فان الآية تحذير للمسلمين خصوصاً اهل الحل والعقد بلزوم اجتناب تولية المنافق، وعلى المعنى الثاني للتولي وهو المغادرة والإعراض والخروج يكون معنى الآية رصد المنافق والحيلولة بينه وبين التأثير، وبث العيون لمراقبة الوضع العام وحراسة الممتلكات والمنع من التعدي والغيلة والغدر ومعرفة اهل الإساءة والحيف والظلم.

وخاتمة الآية حث على بذل الوسع لمنع الفساد سواء كان من المنافق او من غيره، والإجتهاد في نشر العدل وافشاء اسباب الرأفة والمودة بين الناس واطهار معالم الدين وما في احكامه من العدل.

الآية لطف

ليس من حصر لوجوه اللطف الإلهي في آية البحث والجهات التي تستفاد منها، إذ وردت بصيغة الشرط ﴿وَإِذَا تَوَكَّلْ﴾ وهو من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متباينة كثرة وقلة، وقوة وضعفاً.

وهل ينفع المسلمين الدعاء في كشف المنافق، ومنعه من التولي، الجواب نعم ليكون من اللطف الإلهي في الآية ترغيب المسلمين بالدعاء وجعلهم يلجأون إلى الله في النجاة والسلامة من المنافقين، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)، ومن الآيات ما تكون ذات تلاوتها حرزاً من المنافقين كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾^(٢).

واللطف الإلهي في الآية على وجوه:

الأول : توثيق سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإخبار عما في قلبه وما يطرأ على نفسه أزاء الناس، وهو شاهد على حصائته وعصمته من الأدران وأسباب الغل والشك والحسد ونحوها من الأخلاق المذمومة، وفي عيسى عليه السلام ورد في التنزيل ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٣).

الثاني : يحصل إعجاب في قلب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أمر وكلام يكمن وراءه نفاق، فتتزل آية البحث عليه فيزول هذا الإعجاب ويسلم الإسلام والمسلمون من المكر والفساد الذي يختفي خلف هذا الكلام.

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة البقرة ٢٠١.

(٣) سورة المائدة ١١٦.

وتدل الآية على أن قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(١)، ليس مطلقاً، ولا يشمل قول المنافق والذي يبيت العداوة للمسلمين.

الثالث : لطف بالمسلمين بتحذيرهم من المنافق وتوليد وتوليته وتركه يفسد في الأرض، فمن إعجاز الآية عدم تقييد تولية المنافق وبيان موضوعها، بل جاءت بلغة التذكير الذي يفيد العموم في مقام الإثبات، فتشمل توليته في الحكم والأسواق والأعمال والمعاملات وغيرها، ومن خصائص التحذير السماوي بقاء المسلمين في حال يقظة وفطنة متجددة.

الرابع : لا تنحصر منافع الآية بتنزيلها وتلاوتها بل تنمي ملكة الحيلة عند المسلمين من المنافقين.

الخامس : تدل آية البحث على أن عداوة المنافق لا تختص بالمؤمنين بل تشمل الناس جميعاً لعزمه على إتلاف الزرع وإهلاك الدواب، فهي وإن كانت ملكاً للمسلمين إلا أن إتلافها إضرار بالمصلحة العامة وتضييق للمعاشات، فإن قلت إن المنافق أيضاً من الناس فهل يكون عدواً لنفسه الجواب نعم، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

السادس : اللطف بأهل الكتاب والناس ودعوتهم إلى عدم نصرة المنافق لأنه لا يريد إلا الفساد، وقد جاءت كل الملل السماوية بتحريم الفساد، وهو قبيح عقلاً وتنفر منه نفوس العقلاء، أي أن الإنسان حتى إذا لم يكن مسلماً أو كتابياً فإنه يكره الفساد لمنافاته لإدراك العقل، ولأن

(١) سورة التوبة ٦١.

(٢) سورة النحل ١١٨.

الله عز وجل جعل النفوس تنفر منه، وهو من أسرار النفخ في قوله تعالى ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^(١).

ليبين خلق الإنسان في بداياته وإبتغائه على بغض الفساد، وهو من الإعجاز في مجئ آية البحث بصيغة الشرط ﴿وَإِذَا تَوَكَّى﴾ أي قد لا يتولى المنافق، أو يتولى ولكن لا تستمر توليته ويحال دونه ودون الإفساد لكره الناس له وإزاحة صاحبه عن مقامه وسلطانه وشأنه.

ترى هل كانت الملائكة لم تعلم بأثر النفخ من روح الله في الخليفة على سبته وعمله في الدنيا واكتفت بالظاهر ورؤية مشاهد من فساد الإنسان فاحتجت كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)، أم جاء إحتجاج الملائكة قبل نفخ الروح، الجواب كانت الملائكة تعلم موضوعية نفخ الروح في آدم في إصلاح الإنسان للتقوى، ولكنها أرادت تنزه الناس تماماً من النفاق والفساد وإرتقاءهم لمنزلة الملائكة، فاجاب الله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، فمن علمه تعالى التضييق على المنافقين وفضحهم ونزول آية البحث للحيلولة دون فسادهم أو تماديهم في الفساد إلى جانب شدة حسابهم يوم القيامة.

ومن اللطف الإلهي بالآية دلالتها على توصية المسلمين بتعاهد الزراعات والدواب وأسباب المعاشات، وأهليتهم لهذه الوظيفة العظيمة، وهل في الآية بشارة عمارة بلاد المسلمين بالزراعات وكثرة الخيرات، الجواب نعم، لأنها تبين الموضوع الذي يريد المنافق الإفساد

(١) سورة الأنبياء ٩١.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

فيه، وحسده للمسلمين على ما عندهم من الخيرات، ومحاولته الإضرار بهم، والمنع من إنتفاعهم الأمثل مما أخرج الله من كنوز الأرض.

وجاء قبل أربع آيات دعاء المسلمين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾^(١)، وتبين آية البحث بلحاظ الآية أعلاه وجوهاً:

الأول : ذات آية البحث حسنة ونعمة عظيمة وذخيرة لأموال الدين والدنيا وسلاح يومي لمصاحب للمسلمين.

الثاني : الإخبار عن عزم المنافق الإفساد في الأرض نعمة وحسنة عامة وهبة من الله.

الثالث : تتضمن الآية مسائل :

الأولى : سؤال المسلمين الله عز وجل سلامتهم من النفاق.

الثانية : لجوء المسلمين إلى الله للإحتراز من المنافق وفساده.

الثالثة : من الحسنة في الدنيا حفظ أموال المسلمين من التلف.

الرابعة : إختتام آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ حسنة

وفضل وقانون أخبر به الله المسلمين ليجتهدوا في العصمة من الفساد، ويعلموا أن فساد المنافقين لا يبقى ولا يستديم لأن الأرض ملك لله عز وجل ومن خصائص ملكيته في الأرض عدم بقاء ما لا يحبه فيها، قال تعالى ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢).

ومن اللطف الإلهي في آية البحث أنها موضوع مستقبل وبيان تفصيلي لما ورد في الآية السابقة لتبعث اليقظة والحيلة في نفوس

(١) سورة البقرة ٢٠١.

(٢) سورة آل عمران ١٣٧.

المسلمين، وتجعلهم في حرز من الإغترار بالقول المزخرف الخاص بالدنيا والحياة ورغد العيش فيها ولم يلتفت صاحبه إلى الآخرة ويجعل نعم الدنيا زاداً وطريقاً للآخرة.

إفادات الآية

تخبر الآية عن خصومة وشقاق المنافق، وعداوته للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وربما يقال يحتمل هذا الإخبار حصول الإرباك في صفوف المسلمين، وإنشغالهم بأمورهم الداخلية وإصابة مسالك الجهاد بالشلل والقصور في الكتائب وإعداد السرايا لنشر كلمة التوحيد وجذب الناس إلى منازل الإيمان، والصحيح بخلافه، من وجوه:

الأول : الإخبار مدد للمسلمين.

الثاني : في الآية إصلاح لحال المسلمين وتنظيم لصفوفهم، ولفظ المنافق من بينهم.

الثالث : تدعو الآية لمنع المنافق من الوصول إلى مواقع القرار والأمر وحتى البطانة، لذا كانت الآية مدنية وليست مكية أي أنها نزلت في أيام قوة شوكة الإسلام، فان قلت لقد إنتصر الإسلام على النفاق والمنافقين في مكة حيث بداية الدعوة وقلة المؤمنين، وفي المدينة فهل يحتمل عدم موضوعيتها كمدد في باب الغلبة والنصر على النفاق يومئذ الجواب لا، إذ تتعدد مصاديق المدد الإلهي للمسلمين في أمور الدين

والدنيا، ومع ظهور الإسلام، وبناء دولته، وتوالي الفتوحات تتجدد وجوه من النفاق وتظهر أمراض بوضوح ومنهم من يأتي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويخاطبه بصفة الرسالة ولكنه يضمّر البغض لمبادئ الإسلام، فكلما استحدثت وجوه من النفاق والكفر والفساد تأتي وجوه من المدد الإلهي للمسلمين بما يدفع عنهم شرور الكيد والخبث وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، من جهة بقاء المسلمين في منازل العز وعدم مغادرتها آناً ما، ومن وجوه هذا البقاء فضح صيغ النفاق، ومنع فساد المنافقين في الأرض ومقدماته ومنها تولي المنافق ولم تذكر هذه الآيات لفظ النفاق ولكنها تبين موضوعه لأن الملاك في المقام هو بيان خصال النفاق والوقاية من أهله، فقد يعتني الإنسان بالاسم ويترك المسمى، فيولي عناية للفظ النفاق والحذر منه، ولكنه لا يعلم بمصاديق النفاق وكيفية ظهور كل فرد منها والتصدي له ليكون من إفاضات الآية تفقه المسلمين في الدين، والتمييز والفعل بين عذوبة الكلام في الدنيا وإخفاء العداوة والبغض للإسلام والمسلمين، وليس كل من يعجب النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين قوله في الحياة الدنيا هو منافق، ولكن المنافق هو الذي يجمع المتضادين فمع جريان الكلام الحلو في الدنيا على لسانه فانه يكفر بالآخرة، ولا يؤمن بالوقوف بين يدي الله وسؤاله عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووجوب الإيمان بها والتصديق بنزول القرآن.

وهل يحتمل ان المقام من قانون إثبات شئ لا يدل على نفيه عن غيره وان حسن كلام المنافق في الدنيا لا ينفي حسن كلامه بخصوص في الآخرة وإظهاره التسليم بها كذباً وزوراً، الجواب إن الفرد الغالب من المنافقين هو ما ذكرته آية البحث من حسن كلامه في الدنيا وإعراضه عن ذكر

الآخرة، ولكنه وإن قام بذكر الآخرة فإن هذه الآية والآية التالية تظهران عجزه عن إخفاء سوء سريره ورغبته في الفساد والإضرار بالمسلمين والناس.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف العطف (الواو) للدلالة على عطفها على الآية السابقة وتعلقها بذات الموضوع، ترى لماذا لم تكن الآيتان آية واحدة وفق نظم القرآن، الجواب من وجوه:

الأول : إفتتحت الآية السابقة موضوع المنافق والتحذير منه.

الثاني : جاءت الآية السابقة خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أما هذه الآية فجاءت بلغة الشرط الذي يتضمن الإخبار.

الثالث : تضمنت الآية السابقة نوع إحتجاج على المنافق وفضحاً لفعله، وتكديماً لإفترائه على الله، فإبتدأت هذه الآية بموضوع آخر مستقل.

الرابع : الآية موضوع متكامل يتألف من مسائل :

الأولى : حسن قول المنافق في الدنيا.

الثانية : إجتهد المنافق بالتغطية والستر على نزعة الكفر المستقرة في نفسه.

الثالثة : إدعاء الزور فيما يخص ما تنطوي عليه نفسه قال تعالى ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(١).

الرابعة : تأكيد التباين بين قول المنافق الحسن وبين شدة عداوته للمسلمين.

الخامس : إنتقال آية البحث إلى موضوع آخر وهو حال تولي المنافق والتخلية بينه وبين أموال وحقوق الناس، فمع غياب واعن الخشية من الله، وشدة عداوته للمسلمين، وأمنه من العقوبة يقوم باتلاف الزراعات وقتل الدواب والبُدن.

والسعي في الأرض في الغالب عمارة لها، وجلب للخيرات، ومزاولة للتجارة والمضاربة ونشر مبادئ الإسلام، قال تعالى ﴿فَافْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾^(١)، ولكن الآية تبين وجود فرد نادر يسعى في الأرض للإضرار بالمؤمنين والناس مطلقاً، وهو المنافق، وفيه دعوة للتبصر والحذر، وعدم صيرورة حسن القول في الدنيا وإشهاده الله على ما في قلبه سبباً للطمأنينة لصاحبه في سعيه، فقد يتصف أو يختتم سعيه بالفساد والإضرار العام.

ترى لماذا تقل الآية: سعي في الأرض ففسد فيها) على نحو التحقيق وحدوث فعل الفساد واقعاً، الجواب من وجوه:

الأول : إرادة بيان حقيقة وهي أن سعي المنافق ليس شراً كله، فقد يتخذ سبل الخير وسائط لبلوغ مآربه.

الثاني : تحذير المسلمين من سعي المنافق في الخيرات لأنه يتخذها بلغة للإفساد فقد يبادر إلى الإحسان، وإلى النفي ولكن حينما يجد الجدد وتقوم الحرب تراه يتوارى عن الأنظار، ويأتي بالأعذار للتخلف عن وظائف الجهاد والإيمان، وفي التنزيل ﴿يَقُولُونَ إِنَّا بَيِّنَاتٌ عِندَ رَبِّهِ

بَعُورَةٌ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا^(١)، فإذا تولى المنافق يسعى في الأرض وهو ينوي جعل هذا السعي مادة ومطية الإنسان، نعم قد يكون السعي فساداً في ذاته ويكون تقدير الآية وإذا تولى سعى في الأرض فساداً ليفسد فيها، فيكون الفساد صبغة سعيه، ومقدمة لفساد آخر ولتلف الأموال وإتلاف الزرع وإماتة الدواب.

وليس من كلمات بين سعي المنافق في الأرض وبين سوء فعله المترشح عن هذا السعي مما يدل على سوء نيته وخبث سريرته أثناء سعيه وان كان هذا السعي في الصالحات، لذا يشترط في قبول العبادات والطاعات قصد القربة إلى الله، والذي يسعى ويعمل بقصد الإفساد لا ينال الثواب لإنتفاء قصد القربة عنده وإستحالة إجتماع النقيضين.

وتتضمن الآية التفصيل في ذكر مقاصد وغايات المنافق من سعيه في الأرض، وهي على وجوه:

الأول: الإفساد في الأرض.

الثاني: إتلاف المزروعات ومحاولة تعطيل المعاشات والتجارات بحسب الحال والكيفية والموضوع الذي يسعى فيه للإضرار.

الثالث: إهلاك الدواب والنسل.

لتبين الآية الدمار العام الذي يسببه تولى المنافق، وفضل الله عز وجل في حجه عن التولي والشأن وحتى على القول بأن المراد من التولي هو الذهاب والمغادرة والإعراض، فإن الله عز وجل جعل المنافقين تحت سلطان المسلمين ومنعهم من العبث في الأرض وتزاحم الخوف والفرع مع النفاق في قلوبهم مما يجعل سعيهم ناقصاً ومشلولاً.

وأختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ لبيان قانون كلي يتغشى أيام الحياة الدنيا وهو بغض الله لفعل الفساد ومقدماته وأضراره سواء صدر من المنافق أو من غيره، وفيه تأديب للناس وإصلاح للمجتمعات وبعث للفرع والخشية من الله في النفوس من الفساد بأنه سبب لنزول البلاء والعقاب.

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان ما يلاقيه المسلمون من الأذى من المنافقين.

الثانية : تحذير المسلمين من النفاق وأهله، ولزوم عدم تهيئة أسباب تولي المنافق تصريف الأمور.

الثالثة : مصاحبة الفساد للنفاق وترشحه عنه، مما يدل على قبح النفاق الذاتي والعرضي.

الرابعة : إرتقاء المسلمين في سلم المعارف، وتبصرهم بعواقب الأمور.

الخامسة : بيان موضوعية الولاية والسلطنة في عالم الأفعال والمصالح العامة، ولزوم إختيار المؤمن الذي يخشى الله للولاية والحكم والإمرة.

السادسة : بعث المسلمين لدفع المفسدة التي تنفرع عن ذات النفاق، وعن سطوته.

السابعة : البيان التفصيلي للفساد الذي يقوم به المنافق في حال توليه.

الثامنة : بلاغ الآية بأن الله يبغض الفساد وأهله، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١)، وفيه دعوة للناس جميعاً للتزهد من النفاق كخلق مذموم وسبب في الفساد.

التاسعة : بشارة انحسار النفاق، فما دام سبباً للفساد فإن النفوس تنفر منه، وتبغض أهله، وهذا البغض مانع من إتساع دائرة النفاق وتحول دون كثرة عدد المنافقين ونفوذهم.

العاشرة : تأكيد جهاد المسلمين في إصلاح المجتمعات وحجب الفساد عنها.

الحادية عشرة : النفاق حرب على الإنسانية والمجتمعات.

الثانية عشرة : التنبيه إلى حقيقة وهي أن المنافق لا يكتفي باتلاف الزروع أو الدواب وحدها، بل يقوم بالجمع بين إتلاف الزراعات والدواب، وجاء ذكرهما على نحو المثال الجلي لبيان تغشي صبغة الفساد لفعل المنافق مطلقاً، ولا يختص فساد به بالحرث والدواب، لذا وردت الآية بالإطلاق في قوله تعالى ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ثم عطفت هلاك الحرث والنسل على الفساد ليكون من عطف الخاص على العام، فاذا تولى المنافق في موضع ليس فيه حرث ونسل فهل يمتنع المنافق عن الكيد والفساد، الجواب لا.

وجاءت الآية باسم النسل ﴿وَبُذِّلَكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ لإرادة المعنى الأعم من النسل وعدم إختصاصه بالدواب والسائمة بل يشمل الناس ومجئته على أسباب ومقدمات النكاح وكثرة النسل.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾

يتجلى الإعجاز القرآني بالتفصيل الدقيق لأحوال الناس وما يضمرون أزاء الإسلام، لتكون مدرسته سلاحاً وقائياً دائماً عند المؤمنين وقادة المسلمين، وفيها تخفيف واعانة وتشجيع للدين. وللتولي في الآية معنيان:

الأول: الإعراض والمغادرة والخروج من عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإنصراف الى جهة اخرى قريبة او بعيدة.

الثاني: ان التولية بمعنى الولاية والسلطنة فاذا اصبح والياً او كان له امر وشأن في اصدار القرار فانه يظهر الظلم والمعصية ويسبب الأذى ويلحق الضرر بالملة والأمة.

ويمكن مناقشة المعنيين قرانياً ومن جهة النصوص والواقع الخارجي، والبحث من جهة القرآن تحقيق شريف يظهر نتائج يتعذر الحصول عليها من دليل وجهة اخرى، وتكون نتيجته حجة وبرهاناً حاضراً، وغالباً ما يمتنع ذاتياً عن الإحتمالات وتعدد وجوه التأويل.

وجاء (التولي) في القرآن بالمعنيين، والقرائن تفيد ان المراد منه في المقام المعنيان معاً، فهو بمعنى الإعراض وفيه آيات كثيرة منها قوله تعالى

﴿ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ ^(١) ﴿ فَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ ^(٢) وحتى فرعون ورد فيه قوله تعالى ﴿ فَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ ^(٣) أي انصرف ليعد عدته وقد يكون تولي المنافق مثله أي اذا تهيئت له اسباب العدة فانه يجهز على المسلمين، لذا كان تحذير المسلمين منه ضرورة وسبباً في اجتناب الخسائر والأضرار لتتجلى حاجة المسلمين المستمرة للرجوع الى القرآن واستنباط الدروس.

وقد وثقت بعض النصوص اخبار المنافقين كرواية الأحنس المتقدمة وقصة عبد الله بن ابي سلول كما في قوله تعالى ﴿ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ ^(٤) ويشمل الآية المعنى الثاني وهو تولي المنافق والمعاند والمخادع للأمرة والسلطنة، فالآية تنبيه ومانع من حصول وحدث هذا التولي، وتحذير من سلطنة المنافقين واخبار عن الدمار والهلاك الذي يأتي مع هذه الولاية، ومواساة ودعوة للصبر في حال حصولها، وفيها بيان لإماراتها وعلاماتها، وفي مفهومها نهى عن نعت الآخرين بالنفاق من غير اسباب وعلامات ظاهرة وفق مضامين الآية الشريفة.

تفسير قوله تعالى ﴿ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾

أي انه يجد ويعمل ويتنقل من اجل الإفساد والأضرار، والإفساد

(١) سورة النساء ٨٠.

(٢) سورة الاعراف ٧٩.

(٣) سورة طه ٦٠.

(٤) سورة المنافقون ٨.

على وجوه:

الأولى : اتلاف الأموال.

الثانية : الأضرار بالمسلمين جسدياً.

الثالثة : بعث الشك والريب في النفوس.

الرابعة : إثارة الشكوك في عقائد الإسلام.

الخامسة : المنع من تثبيت احكام الدين.

السادسة : صد الناس عن الإسلام.

السابعة : نشر سنن وعقائد الشرك.

الثامنة : محاولة تقوية وجوه التحريف.

التاسعة : محاربة الناس في ارزاقهم والأضرار بانظمة المعاش العامة والصناعات.

العاشرة : ايجاد المشكلات الإقتصادية.

الحادية عشرة : منع المسلمين من النفير.

الثانية عشرة : التعدي على مواشي ومزروعات المسلمين بالسرقة والإتلاف.

الثالثة عشرة : قطع الرحم واطهار الجفاء في العلاقات الإجتماعية.

الرابعة عشرة : بث الدعايات المغرضة عن سوء وقصد، ومحاولة اشاعة الإفتراءات على المؤمنين.

الخامسة عشرة : الإفساد بمعناه السلبي بان يعرض عن النفع والإنتفاع منه، فاذا اراد المسلمون منه العون والمساعدة اعتذر ونأى بجانبه.

السادسة عشرة : الإخلال بالشروط والوعود التي يعد بها المسلمين خصوصاً أوان الحاجة.

السابعة عشرة : مع حلاوة اللسان ومحاولة بعث الآخرين على الإطمئنان والإسترسال لما يقول ويفعل فإنه في حال التولي والمغادرة يسعى ويجتهد في التخريب والأضرار والإفساد أي يتخذ حلاوة اللسان وما يدعي فعله في المستقبل وسيلة للوصول الى السلطة.

الثامنة عشرة : من الإفساد تحريض الآخرين على التفريط وتوسعة دائرة النفاق والمكر، فيترشح عن سعيه انعدام الحلاوة على اللسان في شؤون الدنيا ايضاً.

التاسعة عشرة : الظاهر ان قوله الحسن في الدنيا محصور بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين مطلقاً في كل زمان ومكان، فحينما يختلي المنافق بأصحابه او الناس الآخرين مطلقاً يسارع الى بث سمومه واطهار عداوته ويواصل محاولات ايقاع الفتنة والإنتقاص من المؤمنين.

العشرون : الآية تحذير للمسلمين من المنافق والمخادع وحث على رصده والإشارة اليه بغية الحذر النوعي العام منه.

الحادية والعشرون : الآية توبيخ للمنافقين ومريدي السوء والشر والعدوان وتقبيح لأفعالهم ودعوة لهم للهداية والصلاح.

الثانية والعشرون : كشف الخفي من الذنوب التي تتضمن الظلم للدين والناس مدرسة اعجازية في القرآن ساهمت في اصلاح الكثير من الناس، وجعلت الوقاية العقائدية للمسلمين مبنية على اسس عقلية ومعارف نظرية وقواعد كلية تصاحبهم في كل زمان ومكان.

الثالثة والعشرون : تدل الآية على قوة تأثير النبي صلى الله عليه وآله

وسلم في الناس وصدق دعواه النبوة لأن المنافق والمخادع يتصاغران امامه ويضطران الى اظهار الكلام فيفضحهما اللسان وتكون جوارحهما سلاحاً للإسلام.

الرابعة والعشرون : تبين الآية عز الإسلام بالمدد الإلهي في التعليم والتوجيه والتأديب فكما يقدم الوالدان والأهل على تعليم الولد ذكراً كان او انثى وتحذيره اول دخوله معترك الحياة، فان القرآن يحذر المسلمين ويعلمهم ولكن هذا التحذير والتعليم يصاحبهم في اطوار حياتهم المختلفة ويمنعهم من اهل الشبهات والأباطيل.

الخامسة والعشرون : للآية وظيفتان خاصة وعامة فالخاصة فضح المنافقين، والعامة بناء المجتمع الإسلامي وترسيخ العقيدة.

السادسة والعشرون : السعي للإفساد اعم من حصوله وتحقيقه خارجاً ولكنه عمل سوء يستحق الإثم، فالآية ليست للإخبار فقط بل للرد والتصدي ومنع الفساد.

تفسير قوله تعالى ﴿وَيُولِكُ الْحَرْثُ﴾

الأول : عطف تلف الحرث والنسل على الأفساد من عطف الخاص على العام جاء لتوكيد افساد المنافق والمخادع والإضرار المحتملة مما يرتكبه من المنكرات.

الثاني : وردت مادة الحرث ومصاديقها عشر مرات ثمانية منها تعلقت بالزراع وواحدة بالنساء وواحدة بالأعمال وجزائها، فالظاهر والقرائن تدل على ان المراد في هذه الآية هو الزرع.

الثالث : لقد جاء الزرع في الآية من باب المثال الأهم لما فيه من اسباب قوام الحياة المعاشية والغذائية والا فان الآية اعم في دلالتها

وتشمل التجارات والصناعات والمصالح والمقتنيات الخاصة بحسب مناسبة الحال.

الرابع : بلحاظ ان النساء حرث فان المنافقين والمخادعين يحاولون تقليل الإخصاب عند المسلمين ولو على نحو غير مباشر باشغالهم بالفتن او بتعريضهم للقتل او بنقص الغذاء الذي يجعل الرجال يعزبون عن الزواج وكثرة العيال.

الخامس : بلحاظ ان الحرث هو العمل فانهم يحاولون منع المسلمين من اداء الفرائض والمستحبات.

السادس : الحرث عنوان النماء والإنشاء والتكوين أي ان المنافقين المخادعين يحاولون هدم معالم البناء الإقتصادي للمسلمين لإرباكهم واثارة الفتنة من الداخل.

السابع : تلف الزرع يؤدي الى هلاك الأنعام والنقص السريع في الثروة الحيوانية عند المسلمين.

الثامن : النقص في الأنعام يعرقل الكتائب وحملات الفتح والجهاد في سبيل الله سواء بنقص المؤونة او الخيل والدواب التي يركبها الغزاة.

التاسع : قلة الثروة الزراعية والحيوانية يجعل المسلمين يشغلون بجوائهم الخاصة والجهاد لتأمين المؤونة لعوائلهم.

العاشر : اصل الحرث شق الأرض ولكنه جاء استعارة هنا مما يدل على ان المنافقين يحاولون منع الزراعة من اصلها وليس فقط تلف المزروعات.

وليس من حصر لوجوه وطرق وكيفية إهلاك المنافق للحرث

والنسل، فقد يتولاه بنفسه مباشرة، أو بواسطة أعوانه وجنوده أو بصيغة غير مباشرة كما لو ساق الناس لحرب ظالمة وهجوم على مصر من أمصار المسلمين فتتلف الزراعات لافتقارها إلى التعاهد بالسقي ونحوه، وتهلك المواشي لعدم وجود المراعي والرعاة، ويغيب الرجال في الدفاع ومواطن الدفاع فتعطل الأرحام، وتقل نسبة الولادات، إلى جانب قتل الشباب في سوح المعارك التي ليس من سبب وجيه أو غاية حميدة لها.

ترى لماذا لم تأت الآية بصيغة البناء للمجهول ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ أو بالجمع بين الصيغتين في ذات آية البحث الجواب في صيغة البناء للمعلوم المرسومة في آية البحث حجة على المنافق وأنه ييؤ باثمه وان كان أتباعه هم الذين أفسدوا، أو أن إهلاك الحرث والنسل جاء بالواسطة وطريقة غير مباشرة، قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ...﴾^(١).

ويفسد المنافق في الأرض ويفرض الأتوات والأعشار والضرائب على التجار فتصاب تجارتهم بالكساد بسبب إضطرارهم لرفع الأسعار أو التعرض للخسارة، لتحصل البطالة في المدينة والريف وتفتقر الأسواق وتحدث جرائم السرقة والقتل والفتن بسبب هلاك الحرث والنسل ويستولي الهم والحزن والخوف من المستقبل المجهول على النفوس، فجاءت كل من آية السياق والبحث لمنع هذا الإنهيار والإنحطاط، ولدعوة الناس لصد المنافق عن منازل التولي والسلطنة، ليواظبوا على العبادة والتفكير بآيات الله الكونية والتنزيلية، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

(١) سورة النحل ٢٥.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

وهل يختص إضرار المنافق بالحرث والزراعات والدواب أم هو أعم، الجواب هو الثاني فالآية ذكرت الحرث والنسل من باب المثال الأمثل والفرد الغالب والقريب الظاهر وموضوع النزول، وإلا فإن المنافق الذي في الحضر والمدن تظهر عداوته بتلف الممتلكات مطلقاً أو بتعطيل الطرق، والسلب في البراري.

وهناك مسائل :

الأولى : هل هلاك الحرث والنسل مطلوب بذاته للمنافق.

الثانية : هل تنحصر أضرار إتلاف المزروعات ونفق وقتل المواشي بأصحابها.

الثالثة : هل من صبغة عقائدية ومحاربة للإسلام في إهلاك المنافق للحرث والنسل.

والجواب على الأولى هو المعنى الأعم وأن هلاك الحرث والنسل مطلوب بذاته وتترشح عنه أضرار غيرية وعرضية وأما الثانية فإن تلف المزروعات وقتل المواشي ضرر بالصالح العام وجلب للمفسدة، وإشاعة للأخلاق المذمومة، وإشغال للمسلمين عن عبادتهم وأما الثالثة فإن إفساد المنافق في الأرض محاربة للإسلام من وجوه:

الأول : إضلال وإغواء الناس.

الثاني : إفساد المنافق مع إدعائه الإسلام ظاهراً، وفيه تشويه للإسلام.

الثالث : صد الناس عن دخول الإسلام لما يرون صدور الفساد ممن يدّعي الإسلام في حال توليه.

لذا جاءت آيات موضوع النفاق الثلاث هذه، بفضح المنافق والتبرء منه، فأخبرت الآية السابقة بأنه ألد الخصام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وأخبرت هذه الآية بأن المنافق مفسد وذكرته مصاديق من إفساده وإضراره بانلاس ثم أختتمت ببغض الله للفساد، وبينت الآية التالية إصراره على العداوة والفساد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ وأختتمت بأن النار هي المثوى الدائم للمنافق.

ثم إنتقلت الآية التالية إلى الثناء على المؤمنين والإخبار عن تفانيهم في مرضاة الله، وبذلهم النفس في محاربة الفساد وكشف زيف ورياء المنافق ودعوة المسلمين للجهاد في سبيل الله بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ (١).

تفسير قوله تعالى ﴿وَالنَّسْلُ﴾

الأولى : النسل لغة هو الولد، وقيل الناس نسل آدم، ولكن آدم من مجموع الناس ايضاً، ومنهم حواء وهي ليست من نسل آدم، الا ان يراد خروجهما بالتخصيص، او ان المراد الناس في جيل معين لاحق لايامهما.

الثانية : ورد لفظ النسل في آيتين من القرآن، والثانية قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهُمْ «سُلَالَةً مِنْ» مَاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢) والهاء تعود لآدم وهي قرينة على ان المراد هو الناس باستثناء آدم وحواء وهذا التعدد الثنائي فقط في لفظ النسل يدل على عظيم الضرر الذي يقدم عليه

(١) سورة البقرة ٢٠٧.

(٢) سورة السجدة ٨.

اهل النفاق.

الثالثة : بيان الإضرار الجسيمة التي يقدم عليها المنافق والمخادع أوان الفعل وما يظهر في المستقبل من آثار ضارة على المجتمعات.

الرابعة : كي لا ينخدع المسلمون بكلام المرائي والمنافق العذب في خصوص الدنيا وييقون على حذر ظاهر منه، متى ما ادرك ان كلامه في الدنيا لا ينفعه ولا يسترزيفه وكذبه فانه يتوخى الحذر ولا يقدم على الإضرار بالمسلمين، وبذا تكون الآية رحمة وتخفيفاً عن المسلمين.

الخامسة : مجيء اهلاك النسل على نحو الإطلاق يؤكد اضرار المنافقين بالناس وليس بالمؤمنين فقط، اما لأن البركة ودوام الحياة بالإسلام وسيادة مبادئه واحكامه لأن بقاء اعلاء كلمة التوحيد به، او لأن افعالهم تؤدي الى الإضرار الفعلي بالناس جميعاً، والأول هو الأرجح فمن يحارب الإسلام انما يضر الناس جميعاً وهذه النكتة من اعجاز واسرار الآية، ويمكن ان يقال ان القدر المتيقن من الآية هو نسل المسلمين، ولكن الأصل هو الإطلاق ولا قرائن تفيد التقييد بل انها بخلافه بلحاظ فلسفة التوحيد وضرورتها لدوام الحياة الإنسانية.

السادسة : ان هذا الوصف وترتب الأثر على فعل المنافق والمخادع لا يمكن ان يقوم به شخص واحد او جماعة معينة، وبما ان الأصل في الكلام حمله على الحقيقة وليس المجاز فان الهلاك هنا بمعنى التلف وزهوق الأنفس سواء بمباشرة الفتن او بالتسبيب لها.

السابعة : تدل الآية على عجز المنافق والمخادع عن الأضرار بالمسلمين علانية وفي حوزتهم ولكنه يتصيد الفرص وينتظر الغفلة

والبعد عن مراكز القوة والإجتماع والرئاسة.

الثامنة : في الآية ثناء على المسلمين على ما يعانون من الكيد والأذى والشر.

التاسعة : الآية دعوة للمسلمين الى اليقظة واخذ الحيطة في امور الدنيا وحراسة اموالهم وتحصين اولادهم بالإيمان.

العاشرة : تنبيه للمسلمين بالإحتراز من الذي لم يثبت إيمانه وصدق سريره.

الحادية عشرة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على ما يدخر للمسلمين من الثواب الجزيل في مواجهة قوى الضلالة والكفر.

الثانية عشرة : لأهمية حرث الآخرة والسعي لها جاء التنبيه القرآني والتحذير من اهل النفاق والخداع.

الثالثة عشرة : منهم من قرأ (ويهلك) بفتح الياء ليكون الفعل مبنياً للمعلوم، فهلاك الحرث والنسل يترتب على سعيه في الإفساد اذ ان تفشيهِ يجعل السماء تمسك القطر وينزل البلاء، وبذا تكون محاربة النفاق باباً للسعة في العيش لعامة الناس.

الرابعة عشرة : الآية مساهمة قرآنية مباركة لإجتثاث الباطل والغرور من الأرض فسعيهم مواجه بآية قرآنية تسعى بذاتها لمحاربتهم وتحث وتساعد المسلمين للتصدي لهم ومنع سعيهم بالباطل.

الخامسة عشرة : على المعنى الثاني المتقدم للتولي فانه يسبب بولايته الإضرار بالناس، وإيقاع الفتن والحروب والخسارة الكبيرة في الأموال والزراعات والأنفس.

السادسة عشرة : الإمام علي في الآية ﴿ وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ بظلمه

وسوء سيرته، وورد عن الصادق عليه السلام في الآية: ان الحرث في هذا الموضوع الدين والنسل الناس، وعنه: كما في تفسير العياشي: الحرث الذرية، وعن ابن عباس: نزلت الآيات الثلاث في المرائي لأنه يظهر خلاف ما يظن، وهو المروي عن الصادق عليه السلام.

تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

الأول : قاعدة كلية وتشريع سماوي جاء في القرآن على نحو الإطلاق، وقرائن الحال لا تدل على الحصر.

الثاني : في الآية تحذير عام من مباشرة الفساد والتسيب له لأن الله عز وجل يغيظه.

الثالث : الآية انذار وتحذير لأن ما لا يرتضيه الله لا يمكن ان يدوم في الأرض.

الرابع : الآية تخويف ووعيد لأن ما يغيظه الله عز وجل يؤدي الى العذاب الأليم في الآخرة لمن يسعى للإفساد في الأرض.

الخامس : عدم محبته تعالى للشيء يدل بالدلالة التضمنية على اندحاره، وفعلاً فان قوله تعالى ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ اعم من حصول الإفساد لأن الإبتلاء والإمتحان بالأفعال يتعلق بالعباد، اما الملك فعائديته المطلقة لله تعالى فلا يحدث الا ان يشاء ويأذن تعالى بحدوثة وقد كتب للإسلام البقاء والدوام، وللمؤمنين العز والصلاح.

السادس : في الآية سكينه للمسلمين لما فيها من الإخبار عن عدم رضاه تعالى بالشر وصيغ الإتلاف والقتل والنهب.

ولما أخبرت الآية السابقة عن إشهاد المنافق لله عز وجل على ما في

قلبه لإرادة تأكيد إيمانه والإخبار عن صدق إسلامه وأن سريرته توافق علانيته من إظهاره الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، جاءت خاتمة هذه الآية لبيان قانون كلي وهو أن الله لا يحب الفساد، ومن الفساد الإفتاء على الله عز وجل وإشهاده على أمر مخالف للواقع وليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١)، أمور:

الأول : يبين الله عز وجل ما في الصدور.

الثاني : يفضح الله عز وجل الغيبة والكذب عليه وإن كان خفياً وكامناً في القلب.

الثالث : يجعل الله علمه بما تخفي الصدور في سبل إصلاح المجتمعات وتثبيت كلمة التوحيد، ومحاربة الكفر والنفاق، فعلمه تعالى بما في الصدور ليس لذاته بل لمنفعة الناس في الدنيا، وصيرورة هذا العلم حجة في عالم النشور والحساب، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٢).

الرابع : تفضل الله عز وجل بحمل كصداق من علمه بما في الصدور في القرآن كما في الآية السابقة ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٣)، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤)، وبعد أن ذكرت آية البحث تسخير المنافق الولاية للفساد في

(١) سورة غافر ١٩.

(٢) سورة الطارق ٩.

(٣) سورة البقرة ٢٠٤.

(٤) سورة النحل ٨٩.

الأرض أخبر الله سبحانه في ذات الآية عن بغض الله للفساد مطلقاً، وفيه أمور:

الأول : تبرأ الله وملائكته ورسله المفسدين.

الثاني : بغض الله عز وجل للفساد يتضمن الإنذار والتخويف للذين يقومون بالفساد.

الثالث : دعوة المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرابع : الفوز بالثواب العظيم في محاربة الفساد والنهي عنه، وهل من ثواب في إجتنب الفساد أي الذي لا يقوم بالفساد هل يأتيه ثواب على هذه الحصة وحدها، الجواب نعم بلحاظ أن هذا الإجتنب أمر وجودي ومقصود، ليكون من مصاديق خاتمة الآية ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أمور:

الأول : وجوب الإبتعاد عن الفساد والإفساد.

الثاني : إجتنب الركون للظالمين الذين يفسدون في الأرض.

الثالث : السعي في الخيرات وأداء الفرائض والعبادات وهو أمر يحبه الله عز وجل.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٢٨	قانون وحدة المناسك
٤	الإعراب واللغة	٢٩	تعاهد المناسك
٤	بحثان في القراءة	٢٨	قانون وحدة المناسك
٦	في سياق الآيات	٣٢	قانون الإفاضة
١٤	إعجاز الآية	٣٥	تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾
١٥	الآية سلاح	٣٦	لفظ (الناس) فيه أقوال
١٧	مفهوم الآية	٣٨	بركة الإفاضة
١٨	من غايات الآية	٤٠	مادة فاض
٢١	إفاضات الآية	٤٣	أفعال منى
٢٣	الآية لطف	٤٤	رمي الجمرة
٢٤	الصلة بين أول وآخر الآية	٤٤	بحث فقهي
٢٧	تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾	٤٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٧	تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٦٧	الصلة بين أول وآخر الآية
٤٨	قوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْ أَنْسَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾	٦٨	من غايات الآية
٤٨	الإعراب واللغة	٧٠	تفسير ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْ أَنْسَكُمْ﴾
٥٠	في سياق الآيات	٧٦	تفسير قوله تعالى ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾
٦٠	إعجاز الآية	٧٦	موضوعية الذكر
٦٢	الآية سلاح	٧٨	تفسير قوله تعالى ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾
٦٣	أسباب النزول	٨٠	تفسير قوله تعالى ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾
٦٤	مفهوم الآية	٨٣	تفسير قوله تعالى ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾
٦٥	إفاضات الآية	٨٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾
٦٦	الآية لطف	٩٢	قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٢	الإعراب واللغة	١٢٢	تفسير ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾
٩٢	في سياق الآيات	١٢٥	تفسير ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
١٠٠	إعجاز الآية	١٣٠	قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
١٠٢	الآية سلاح	١٣٠	الإعراب واللغة
١٠٤	مفهوم الآية	١٣٠	في سياق الآيات
١٠٦	إفاضات الآية	١٣٦	إعجاز الآية
١٠٨	الآية لطف	١٣٩	الآية سلاح
١١٠	الصلة بين أول وآخر الآية	١٤٠	مفهوم الآية
١١٣	من غايات الآية	١٤١	إفاضات الآية
١١٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾	١٤٢	الآية لطف

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٣	الصلة بين أول وآخر الآية	١٦٥	من غايات الآية
١٤٤	تفسير قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾	١٦٨	إفاضات الآية
١٥٠	قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾	١٧٠	الآية لطف
١٥٠	الإعراب واللغة	١٧١	الصلة بين أول وآخر الآية
١٥١	في سياق الآيات	١٧٧	تفسير قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾
١٦٢	إعجاز الآية	١٨٠	بحث أصولي
١٦٣	الآية سلاح	١٨١	تفسير قوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾
١٦٤	مفهوم الآية	١٨٤	تفسير قوله تعالى ﴿لَنْ يَنْتَفَىٰ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٦	تفسير قوله تعالى ﴿لَنْ أَتَقَىٰ﴾ فيه وجوه	٢١٥	الآية سلاح
١٨٩	بحث عرفاني	٢١٧	أسباب النزول
١٩١	بحث تأريخي	٢١٨	مفهوم الآية
١٩٢	تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾	٢١٩	إفاضات الآية
١٩٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنكُم إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾	٢٢٠	الآية لطف
١٩٧	قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾	٢٢١	الصلة بين أول وآخر الآية
١٩٧	الإعراب واللغة	٢٢٩	من غايات الآية
١٩٨	في سياق الآيات	٢٣٢	تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
٢٠٩	إعجاز الآية	٢٣٦	تفسير قوله تعالى ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ الْخِصَامُ ﴿﴾	٢٧٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٤٣	قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى﴾ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿﴾	٢٨٢	من غايات الآية
٢٤٣	الإعراب واللغة	٢٨٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ ﴿﴾
٢٤٥	في سياق الآيات	٢٨٥	تفسير قوله تعالى ﴿سَعَى﴾ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴿﴾
٢٦٢	إعجاز الآية	٢٨٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ ﴿﴾
٢٧٠	الآية سلاح	٢٩٢	تفسير قوله تعالى ﴿وَالنَّسْلَ﴾ ﴿﴾
٢٧١	مفهوم الآية	٢٩٤	تفسير ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ﴿﴾
٢٧٢	الآية لطف	٢٩٨	الفهرس
٢٧٧	إفاضات الآية		